نور الدين عبد القادر

صفحات من تاريخ مدينة الجزائر

من أقدم عصورها إلى إنتهاء العهد التركي

دار الحضارة

صفحات

في تاريخ مدينة الجزائر

من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي

تأليف

نورالدين عبد القادر



دار الحضارة

الايدا القانوني: 3026- 2006
ر د م ك: 3-54-767-9961

دار الحضارة

ص ب 04 بئر التوتة الجزائر

هاتف/فاكس: 41. 34. 44 (021)

مقدمة

الحمد لله وحده وبعد، فهذه صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، وعاصمتنا بدأ شأنها يعظم من أوائل القرن العاشر الهجري والسادس عشر الميلادي.

فسارت من ذلك الزمان سير التقدم والترقي إلى أن بلغت الدرجة التي هي عليها الآن زاحفة إلى الأمام محروسة بعناية الله وحفظه.

وقد اجتهدنا في أن تكون هذه الصفحات مفيدة، فيها كفاية لمن يريد الإلمام بتاريخها إلماما إجماليا له قيمته، ولم نهمل جانب الحضارة والثقافة إنه هو الذي يهمنا بالخصوص ولهذا أفردنا له قسما وافرا.

وكان اعتمادنا في شطر من هذه المجموعة على مخطوطة أعارها لنا منذ سنوات صديق لنا وسميناها بتقاييد ابن المفتي كما سيأتي القول عنها بالتفصيل، واعتمدنا عليها مع ما فيها من سقم في التعبير وهنات أخرى وهي في غاية البساطة ونهاية السهولة من ناحية الإنشاء، ولعله يناسب هنا ايراد نكتة وردت في ترجمة المربي الشهير محمد بن عمر الهواري دفين وهران والمتوفي بها سنة 843هـ في كتاب البستان لابن مريم الذي عاش بمدينة تلمسان وفرغ من تأليف سنة 1011هـ/1602م، ونشر هذا المجموع من التراجم شيخنا المرحوم بن شنب بمدينة الجزائر سنة 1908م، 1326هـ، والشيخ الهواري قصد بتأليفه الذي سماه بالسهو والتنبيه جانب النصيحة والموعظة الحسنة وتهذيب الأخلاق فلم يعتن بإجادة الأسلوب وزخرفة الألفاظ، وبلا شك لو كانت هذه التقاييد في عبارة فصيحة بليغة

لكانت أجدى وأنفع ولكن على كل حال فالفائدة التي ننشدها وهي معرفة تاريخ ماضي بلدنا الجزائر موجودة ولله الحمد، وناهيك بالموجود عن المفقود، وقد قيل قديما: إن المعاني تحيي والألفاظ تلاشي.

قال في البستان مايلي: لما ألف الشيخ محمد الهواري السهو الذي عمل عليه التنبيه أخذه الفقيه أبو زيد عيد الرحمان المعروف بالمقلش (بتشديد اللام مع فتحها) فوزن فيه أشياء وأعرب فيه أشياء فأتى به الشيخ وقال له ياسيدي إني أصلحت سهوك، فقال له الشيخ هذا السهو يقال لـه سهو المقلش وأما سهوي فهو سهو الفقراء إنما ينظرون فيه إلى المعنى ومن أين العربية والوزن لمحمد الهواري بل سهوي يبقى على ما هو عليه اهـ، قال ابراهيم التازي: إن هذا السهو جعله المؤلف للأولاد ولم يتعرض فيه لوزن شعر ولا عربية اهـ، وابراهيم التازي من تلاميذه.

والحاصل أن هذا السهو الذي أردفه وأتبعه بشرح سماه التنبيه نفهم من جواب مؤلفه أنه كان يحاذي اللغة الدارجة ولهجة ولهجة(التخاطب) لأنه وضعه للفقراء يعني التلاميذ والأتباع(الاخوان) وجلهم من عامة الناس فهم ليسوا بحاجة إلى فصاحة الكلام وأناقته ومراعاة قواعد الأعراب بل حاجتهم الأكيدة إلى تطهير الأخلاق وترقيتها والعمل الصالح المثمر، وهذا ما يعود عليهم بالنفع العميم والخير الكثير.

ولا بأس أن نزيد هنا أن في تقاييد ابن المفتي حياة وقصة واقع عاش فيه وشاهده وحكاه باختصار مع - يا للأسف - رداءة التحرير والهفوات- ويظهر لنا أن جداول الولاة بالجزائر في العهد التركي وجداول مفاتى الحنفية والمالكية مقتبسة من هذه التقاييد مع بعض الزيادة ولكن لـم

يذكرنا شرها المستعرب الافرنجي اسم ابن المفتى مع أنه ذكر عبد الرزاق (وهو عبد الرزاق بن أحمدوش لجزائري) وكتاب الزهرة النيرة وهو في تاريخ الغارات التي وقعت على الجزائر.

ولم ننتهج منهج من سبقنا في هذا الميدان مع أنهم اجادوا كل الاجادة فدرجنا على طريقة أخرى ربما لا تروق بعض أهل الخبرة والمعرفة ولنا بما سقناه آنفا المعذرة التي نظنها مقبولة مرضية، وخير ختام هو ما جاء في التنزيل: ولكل وجهة هو موليها، وهذا أحسن القول واسنى التعبير.

وقد رأينا من المناسب بسط بعض النقط والمسائل التي لها علاقة بموضوع الكتاب ولكن بدون اطناب ولا تطويل ولهذا استطردنا ذكر الدول التي توالت على هذه الأقطار ولعبت دورا في تاريخها قبل نزوح العرب إليها، وكل ذلك بقول موجز كما سبقت الإشارة إليه ـ والرومان من بين الدول التي مرت بهذه البلاد ودام حكمهم مدة طويلة ما يقرب من ستة قرون من سنة146 قبل الميلاد إلى سنة429 بعده يعنى من سنة سقوط قرطاجنة على سنة دخول الفاندال على المغرب وقد خلف الرومان آثارا كثيرة لا تزال ماثلة في مختلف الأنحاء، وكان لهم تأثير في وسط الأهالي وبالخصوص في الطبقات الراقية في تلك العصور فتعلموا منهم اللغة اللاتينية ونبغ منهم الكتاب وأكابر الأساقفة كالقديس أوقيستان(أغطوطس) ولكن لاختلال الأحوال وتغيرها وسوء الإدارة وظلمهم للأهالي بأنواع التعسفات كان مآلهم الانقراض والزوال.

وخلاصة القول أننا قصدنا بهذه المجموعة من الأخبار والتقييدات التاريخية وغيرها مع إضافة بعض النصوص لعدة كتاب ممهــورة بشــروح أن يكون أبناء هذا الوطن بمطالعة هذه الأوراق على بصيرة في الجملة بماضي حاضرتهم التي كتب الله لها بالسعادة والصعود، ونحن متيقنون أنهم يجدون فيها لذة و تسلية أونزهة وينالون منها معلومات جمة إذ نحــن حاولنا جهد طاقتنا أن لا يفوتهم أهم ما ينبغي معرفته ويحسن تسجيله وتدوينه.

والقراء الكرام يعلمون ما هي المسؤولية العظيمة وما هو الحمل الثقيل الذي يتحمله من يريد أن يكتب في التاريخ ليؤدي ما يجيب عليه من أمانة وصدق وإنصاف بإعطاء كل ذي حق حقه مع التحذر والتثبت فــي الأحكام والتخلي عن المبالغات.

وقد تطفلنا في التقاط وجمع ما اشتمل عليه هذا التصنيف الــذي هــو مجرد تلخيص بسيط (وعنوانه يدل عليه) لرغبتنا في التعريف ببلدنا والأطوار التي مرت به بتوالي العصور، وهذه الرغبة هي التي ساقتـنا إلــى التأليف.

جعل الله هذا العمل المتواضع من الصنيع المقبـول، والســـلام.

نورالديــن عبد القــادر بن ابراهيــم.

مدخل

نفتتح القول هنا بأن هذه الأوراق هي مجموعة صفحات في تاريخ مدينة الجزائر وبالخصوص فيما يتعلق بالخبر عن علمائها وفقهائها – وقد اعتمدنا لهذا الغرض على تقييدات لكاتب عاش في الجزائر ولكننا لم نجد ذكر اسمه غير أن أباه هو المفتي الحنفي الشيخ حسين بن رجب شاوش (وبه شهر) ابن محمد، وقد ولد بمزغنى الجزائر وبها المنشأ والقبر، وأما أبوه (أي جد هذا الكاتب) فإنه ولد بقرية قارا حصار (بكسر الحاء وتخفيف الصاد) من مقاطعة ملمان (بفتح الميم و اللام) وهي أرض واسعة تقابل مدينة أزمير (بكسر الهمزة وتسكين الزاي وكسر الميم)، وقال هذا الكاتب عن هذه القرية مايلي: وقد رأيتها سنة 1128هـ وهي سنة الزلزلة العظمى الواقعة بالجزائر التي كانت سببا في انهدام كثير من الدور والقصور اهـ باختصار وتصرف- والذي حمله على هذا التقييد وإن كان ليس من فريق المؤلفين ولا من عدادهم – حسب تعبيره- هو التسلي عن الهموم بعد فقد الانجال والأولاد فوقع له العزم والتصميم على ما نوى طالبا من الله الإعانة وإن يجعله ممن ثابر على فعل الجميل فإنه خير مسؤول اهـ- أبو الكاتب هو كما سبق القول عنه: الشيخ حسين بن رجب شاوش، تولى خطة الفتوى في أوائل شهر جمادي الأولى سنة 1102 هـ، ثم إنه عزل بعد اثني عشر عاما من توليته، وبعد الحديث عن أسرته فإنه يأتي بأسماء رؤساء الدولة التركية بالجزائر من سنة 1515 إلى سنة 1753م الموافق 921 إلى 1167هـ، وآخر المفاتي المذكورين في تقاييده هو الحاج

الزروق بن محيي الدين بن عبد اللطيف الذي تولى الإفتاء في شهر ذي الحجة من سنة 1166 هـ، وبلا شك أن أهم ما في تقاييد ابن المفتي هي الأخبار التي أوردها بعد ذكر أسماء حكام مدينة الجزائر مع بعض التفاصيل، الأخبار التي تتعلق بطبقة المثقفين وأهل العلم والمعرفة، وهذا هو القسم الطريف من هذا التأليف الصغير اللطيف.

يقول المؤلف عن ولده إنه زاد وظيفه تفخيما وتعظيما وذلك بسيرته المحمودة وأخلاقه الرفيعة، وكان محبوبا عند الولادة وكانت له اليد الطولى والكلمة النافذة المسموعة عندهم، وكان يبذل نفسه في قضاء مصالح من يتعلق به ولا يلتفت إلى فائدته الشخصية، وكان يقول له: صغر كرشك يعظم رأسك اهـ، ولعله يريد بهذه العبارة: كن قانعا مكتفيا بما عندك يعظم شأنك عند الناس يعني أنه يوصيه ان لا يطمع في غيره، ويمكن أنه يشير بقوله السابق إلى عدم كثرة الأكل فيقتنع بامتلاء رأسه بالمعرفة والحكمة، وفي هذا المعنى يقول المثل: البطنة تذهب الفطنة.

والنسخة المتضمنة لهذه التقييدات كثيرة الأغلاط جدا بحيث أنه يستحيل أحيانا – وأحيانا ليست بالقليلة اليسيرة – إن يستخرج القارئ منها جملة صحيحة مستقيمة، وعلى كل حال فإننا استفدنا منها واكملنا ما رأيناه محتاجا للإكمال، وقد حاولنا أن نمزج قوله بقولنا مقتدين بما يسميه المشائخ خياطة الدردير وهو شرحه لمتن مختصر خليل وربطه ووصله به بحيث أن المتن والشرح صارا كأنهما نص واحد.

وتعبير هذا المؤلف في غاية البساطة والسذاجة، وتراه يستعمل كثيرا من عبارات اللغة الدارجة ولكننا محافظة على الأمانة المطلوبة المفروضة

علينا نبقيها على ما هي عليه، وخلاصة القول فإنه إن كان يعوزه الإنشاء الأدبي - ولو البسيط - فالفائدة التاريخية المنشودة موجودة وكفى، ويزيد في قيمة اخباره أنه شاهد الأحوال عن كثب وكتب ما عاينه بنفسه ونقل ما سمعه من أشياخه وأصدقائه، مع أن الرجل صريح وصريح إلى حد بعيد - ولما كان في النسخة المخطوطة اضطرابات وتكرار لا نعرف هل ذلك من المؤلف أو من النساخ فإنه كان من اللائق بل من اللازم أن نترك المكرر المعاد من دون أن تفوت الفائدة - وقد نشرح أحيانا الكلمة أوالعبارة مع قوله بلا انفصال - ونستعمل تارة صيغة المتكلم وتارة صيغة الغائب على حسب ما يلائم المقام ويناسبه بلا في أسفل الصفحات ليكون الكلام متسلسلا متتابعا - ولعل القارئ الكريم يتساءل لماذا لانورد حديثه بنصه بتتابع فالجواب هو أنه - كما قلناه سابقا- لا يمكن ذلك لكثرة التصحيف والتحريف والغلطات والتقديم والتأخير في الأخبار والتشويش وكأن الكاتب كان يقيد بلا ترتيب المعلومات التي كان يلتقطها ممن كتبوا قبله أو مما سمعه من أناس مختلفين، وتراه يستعمل أيضا بعض الكلمات التركية غالب الظن أنها كانت متداولة في عصره وأوانه أو كانت معروفة عند كثير من أهالي الجزائر- والتزمنا أن نضبط بالحروف بدلا عن الشكل لأنه لم يمكن لفائدة كثير من القراء وتوفير الوقت لهم.

ويتابع الكاتبُ الحديث فيخبر بأن جده قدم إلى الجزائر وهو مراهق يعرف البيع والشراء صحبة أخيه أكبر منه سنا في السفن المرسلة لإعانة الجزائر من طرف السلطان العثماني على العادة المعلومة، ولما بلغ هذا الجد سن الكهولة أولع بالسفر في البحر طلبا لنيل الغنائم، ثم تولى ورديان

باشي على غلياطتين للولية زهرة باي ورثتهما من أبيها وزوجها، ثم تولى شاوش العسكر ببلد الجزائر، وكان ذلك في أيام تأمر الباشالار اهـ -

قوله: ورديان باشي فورديان(بفتح الواو وسكون الراء) كلمة ايطالية معناها الحارس، وباشي كلمة تركية معناها رئيس- الغلياطة (بفتح الغين المعجمة وسكون اللام) أوالغليوطة هي مركب صغير خفيف السير- الباشالار: الباشاوات وهما جمعان لباشا بمعنى رئيس وحاكم، وقد يكون لقب تشريف وتعظيم، وكلمة باشا تركية وهي في الأصل بالباء بثلاث نقط إلا أنها تبدل وتعوض بالباء الموحدة في اللسان العربي.

قال: وكانت هذه الجزائر في أيام العرب (يعني قبل نزول الأتراك بها) علماؤها مالكية ولما دخل الترك بدأ ظهور الصفطالار من العجم والمراد بهم الترك مصاحبين للباشالار، وبدأ ظهور علم الحنفية على لسان أولئك المذكورين، وتوصل البعض من أولاد الترك إلى الإمامة والخطابة وخطة الفتوى اهـ- والمراد بعلم الحنفية هو مذهب الإمام ابي حنيفة النعمان، ومن المعلوم أن المذهب الحنفي شاع في الدولة العثمانية وانتشر ولازال هو المذهب المتبوع- وقوله الصفطالار(بضم الصاد وسكون الفاء) هو جمع بمعنى العلماء وأرباب المعرفة والأدباء، والمفرد صفطا وهو ما نسميه في لغتنا الدارجة "الطالب" وفي المغرب الأقصى"الفقيه".

وقال ابن المفتي: ووالدي أول القلغاز في الخطبة وقد صانها وزينها برفع الخصال، وكانت في أيامه ترد الأسئلة من البلد (أي مدينة الجزائر على ما يظهر) ومن الأماكن البعيدة، وقد يكون عددها في بعض الأيام في فصل الخريف نحو الثلاثين سؤالا لأن ذلك زمان الخصام على

أراضي الحراثة وخصوصا يوم الأربعاء فإنه كانت تلقى فيه وتعرض على أعضاء المجلس الشرعي- وتولى والدي مفتيا وفي سنه ثلاثون عاما ومكث في الفتوى اثني عشر سنة اهـ، والقلغاز والقلغلان والقراغل والقراغلة كل هذه الجموع بمعنى أبناء الأتراك الذين خدموا كجند في الدولة التركية بالجزائر، والمفرد قرغلي وقد تبدل القاف كافا والراء لاما، والكلمة تركية مركبة من قول (بضم القاف) ومعناه جندي أي عسكري وأوغل (بضم الهمزة وضم الغين المعجمة أو سكونها) ومعناه ولد وابن وليس في هذه التسمية أدنى تنقيص ولا حط، وقد كان لهم في الجزائر دور هام في شتى الميادين.

ومن جملة ما قال الكاتب في مقدمته ما يلي: وبعد فعلم التاريخ عبادة ومنة جزيلة ومعرفة أخبار العلماء منقبة جليلة، ثم إنه يقول بعد ذلك: أن تلك الأخبار رسمها بالجزائر مندرس وما كتبه ذوو الرحلة في شأنها وشأن رجال العلم فيها غير مقتبس اهـ- قوله: غير مقتبس (بفتح الباء) أي لم يأخذه أحد ولم ينقله بالكتابة ليصونه من التلف-وجملة القول أنه يريد أن ذلك مفقود غير موجود، والسبب هو ضياع ما قد كان قيده بعض العلماء من الأخبار والمعلومات عن هذه البلاد وحاضرتنا بالخصوص فإنهم يقولون مثلا أن الشيخ عبد الرزاق بن احمدوش الجزائري صاحب كتاب كشف الرموز في بيان الأعشاب الذي عاش في القرن الثاني عشر الهجري له تاليف في تاريخ الجزائر ولكننا لا نعرف ما يتضمنه وما هي قيمته التاريخية و الأدبية.

وينبغي التنبيه هنا على الطريقة التي درجنا عليها في شرح ألفاظ وعبارات فهي مثل ما نراه في عدة مصنفات تاريخية كالكتاب اليميني وهو تاريخ يمين الدولة محمد بن سبكتكين (بضم السين والباء وسكون الكاف وفتح التاء المثناة وكسر الكاف)، ومؤلفه هو ابو نصر العتبي (بضم العين وسكون التاء) من أبناء القرن الرابع الهجري، وهذا الكتاب فيه صعوبات كثيرة علاوة على أنه من النثر المسجوع ولهذا اعتنى بشرح مشكلاته كثيرون، وقد نشروه مع شرح ممزوج للمنيني المتوفى سنة 1172هـ وعلى كل حال فمطالعته شاقة متعبة تحول دون اقتباس الفائدة منه بسهولة، ولا لزوم لذكر عدة كتب أخرى شرح فيها مؤلفوها ما رأوه محتاجا للشرح والتبيين كما صنع الشيخ الحسين الديار بكري من علماء القرن العاشر الهجري في كتاب الخميس في أحوال انفس نفيس، وموضوعه السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء إلى عهد السلطان العثماني سليمان الأول الذي تولى من سنة 1402 إلى سنة 1410م – 805 إلى 813 هـ- وسار على هذا النمط ابن ظفر الصقلي المتوفى في حماة "سورية" سنة 567 هـ في كتابه أنباء نجباء الأبناء وغيرهم كثيرون في فنون شتى.

وحان الأوان للحديث عن أصل الجزائر فنلاحظ أن المؤرخين الافرنج في العصر القديم والعصر الحاضر لازال أكثرهم يوهمون في اسمها ويغلطون إذ يسمونها ايكوسيوم (بكسر الهمزة وسكون الياء وضم الكاف وسكون السين وضم الياء وسكون الميم) عوض ايكسم (بكسر الهمزة وسكون الياء وضم الكاف وكسر السين وسكون الميم) وهو اسمها الأول الحقيقي كما سيأتي بسط القول عن ذلك وسنبين سبب هذا الغلط الذي

نشأ من الأسطورة اليونانية التي حكاها الكاتب الروماني صولين، وقد زعم أن هذا الاسم "ايكوسيوم" مشتق من الكلمة اليونانية: ايقوسي (بكسر الهمزة وسكون الياء وضم القاف) ومعناها عشرون، وذلك لأن أصحاب هرقل ويسمى أيضا هرقليس الملك الجبار اليوناني كانوا عشرين شخصا تركوا رئيسهم المذكور ونزلوا في موقع بلدنا هذا وبنوا فيه سكناهم وجعلوا له اسم عددهم لكي لا يستأثر ويختص واحد منهم فقط دون الآخرين بتسمية البلد عليه ويكون له وحده ذكر وشهرة – وهرقل من أبطال اليونان فإنهم لما كانوا جعلوا لكل مخلوق من المخلوقات واختلقوا لكل ما الهوه حكاية أو حكايات عديدة خرافية تنطبق على ما قصدوا إليه لتتقبل العامة تلك الأوهام فإنهم نزلوا أبطالهم ومشاهير رجالهم منزلة أبناء الآلهة وجعلوا كل بطل نصف الاه وسجلوا لهؤلاء الأبطال والشجعان مآثر تروق كل من يسمعها أويقرأها فيعجب بها وتناقلت كتب الأدب والتاريخ تلك الأساطير والقصص الخرافية، وتقول احداها ان هرقول مر بالجزائر حين كان ذاهبا إلى جنوبي اسبانيا فمل رفقاؤه طول الطريق وتعبوا وتوقفوا عن السير ولكن هرقول مضى في حال سبيله، ولما بلغ الحد الذي تلتقي فيه أرض افريقية بأرض أوروبا فإنه فصل بينهما فنشأ بوغاز جبل طارق الذي سماه الناس عمودي هرقول (كولون درقول)، وقد ثبت اليوم على حسب ما يظهر أن الرومان صحفوا الاسم الفينيقي ايكسم فصاروا ينطقون به ايكسيوم، وغالب الظن أنهم كانوا لا يعرفون اشتقاقه ومعناه، وحكى أسطورة هرقول العالم النحوي الروماني صولين الذي عاش في أواخر القرن الثالث الميلادي فقد انهدم بعد ما ذكرناه أعلاه هذا الصرح

الذي شاده صولين.

لم يعرف إلى هذه الفترة الأخيرة من الزمان اشتقاق الاسم القديم لمدينة الجزائر على وجه التحقيق، و الذي كان معلوما في سالف الأزمان هو أقوال خرافية ليس لها نصيب من الصحة كما سبق آنفا ولكن أثناء هدم الدور التي كانت بحارة دار العمالة القديمة "بمدينة الجزائر" المسماة بحارة باب البحر وأيضا بباب الدزيرة "الجزيرة" وجدوا في الأيام الأخيرة من شهر نفامبر سنة 1940 وبنحو ميترتين في عمق الأرض 158 قطعة من العملة منها 154 من الرصاص وأربع قطع من البرانز، "والعملة هي السكة التي يتعامل بها الناس ما نسميه الصرف"، وهذه العملة مكتوب عليها من جهة واحدة ومن اليمين إلى اليسار كلمة باللغة البونيقية أي القرطاجنية هي كلمة "إيكسم" تقرأ (بكسر الهمزة وسكون الياء وضم الكاف وكسر السين وسكون الميم، وهي تدل على الجمع) حسبما أثبت هذه القراءة أستاذ اللغات السامية بكلية الآداب بالجزائر حينذاك وهو الأستاذ كانتينو، وقد عرفناه وحضرنا لكثير من دروسه وكان متحريا في أبحاثه وتوفي منذ سنوات عديدة، وكنا سألناه في هذا الشأن لمزيد التحقيق فيما يخص التاريخ القديم لعاصمتنا التي أكرمها الله بجمال الموقع والطبيعة.

وإيكسم (وهو اسم مشتمل على خمسة أحرف) مركب من كلمتين وهما رأي (بمعنى جزيرة واكسم) بمعنى شوك أو طير من طيور الليل كالبوم أوحمام البحر الذي يسمى في لغتنا الدارجة بالدجاج ويسمى بالفرنسية موآت (بضم الميم)، والذي ربما يرجح هذا المعنى هو التسمية بمرسى

الدجاج الكائن بنحو الثمانين كيلومترا شرقي مدينة الجزائر: وكانت هناك مدينة ساحلية بهذا الاسم ورد ذكرها في كتب القرون الوسطى ثم اندثرت فيما بعد ذلك كما انه يوجد مرسى الدجاج آخر بمقاطعة وهران يبعد عن هذه الحاضرة بنحو العشرين كيلو مترا في الجهة الشرقية منها، وما أوردنا هذا الاستطراد إلا للأستئناس علاوة على أن أسماء المدن تبقى على مدى الزمان وقلما يطرأ عليها شيء من التغيير الكثير ويمكن الاستنتاج على سبيل الأولوية والترجيح أن إيكسم بمعنى جزيرة الدجاج (أي حمام البحر)، ومن المعلوم أن هذا النوع من الطيور - ولحمه غير صالح للأكل- يتسلط الأماكن التي يجد فيها طعامه كالمراسي للالتقاط قوته، وتوجد في هذا البحر الأبيض المتوسط عدة جزر في أول اسمائها كلمة "أي" بمعنى جزيرة مثل إيبيسة وهي جزيرة صغيرة من جملة جزر الباليار، ويسميها العرب: الجزائر الشرقية، وابن خلدون يرسمها: يابسة ويقول في كتابه العبر: الجزائر الشرقية ميورقة ومنورقة ويابسة اهـ، وتسمية هذه الجزر بالشرقية لأنها بشرق الأندلس.

ومنهم من يقولون أن إيكسم بمعنى جزيرة الشوك، وجاءتها هذه التسمية من الشوك النابت على الصخرة الكبيرة التي كانت هناك، وليس لدينا دليل قاطع يحملنا على الحكم بالخيار بين هذه المعاني، وهكذا نرى في اللغات مفردات لها معان مختلفة لا يظهر فيها جليا ما هي العلاقة التي تربط بينها فغاب اذن عن الخلف ما أراده السلف بالتحاق عدة معان للكلمة الواحدة.

وأهل التاريخ وعلماء الآثار يحكمون بأن أول من أعطى اسم إيكسم

لبلدنا هم القرطاجنيون سكان مدينة قرطاجنة التي بقيت منها آثار و أطلال إلى تاريخ اليوم.

والقرطاجنيون أصلهم من الأمة الفينيقية وهي من نسل سام (بتخفيف الميم) وهو أحد أولاد نوح وفي العهد القديم أنها من نسل حام بن نوح، وكانت تقطن بسواحل لبنان قرب بيروت، وهي مدينة في الأصل فينيقية، وكانوا نزحوا من مدينة صور "بضم الصاد" وكانت من أشهر مدن الفينيقيين.

ولما كان موطن الأمة الفينيقية عبارة عن قطعة أرض ضيقة مستطيلة ممتدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط يحيط بها جبل لبنان التزم أهلها إلى الاقتيات من البحر والحياة فيه فصاوروا تجارا وسماسرة العالم القديم، فصنعوا السفن الشراعية وجالوا في البحار سعيا وراء البيع والشراء وجمع المال واقتناء الأرزاق.

وقد خط الفينيقيون مدينة قرطاجنة حوالي سنة814 قبل المسيح واسمها بلغتهم قرطا حدشت (بفتح القاف وسكون الراء وفتح الحاء المهملة والدال المهملة وسكون الشين المعجمة) يعني المدينة الحديثة أي الجديدة، وكان اليونان يسمونها كارخيون (بسكون الراء وكسر الخاء وضم الدال) والرومان كارتاقو(بضم القاف) وسماها العرب يعدهم لما دخلوا إلى افريقية قرطاجنة (بتشديد النون)، وقيل أن أصل هذا الاسم "قرطاجونو" بالإمالة – وجونو اسم الأميرة الفينيقية التي بنت هذه المدينة.

الفينيقيون – على القول المشهور– تسمية جاءتهم من اليونان وكانوا جيرانهم بسبب الموقع الجغرافي وكانت لهم معهم المعاملات التجارية – وكان الرومان يسمون القرطاجنيين بالبونيقيين تمييزا بين من هم في

بلادهم الشرقية وهي سواحل لبنان وبين من هم بشمال افريقية-الفينيقيون يسمون أنفسهم بالكنعانيين نسبة إلى كنعان وهوابن حام "بتخفيف الميم" بن نوح، وقيل ان كنعان ابن سام ولكن جعلوه ابن حام، وكان قدومهم إلى سواحل افريقية الشمالية بنحو ألف ومائتين من السنين قبل الميلاد فأسسوا مراكز تجارية ومستودعات منها أوتيكة "بضم الهمزة وكسر التاء" أوأوتيقة "بالقاف"، ويسميها ابن خلدون وطاقة، ولعل اسمها الحقيقي هو عتيقة أي المدينة القديمة بالنسبة إلى قرطاجنة أي المدينة الحديثة "الجديدة"، وفي موقع عتيقة توجد القرية المسماة بوشاطر (بفتح الطاء المهملة) بقرب مصب نهر مجردة (بفتح الميم وتشديد الجيم مع فتحها وسكون الراء) بنحو خمسة وثلاثين كيلو ميترا شمالي مدينة تونس، وكان تشييدها حوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد ولم يبق منها إلا أطلال قليلة، وسقطت قرطاجنة في أيدي الرومان سنة 146 قبل الميلاد بعد قتال عنيف.

كانت مدينة الجزائر مستعمرة رومانية في القرن الأول المسيحي، وكانت لها مشيخة مشتملة على رئيس (شيخ المدينة) وأعضاء، وكان بها كنيسة يقام بها الدين المسيحي وأسقف "بضم الهمزة والقاف وسكون السين" وهو رئيس الديانة، وفي كل هذا دليل على أهمية هذه البلدة، ولعل الآثار التي تكلم عليها البكري في القرن الخامس الهجري في كتابه المسالك والممالك هي من بقايا الكنيسة التي سبق ذكرها، وتحدث البكري على آثار أخرى وسيأتي نصه.

والنظام البلدي الروماني كان من أحسن ما يكرن في تسيير شؤون البلد، تنتخب المدينة وأحوازها مجلسا من الأعيان تتوفر فيهم شروط من

دراية في بناء الدور وتخطيط الطرق وجلب المياه واقامة الجسور وتجميل المدينة وتحسينها بكل المرافق التي كانت في ذلك العصر – دام استيلاء الرومان على شمال افريقية من146 ق، م إلى429 م.

وقد تغلب على الجزائر سنة 373 ثائر من الأهالي اسمه فيرموس ثار على الرومان لإنقاذ وطنه منهم، وجاء ذكره في كتب الترايخ وبقي اسمه معروفا، والظاهر أن شأنها تضاءل مدة طويلة من القرن الخامس إلى القرن العاشر من الميلاد وبالخصوص لما استولى الفاندال على هذه الأقطار، ولا يعرف عن حال الجزائر في عصرها الروماني إلا ما قل وسيأتي القول عن بعض الآثار وجدت عند الحفر لأجل البناء.

الفاندال

والفاندال أو الواندال طوائف جرمانية صقلبية كان مستقرها بأوروبا بين نهر الفستول ونهر الاودر (بضم الهمزة وفتح الدال المهملة)، فالفستول نهر يخترق بولونيا وألمانيا وينصب في بحر البالتيك، والأودر نهر في ألمانيا ينصب أيضا في بحر البالتيك، وكان الرومان يطلقون على الفاندال اسم الوحشيين: بربري (بسكون الياء)، وهو لقب مخصوص بمن ليسوا منهم ورأوا فيهم الجفاء والغلظة والقساوة وعدم المبالاة بالأخلاق، وكان كان دخول الامبراطورية الرومانية ممنوعا عليهم بسبب ظلمهم وعسفهم وتخريبهم وعيثهم في النفوس والأموال، ولما طرأ الخلل وفشا الاضطراب في الدولة الرومانية اجترأ الفاندال على الحدود وتسربوا شيئا فشيئا إلى داخل البلاد وانتشروا في انحائها واخترقوا الغال "فرنسا" سنة 406م

واجتازوا جبال البريني سنة 409 وتوطنوا بجنوب اسبانيا فسمي ذلك الاقليم باسمهم "فاندالوسيا" وقال العرب "أندلس"- ثم انهم لفتوا نظرهم إلى بلاد المغرب فاجتازوا مضيق أعمدة هرقليس "هرقول" وهي مضيق "بوغاز" جبل طارق الفاصل بين اسبانيا والمغرب، وكان دخول الفاندال إلى المغرب سنة 429م وكان انتهاء مملكتهم سنة 534م وكان اجتيازهم تحت قيادة ملكهم جنسريق "أو جنصريق" وقطعوا قطر الجزائر حتى بلغوا إلى عنابة "بونة" في القطاع القسنطيني سنة 429م ونصبوا الحصار عليها وتولى القديس أوغسطوس أمر المقاومة ومات في أثناء الحصار الذي دام أربعة عشر شهرا، وسقطت هذه المدينة، واستولى جنسريق على قرطاجنة في شهر أكتوبر439م وجعلها عاصمة له، وليس محل هنا للحديث عن هذه الأمة المتوحشة التي اشتهرت بالتخريب والتدمير حتى ضربوا بها المثل، وقد زعم بعض المؤرخين أن ما نسب إليهم من التخريب فيه نوع من المبالغة.

الروم البيزنطيون

ثم إن الروم اكتسحوا الفاندال من افريقية الشمالية، والروم كلمة أطلقها العرب منذ زمان قديم على الشعوب اليونانية التي كانت تسكن بالشرق، وأنقسمت الإمبراطورية الرومانية سنة 395 إلى قسمين: القسم الشرقي وعاصمته بيزنطة وهي القسطنطينية، والقسم الغربي وعاصمته رومة أو رومية، واستولى البيزنطيون على افريقية وألحقوها بمملكة الروم سنة 534م مع ابقاء قرطاجنة قاعدة لهم ولكن بسبب سوء تصرف الولاة

وظلمهم وعدم اهتمامهم بشؤون البلاد واختلت الأحوال وتضرر الأهالي فكانت النتيجة أن سقط الاستلاء البيزنطي ثم جاء دور نزوح العرب إلى افريقية الشمالية وجاء معهم الإسلام.

العرب بافريقية الشمالية

وفي سنة 27 هـ الموافقة لسنة 647م أمر الخليفة عثمان بن عفان عامله على مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح بالمسير إلى افريقية، والتقى الجيش العربي بالجيش الرومي بمدينة سبيطلة وتعرف عند الروم بسفيطلة وهي بالجنوب الغربي التونسي وبقيت بها بعض الآثار إلى تاريخ اليوم فانهزم الروم شر هزيمة، ثم توالت الفتوحات الإسلامية بهذه الأقطار فنحيل إلى كتب التاريخ من أراد أن يطلع عليها.

ولا يعرف الزمان الذي استقر فيه العرب بمدينة الجزائر، وعلى كل حال فإنها كانت شبه خراب لما طرأ عليها من حوادث الدهور حين جددها بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي بأمر والده أمير أشير (بفتح الهمزة وكسر الشين) وكانت قاعدة ملكه وبقي منها آثار ماثلة في جبل الكاف الأخضر بالجنوب الشرقي من بلدة البرواقية، وكان تجديد الجزائر حوالي سنة 339 هـ -950م- وكانت جديرة بذلك فإن أهالي سهول متيجة وغيرهم كانوا يقصدونها للمعاملات التجارية من بيع وشراء ومعاوضة وتسمى المقايضة.

وقد زار مدينة الجزائر في هذا القرن الرابع الهجري الرحالة محمد بن حوقل "بفتح الحاء والقاف وسكون" وابن حوقل هو أبو القاسم محمد

بن حوقل البغدادي، طاف في الأقطار الإسلامية نحو ثلاثين سنة، خرج من بغداد سنة 331هـ رغبة في الاطلاع على الأمم والشعوب وفي الارتزاق من المعاملات التجارية، وله كتاب المسالك والممالك الذي يقول عنه أنه أعانه على تأليفه تواصل السفر وانزعاجه عن الوطن "أي مفارقته والابتعاد" - ولا يعرف شيء كثير عن حياة هذا الرحالة.

قال ابن حوقل في كتابه المسالك والممالك والمفاوز والمهالك وقد دخل إلى الجزائر في أيام زيري بن مناد سنة 337هـ وشاهد أحوالها قال: وجزائر بني مزغنان مدينة عليها سور في نحر البحر وفيها أسواق كثيرة ولها عيون على البحر طيبة وشربهم منها ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر كبيرة واكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم سائمة في الجبال، ولهم من العسل ما يجهز عنهم و السمن والتين ما يقع به وبغيره من هذه الأسباب الجهاز إلى القيروان وغيرها.

ولهم جزيرة تحاذيها في البحر إذا نزل بهم عدو لجئوا إليها فكانوا بها في منعة وأمن اهـ - قوله: جزائر بني مزغنان: وسيأتي أنهم يسمون أيضا بني مزغنى (بفتح الميم والعين وسكون الزاي وتشديد النون مع فتحها) - نحر البحر: ساحله- يجهز: بالبناء للمجهول أي يرسل- من هذه الأسباب: المواد والأشياء التي ذكرها الكاتب من العسل والسمن والتين وبضائع أخرى - الجهاز: بفتح الجيم وهو الارسال.

الجزائر اسم لعاصمة الوطن الجزائري أو القطر الجزائري، ولم يطلق هذا الاسم على الإقليم كله إلا منذ العصر التركي فقط في القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي، أما قبل ذلك فقد كان يعرف عند العرب

بالمغرب الأوسط (ويسمى أيضا بالمغرب الجواني بتشديد الواو، وهـذا اللفظ من كلام المولدين) وذلك لتوسطه بين المغرب الأدنى وهو الأيالة التونسية وبين المغرب الأقصى- وكان الأتراك يسمون حاضرتنا بجزائر الغرب وذلك للتمييز بينها وبين جزائر الأرخبيل التي هي بقرب منهم.

قال عبد الرحمان بن خلدون: أعلم أن لفظ المغرب في أصل وضعه اسم إضافي يدل على مكان من الأمكنة بإضافته إلى جهة المشرق ولفظ المشرق كذلك بإضافته إلى جهة الغرب، فكل مكان من الأرض مغرب بالإضافة إلى جهة المشرق ومشرق بالإضافة إلى جهة المغرب إلا أن العرب قد تخصص هذه الأسماء بجهات معينة وأقطار مخصوصة اهـ، من كتاب العبر ج 6 ص 193- بيروت 1959- والحاصل أن كلمة "المغرب" استعملها العرب للدلالة على افريقية الشمالية (وعلى الأندلس أيضا فـي القرون الماضية) ولو كان المغرب في الحقيقة لا يتخصص باقليم واحد مـن الكرة الأرضية ويقابله المشرق، ولهذا يقولون في مشارق الأرض ومغاربها فكل ناحية من أنحاء العالم لها مغرب ومشرق بالنسبة إليها.

وتحدث في القرن الخامس الهجري عن الجزائري أبو عبيد البكري الأندلسي المتوفي سنة487هـ عن سن كبيرة، وقد خلف مؤلفات عديدة منها شرح أمالي أبي علي القالي وشرح أمثال أبي عبيد ابن سلام (بتشديد اللام) ومعجم ما استعجم وكتاب أعيان النبات والشجيرات الأندلسية.

والذي يهمنا من تصانيفه هوكتاب المسالك والممالك الذي هودليل وبيان للطرق والبلدان مع ايراد أخبار تاريخية وغيرها فيها فوائد غزيرة، ومن حسن الحظ أنه بقي من هذا التأليف القسم الخاص بافريقيا الشمالية،

واقتبس كثيرا من مواده من كتاب في نفس هذا الموضوع لمحمد بن يوسف الوراق الملقب بمحمد التاريخي الذي عاش من سنة 292 إلى سنة 363هـ ووضع تأليفه بأمر الحكم المستنصر الخليفة الأموي بقرطبة.

قال البكري في وصف الجزائر (جزائر بني مزغنى): هي مدينة جليلة قديمة البنيان فيها آثار للأول وآزاج محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم، وصحن دار الملعب فيها قد فرش بحجارة ملونة صغار مثل الفسيفساء فيها صور للحيوان بأحكم عمل وابداع صناعة لم يغيرها تقادم الزمان و لا تعاقب القرون، وله أسواق ومسجد جامع، وكانت بمدينة بني مزغنى كنيسة عظيمة بقي منها جدار مدير من الشرق إلى الغرب وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين مفصص كثير النقوش والصور، ومرساها مأمون له عين عذبة يقصد إليه أهل السفن من افريقية والأندلس وغيرهما اهـ- قوله آزاج: جمع أزج (بفتح الهمزة والزاي) وهو القوس وقال البكري في كتابه المسالك والممالك عن مرسى الجزائر: هو مرسى مأمون مشتى بين جزيرة سطفلة من الشرق إلى الغرب وبين البر اهـ - قوله مشتى (بالتنوين على التاء) أي فيه أمان في فصل الشتاء للمراكب، وجزيرة سطفلة هي احدى الجزر الأربع التي كانت محاذية للجزائر وكانت ممتدة من جهة الشرق إلى جهة الغرب، وقد جمعوا بين الجزر الأربع في الفترة الأولى من حلول الأتراك وأوصلوا بينها وبين البر برصيف كما سيأتي القول عن ذلك.

ووصف الشريف الادريسي الجزائر في القرن السادس الهجري، وهو أبوعبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس من نسل الامام علي ولايعرف شيء كثير عن حياة الادريسي غير أنه خرج من بلده سبتة في عنفوان

الشباب وقرأ بقرطبة ونال بعض الشهرة فقد جاء ذكره في جملة حكماء الأندلس في كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة المتوفى سنة 668هـ، وبعد نزوحه من قرطبة جال في عدة مدن أندلسية ثم طاف في افريقية الشمالية والسودان وآسيا الصغرى وبعض جهات أوروبا، واستدعاه روجار (بضم الراء الأولى) ملك جزيرة صقلية فعاش في جواره وطلب منه أن يشتغل بتأليف كتاب في الجغرافية يصف فيه البلاد لا من جمع ما في التصانيف ورحلات الناس فقط ولكن بالاعتماد أيضا على ما اطلع عليه هو بنفسه وعلى ما يأتي به الذين كلفهم الملك المذكور من تحرير ما يشاهدونه في أسفارهم، وهكذا ألف الادريسي كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق الذي أكمله سنة 548هـ-1154م- وقد نال كتابه هذا شهرة واسعة بأوروبا واستفادوا منه وهو جدير بذلك، ولد الادريسي بسبتة (بالمغرب الأقصى) سنة 493هـ - 1099م وتوفي بصقلية سنة 562هـ - 1166م.

قال الادريسي عن الجزائر مايلي: ومدينة الجزائر على ضفة البحر وشرب أهلها من عيون على البحر عذبة ومن آبار وهي عامرة آهلة وتجاراتها مربحة وأسواقها قائمة وصناعتها نافقة، ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر وزراعاتهم الحنطة والشعير، وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم ويتخذون النحل كثيرا فلذاك العسل والسمن في بلدهم كثير وربما يتجهز بهما إلى سائر البلاد والأقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم وأهلها قبائل ولهم حرمة مانعة اهـ.

قوله عامرة آهلة: أي فيها سكان كثيون - قوله تجاراتها وصناعاتها وزراعاتها: صيغة الجمع في هذه الكلمات تدل على الأنواع أي تجارات

وصناعات وزراعات مختلفة متنوعة - وربما يتجهز بهما: يعني أنه يرسل بهما إلى البعيد والقريب- وأهلها قبائل: جمع قبيلة وهي الجماعة الكبيرة من الناس، حرمة مانعة :بضم الحاء وسكون الراء إي حماية ودفاع لمن يجعلونه تحت حفظهم وصيانتهم فيمنعونه من التعدي عليه.

وورد ذكر الجزائر في كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي عند الكلام على مدن ساحل المغرب قال: ومن مدينة بجاية إلى مدينة صغيرة تدعى الجزائر وتنسب إلى قوم يقال لهم بنو مزغنه قريب من أربع مراحل- اهـ.

قوله مراحل جمع مرحلة وهي المسافة التي يقطعها المسافر في نحو يوم.

ويظهر من قول المراكشي أن الجزائر كانت في أوائل القرن السابع الهجري بلدة صغيرة ومرسى على ساحل البحر الرومي (البحر الأبيض المتوسط) ولكن المقادير كتبت لها أن يعظم شأنها بالتدريج على ممر الزمان، قال المراكشي: وكان الفراغ من هذا الإملاء (يريد من املاء كتاب المعجب) بصيغة اسم الفاعل يوم السبت لست بقين من جمادي الآخرة من سنة 621 هـ - اهـ، وكان مولده بمراكش سنة 581 هـ وقرأ ببلده وبفاس ثم عبر إلى الأندلس سنة 603 - وبعد سنوات ارتحل إلى الشرق ولم يرجع منه فتوفي هناك، ولا يعرف تاريخ وفاته ولا في أي بلد كانت، وإنما أنهى تحرير تأليفه سنة 621 هـ- ولعله توفي ببغداد.

وينبغي التنبيه على أنه بعد انتشر الإسلام من الهند والصين إلى المحيط الأطلسي وتعدى إلى الأندلس ومن التركستان وجبال القوقاز إلى السودان بدأ الرحالة يصفون تلك البلاد، وكان من أهم الأسباب في

تدوين هذه الرحلات حاجة الدول الإسلامية إلى معرفة الطرق وحالة البلاد ولهذا سميت تلك المصنفات بالمسالك والممالك وكان الحج إلى الأراضي المقدسة من جملة الأسباب التي حفزت بهم إلى الكتابة والتأليف فصار هؤلاء المؤلفون الذين كانوا يتجشمون المشاق يصفون البلدان وسكانها وشتى أحوالها من اجتماعية واقتصادية وصناعية وثقافية.

ومن هؤلاء الرحالة الجغرافيين الذين تحدثوا عن حاضرة الجزائر ابـن حوقل في القرن الرابع الهجري والادريسي في القرن السادس الهجري.

وأما أبو عبيد البكري من أبناء القرن الخامس الهجري فإنه لم يجل ولم يطف في افريقية الشمالية وإنما اعتمد على ما كتبه محمد بن يوسف الوراق "بتشديد الراء" الذي طاف في هذه الأقطار الإفريقية، واستفاد البكري أيضا مما اطلع عليه في بلده من التقاييد الإدارية وغيرها.

ومن السفار الذين زاروا مدينة الجزائر وكتبوا عنها العبدري في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، وهو محمد بن محمد بن علي العبدري نسبة إلى جده الأعلى عبد القدر بن قصي (بضم القاف وفتح الصاد وتشديد الياء) القرشي، أصله من بلنسية، ولا يعرف شيء كثير عن حياته، ومن الثابت أنه كان بالمغرب الأقصى حين سافر لتأدية فريضة الحج سنة 688هـ-1289م، وأخذ العبدري في رحلته طريق البر بافريقية الشمالية إلى الأسكندرية ومنها من طريق البر إلى مكة وأقام بعد أداء فريضة الحج فترة من الزمان بفلسطين ثم انثنى راجعا إلى وطنه ومر بالأسكندرية، ودون (بتشديد الواو أي كتب) أخبار رحلته وأشار فيها إلى مواطنه ابن جبير (بضم الجيم وفتح الباء وسكون الياء) الذي ولد ببلنسية

سنة 540هـ وتوفي بالأسكندرية سنة 614 هـ- واعتنى العبدري في رحلته ببيان المواقع الجغرافية وذكر المعالم الأثرية والمباني العظيمة ودرس العادات في البلاد التي مر بها، وتكلم عن الفقهاء وأهل العلم والمعارف في عصره- وتعرض لقساوة ما يلقاه و يقاسيه القادمون على ثغر الأسكندرية من سوء معاملة مفتشى المكوس في ذلك العصر، وما كتبه عنهم في هذا الصدد يشبـــه مـــا قاله ابن جبير قبله في الزمان.

قال العبدري، ثم وصلنا إلى الجزائر وهي مدينة تستوقف لحسنها ناظر الناظر، ويقف على جمالها خاطر الخاطر، قد حوت مزيتى البر والبحر، وفضيلتي السهل والوعر، لها منظر معجب أنيق، وسور معجز وثيق، وأبواب محكمة العمل، كما أقفر من أهله ملحوب، فلم يبق بها من هو أهل العلم محسوب، ولا شخص إلى فن من فنون المعارف منسوب، وقد دخلتها سائلا عن عالم يكشف كربه، وأديب يؤنس غربه، فكأني أسأل عن الأبلق العقوق، أو أحاول تحصيل بيض النوق اهـ.

اجتاز الرحالة محمد العبدري بمدينة الجزائر سنة 688هـ، فأعجبه حسن موقعها الجغرافي الذي يجلب عين الناظر ويقف بال المسافر العابر فهي تشتمل وتحتوي على فوائد البر و البحر ومرافق الجبل والسهل ومنظرها جذاب وسورها المحيط بها متين وأبوابها متقنة الصنع تسرح فيها العين على مدى البصر ولكن هذه المدينة خلت عما يرغب فيه الشيخ العبدري كما خلا من السكان ملحوب وهو اسم موضع ورد ذكره في قصيدة للشاعر الجاهلي عبيد (بفتح العين وكسر الباء) بن الأبرص - وقوله (أقفرت عن المعنى المطلوب) قائلا: فلم يبقى فيها من أهل العلم منسوب

الخ، فكان عند حلوله بالجزائر كمن يسأل عن الحصان الحامل أو كمن يريد أن يحصل على بيض العقاب في الجبل الشاهق المنيع، ويقولون فـي المثل: هو أعز من بيض الأنوق، لما لا سبيل إليه.

محمد العبدري -كما قلناه سابقا- أصله من بلنسية وهي مرسى بساحل شرق الأندلس وكان قاطنا بقرب الصويرة مرسى على ساحل المحيط الأطلسي في قبيلة حاحة بالمغرب الأقصى، وبدأ قصة سفره إلى الشرق من مدينة تلمسان، وفي رحلته معلومات كثيرة على حالة البلاد التي مر بها، وتراه يعتني بالخصوص بالحالة العلمية، وسمى قصة سفره بالرحلة المغربية، وكان العبدري يميل إلى السجع والتأنق في للتعبير مع الميل أيضا إلـى الانتقاد، وفي حديثه عن الجزائر نوع من المبالغة فإن هذه الحاضرة ترقت تدريجيا وكان لها بعض الشهرة وكتب التراجم تذكر جملة مـن العلماء الذين كانوا يقصدونها للإقراء بها منهم أبو موسى الجزولي (بفتح الجيم وضم الزاي مع التشديد والتخفيف) تصدر بالجزائر وكان إمام مقدما في معرفة العربية لايجاري مع جودة التفهيم وحسن التعبير، له شرح علـى جمل الزجاجي في النحو يسمى بالقانون وبمقدمة الجزولي، وتوفي بآزمور بناحية مراكش سنة 607هـ، وممن أخذوا عنه بحاضرتـنـا محمـد بن قاسم بن منداس سنة 580هـ واقرأ هذا الآخر ببلده الجزائر العربية والحديث وتوفي سنة 643هـ وكان مولده سنة 557، فلم تكن مدينة الجزائر خالية من العلم في ذلك القرن السابع الهجري ولكن العبدري كان ممن يحبون الاحتفال بشخصيتهم وينتصرون لأنفسهم حين لا يبالى بهم.
وقد كانت الجزائر طيلة العصور تارة تحكم في نفسها وتارة تحت حكم

دولة من دول افريقية الشمالية، يقول ابن خلدون عن الثعالبة الذين كانوا مدة طويلة ولاة على الجزائر: الثعالبة موطنهم لهذا العهد (أي القرن الثامن الهجري) بمتيجة من بسيط الجزائر وكانوا قبل ذلك بتيطري نزلوا به منذ عصور قديمة واقاموا به حيا حلولا، وجبل تيطري هو جبل اشير الذي كانت فيه المدينة الكبيرة (عاصمة بني زيري)، ولما تغلب بنو توجين (بضم التاء وكسر الجيم) على التلول وملكوا الونشريس زحف محمد بن عبد القوي إلى المدية (بفتح اللام وسكون الميم وكسر الدال المهملة وتشديد الياء) وهي المدية الحالية فملكها وأزاح الثعالبة إلى متيجة فكانوا تحت إيالة (بكسر الهمزة أي حكم وتصرف) مليكش من صنهاجة ببسيط متيجة، فلما تغلب بنو مرين على المغرب الأوسط وذهب ملك مليكش استبد الثعالبة وملكوا متيجة وكانت رئاستهم في ولد سباع بن ثعلبة بن علي- اهـ، ببعض الحذف والتصرف، والبسيط هو السهل أي الأرض الواسعة المنبسطة.

وقال محمد بوراس المتوفى ببلدة معسكر سنة1238هـ في تاريخه مايلي: كانت متيجة من جملة أعمال بني زيري أحد بطون صنهاجة وهم الذين اختطوا المدينة وغيرها،

ولما دخل المعقل (بفتح الميم وسكون العين وكسر القاف) أرض المغرب وسط المائة الخامسة مع الهلاليين ونزلوا بآخر مواطن الهلاليين مما يلي المدينة نزل اخوتهم الثعالبة بمتيجة ودخلوا في ولاية صنهاجة، فلما أذهب بنو عبد المؤمن من الموحدين ملك صنهاجة استبد الثعالبة بالملك.

وسبب ذلك أن شيخهم المهدي لما قفل إلى المغرب أوائل القرن السادس مر بالثعالبة فأكرموه غاية الإكرام وأخذوا عنه عقائد الأشعرية فصاروا من

جملة تلاميذته، ولما رحل عنهم إلى المغرب زودوه بما يحتاج وأهدوا لـه حمارا في غاية الفراهة، ولما حل بالمصامدة كانت بينه وبينهم مراسلات، فلما غلب تلاميذته الموحدون صنهاجة وأبادوا ملكهم استولى الثعالبة على ملك المدية ومتيجة وكان لهم بالموحدين اعتزاز كبير ورئاستهم في بنـي سباع بن ثعلبة أحد أجداد الشيخ عبد الرحمان الثعالبي، وكان سباع هـذا إذا وفد على الموحدين بمراكش يجعلون فوق عمامته دينارا يزن عددا مـن الدنانير مبالغة في اكرامهم الإمام المهدي، وكان الطلبة في حال سيرهم مع شيخهم المهدي من عند الثعالبة يزدحمون على الحمار الـذي أهداه الثعالبة للشيخ، وكان الشيخ إذ ذاك راكبا غيره وكثيرا ما يقول لهم أيضـا الطلبة أركبوا عبد المومن على الحمار يركبكم على الخيل المسومـة وكـان كذلك.

- وقول ابن خلدون حتى أذهبه بنو مرين أي ملك صنهاجة ليس بصحيح وإنما الذي أذهب ملك صنهاجة من متيجة والمدية والجزائر ومليانة وأشير والقلعة التي بازاء مجانة (وهي قلعة بني حماد بقرب المسيلة) وبجاية انما هو عبد المؤمن وبنوه مـن الموحدين وأيضا فإن المهدي إنما وفد على الثعالبة بمتيجة سنة ثلاثة عشر مـن القرن السادس (أي513)، وكان أول ملك الثعالبة بتلك الأرض سنة ثمان وأربعين منه (أي548)، وأما بنو مرين فلم تطأ عساكرهم تلك الأرض إلا في أيام يوسف بـن يعقوب بن عبد الحق المريني وقت محاصرته لتلمسان أوائل القرن الثامن بل لم يتم لهم ملك المغرب إلا في سنة ثمان وستين من القرن السابع (أي668)، وأول ظهورهم ببساط فاس والمغرب سنة ثلاثة عشر، واستمر ملك الثعالبة بالمدية

ومتيجة إلى أن قتلهم وسباهم السلطان أبو حمو من ملوك بني عبد الواد في القرن الثامن فتلاشوا واتدثروا ،اهـ، مع بعض الزيادة.

ونقول لبيان ما جاء في هذه الأسطر السابقة: كان مناد (بتشديد النون) بن منكوس أحد رؤساء صنهاجة وكانت من أعظم قبائل البربر، وكان مناد واليا على المغرب الأوسط باسم بني العباس من قبل وطرف بني الأغلب، وابنه زيري كان من حزب بني عبيد وأنصارهم وقد أعانهم في حرب أبي يزيد، وأسس زيري بن مناد مدينة أشير سنة 324هـ -936م في سفح جبل تيطري بالجنوب الغربي من بلدة البرواقية وشمال بلدة قصر البخاري بقرب قرية ثلاثاء الدوائر تسمية بالسوق التي تقام فيها - ولما أراد المعز لدين الله نقل دولته من المهدية إلى القاهرة فكر فيمن يجعله خلفا عنه ويأتمنه على مملكته الغربية فلم ير خيرا من بلكين بن زيري بن مناد فاستخلفه على افريقية والمغرب ما عدا طرابلس وجزيرة صقلية، وسماه يوسف وكناه أبا الفتوح ولقبه سيف الدولة وذلك سنة 362هـ، عند انتقاله إلى مصر - عقائد الأشعري: هو أبو حسن علي بن اسماعيل صاحب الأصول والقائم بنصرة مذهب السنة وإليه تنسب الطائفة الأشعرية، له تصانيف عديدة مفيدة، ولد سنة 270 وتوفي سنة331هـ- مصامدة: بفتح الميم الأولى وكسر الميم الثانية، وهي عبارة عن قبائل كثيرة يجمعها هذا الاسم بجبال درن (بفتح الدال والراء) وتسمى بجبال أطلس بجنوب المغرب الأقصى - خيل مسومة بصيغة اسم المفعول والمراد بها الخيل الكريمة الجيدة- حتى أذهبه بنو مرين: أذهب بمعنى أزال، وبنو مرين: فخذ (فرقة) من بطون القبيلة البربرية العتيدة (العظيمة) زناتة، وكانت

مواطنهم وراء مدينة تلمسان جنوبا إلى نواحي تافيلالت جنوب المغرب الأقصى وبصحراء فيقيق إلى أنحاء بلدة الأغواط، واغتنموا فرصة ضعف دولة الموحدين فتغلب أميرهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق على مدينة مراكش سنة 668هـ-269م، وبانتهاء امارة الموحدين انتهى حكمهم بالمغرب والأندلس، مجانة: (بتشديد الجيم) سهل وقرية بقرب بلدة برج بوعريريج في الجهة الغربية منها بقطاع قسنطينة ببساط فاس: البساط (بكسر الباء) ما يفرش على الأرض ويجلس عليه - والمقصود هنا بلاط السلطان ومحل جلوسه مع ديوانه ولعل ما يناسب سياق الكلام أنه يريد أول ظهورهم أي اقتحامهم ومجيئهم بتلك البلاد وأنحائها- جهز أبو حمو الأول سلطان تلمسان عسكرا أرسله إلى سهول متيجة فانقضوا على الثعالبة فمات منهم عدد كبير وهرب من نجا منهم إلى المغرب الأقصى وإلى وانشريس "وارسنيس" وإلى الصحراء.

وفي القرن الثامن الهجري زار الجزائر الشيخ البلوي(بفتح الباء واللام) وهو القاضي أبو البقاء خالد بن عيسى البلوي غادر الأندلس سنة 736هـ، لرحلة إلى الأقطار الشرقية لتأدية فريضة الحج وزيارة بعض الأنحاء فمر بتونس والأسكندرية والقاهرة وأقام مدة ببيت المقدس، واعتنى بوصف البلاد التي مر بها مع ذكر علمائها وأدبائها، وهو كثير النقل عن غيره من المؤلفين والسفار فقد نبهوا على أنه قد أخذ من ابن جبير وصف الأسكندرية والقاهرة ومكة والمدينة، ويقول عنه لسان الدين بن الخطيب في كتاب الاحاطة في أخبار غرناطة ما يلي: حج وقيد رحلته في سفر

وصف في البلاد ومن لقيه بفصول جلب أكثرها من كلام غيره اهـ،- وعنوان رحلته: تاج المفرق في تحلية علماء أهل المشرق.

أخبر البلوي في رحلته أنه ورد مع رفاقه إلى مدينة الجزائر والليل قد أظلم ثم قال: ولما طرزت طرز الظلام يد الاصباح، وأرسل الفجر في رداء السحر خيط الصباح، أسرعنا مبادرين وبادرنا مسرعين، وتفرقنا في سكك المدينة أجمعين، فرأيت محيا صبيحا وترتيبا مليحا، ومسجدا عتيقا وبناء أنيقا، وأناسا قد سلكوا إلى الحسن والاحسان طريقا، من مدينة قد أحاط بها البحر احاطة السوار بالزند اهـ، المنقول بحذف كثير-

دخل أبو البقاء البلوي إلى الجزائر ليلا وقد تفرقت جماعة رفقائه بكرة من الغد في سكك المدينة المبنية على هضاب فرأوا مسجدا عتيقا (وهو الجامع الأعظم) وبناء أنيقا وأناسا سالكين طريق الخير والاحسان، وقد باتوا فيها أربع ليال، وأعجبته مدينة الجزائر التي يقول عنها: قد احاط بها البحر احاطة السوار بالزند اهـ.

قوله احاطة السوار بالزند: السوار هو حلية كالحلقة المستديرة وقد يكون مفتوحا في جهة، وهذا ما أراده هنا فجون الجزائر كالسوار والجزر التي كانت تقابل مرساها هي بازاء هذه الفتحة- وكان تجاه المدينة صخور أربعة متجاورة تشبه الجزر لأن البحر كان يحيط بها من كل جانب، وعلى الصخرة الوسطى بنى الاسبان حصنهم المسمى البنيون ومعناه في لغتهم الصخرة المرتفعة وذلك في سنة1510م-915 هـ، وهدم هذا الحصن خير الدين سنة 1530م-936هـ، ثم ردم ما كان بين تلك الجزر وضمها إلى بعضها بعضا وأوصل هذه الجزر(التي صارت كتلة واحدة)بالمدينة

بواسطة رصيف (طريق) طوله نحو المائتين من الميترات وعرضه نحو خمسة وعشرين ميترا وعلوه أربعة ميترات، وكان عند انتهاء هذا الرصيف واتصاله بالبر باب يسمى باب الدزيرة (أي الجزيرة)- والتسمية المشهور عندنا ببلدنا هي: حومة باب الدزيرة (بسكون الدال).

وفي القرن الثاني الهجري سكنت بالجزائر قبيلة بربرية تسمى مزغنى أو مزغنا أومزغناي (بسكون الياء) وفي كل هذه الأسماء فتح الميم والغين المعجمة وسكون الزاي وتشديد النون مع فتحها، ومزغنى (بالألف المقصورة) هوالرسم المشهور الذي يوجد في كتب الأخبار والتواريخ - وهي بطن من صنهاجة، وفي أواسط القرن الرابع الهجري حوالي سنة339هـ، "بنى" الجزائر الأمير بلكين (بضم الباء واللام بتشديد الكاف المعقودة المكسورة) بأمر والده عاهل صنهاجة وهو زيري بن مناد (بتشديد النون) وكانت عاصمته بلدة أشير (بفتح الهمزة وكسر الشين) بجبل الكاف الأخضر بتيطري (بكسر التاء والراء والياء في الآخر ساكنة) وبقي منها بعض الأطلال والآثار إلى اليوم.

وبنو مزغنى من صنهاجة وطن الجزائر وهم أهل مدر يعني أنهم حضر -ومن مدن صنهاجة أشير ولمدية ومليانة ومتيجة (بلدة اندثرت فيما بعد) والجزائر، قال ابن خلدون: هم (أي صنهاجة) أكثر أهل المغرب لهذا العهد وهو القرن الثامن الهجري لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلث من أمم البربر اهـ، وانحدرت منهم أمة أي طائفة عظيمة إلى الجنوب في أزمنة قديمة فكثروا بالصحراء جنوب المغرب حتى عمروا ما بين غد امس شرقا

ونول (بضم النون) غربا والسودان جنوابا وانقسمت صنهاجية إلى شعبين عظيمين بقي أحدهما بالجزائر واستوطن الآخر الصحراء الغربية وهم الملثمون، وكانت صنهاجة تتألف من قبائل كثيرة وكان من أشهرها قبيلة لمتونة وهي التي كانت لها الرئاسة في عصر المرابطين ولهذا تسمى أيضا بدولة اللمتونيين - وكانوا يعيشون كأعراب البوادي منتجعين من واحة إلى أخرى إلى أن استقروا غرب الصحراء قرب سواجل المحيط الأطلسي منعزلين منقطعين عن القبائل الأخرى، وقد زارهم الرحالة ابن حوقل سنة331هـ، ووصفهم بحسن الألوان ونقاء الأبدان وبالفروسية والسرعة في اختراط السيوف وركابهم (بكسر الراء وتخفيف الكاف أي ما يركب من الحيوان) المهارى، وتحدث عن قوة اجسادهم وصحة أجسامهم العجيبة: قبض رجل منهم على جمل نافرفعدا وراءه ولحقه ومنعه عن الحركة وضرب به الأرض ونحره، وقال أيضا عنهم: ولم ير لصنهاجة منذ كانت من وجوههم غير عيونهم وذلك أنهم يلثمون وهم أطفال وينشأون على ذلك، ولذلك سماهم عيونهم وذلك أنهم المؤرخون بالملثمين، وأما تسميتهم بالمرابطين فإن شيخهم عبد الله بن ياسين سماهم بذلك اشارة إلى قوله تعالى"يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون" واللثام (بكسر اللام) ما يغطى به الوجه.

ونقول هنا على سبيل الاستطراد أن الأهالي الأقدمين لافريقية الشمالية وجدوا في هذه الأقطار منذ زمان بعيد جدا ولا يعرف لهم مقر كانوا فيه سابقا وذلك في نظر بعض العلماء، ويقول آخرون أن أهالي هذا الوطن "البربر" أصلهم من شبه جزيرة العرب فرحلوا من مهد نشأتهم

إلى سواحل بحر الروم من الشام وأرض القدس فكان ارتحالهم من اقليم البحرين واليمن وغيرهما نحو العراق وسوريا وغيرهما آلاف السنين قبل الميلاد، وقد كانت بلاد العرب في الزمان الأول خصبة فيها المدن والقرى والعيون الجارية والأنهار المطردة إلى أن تغير طقسها فجفت أرضها وذهبت غلاتها فأضطر كثير من سكانها إلى الانتقال خارج الجزيرة، واليمن أخصب بلاد العرب وأوفرها محصولا وأشهر مدنها سبأ ومعين (بفتح الميم وكسر العين)، ومن اليمن اجتاز العرب من مضيق باب المندب إلى ساحل افريقية المقابل وتوطنوا هناك وكونوا دولة وهي اليوم دولة الحبشة وتسمى أيضا ايثيوبيا.

قال ابن خلدون: والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح وأن اسم أبيهم مازيغ اهـ، فالأمة البربرية أمة لها ميزة ووحدة خاصة بها وكيان منذ أجيال بعيدة جدا، وأصلها من بلاد العرب ونزحت أفواج منها وجماعات متوالية من العصور الغابرة إلى هذه الأوطان الافريقية ونازعت الأقوام التي كانت ساكنة بها وصارت الرئاسة إليها، ويقولون أن كلمة "مازيغ" معناها نبيل وشريف أي صاحب سطوة ورئاسة وامتياز، وجمع مازيغ، أمازيغ، واللغة تامازيغت، ولا مانع من أنه تسرب إلى افريقية الشمالية طوائف عديدة من أرض فارس ومن مصر وأوروبا، ولا ننسى الفينيقيين فلإنهم استقروا بالخصوص في السواحل لأن رغبتهم كانت الاتجار مع أهالي الوطن في أول الأمر ثم غيرت قرطاجنة علاقاتها مع السكان وبسطت شيئا فشيئا سيطرتها على البلاد، وعلى كل حال فمن نتائج حلول القرطاجنيين بشمال افريقية هو

أن الأهالي تعلموا منهم أشغال الزراعة وغرس الأشجار واستعمال آلات الفلاحة وتربية المواشي، واخذوا عليهم شيئا كثيرا من مدينتهم ومعارفهم واقتدوا بهم في شؤون الحياة وشيدوا الدور والقصور، وانتشرت لغة القرطاجنيين بسهولة لمشابهة لهجات الأهالي باللغة القرطاجنية لأنهم كلهم من أرومة سامية، وهذا ما ساعد فيما بعدذلك على انتشار اللغة العربية بسرعة في بلاد المغرب بعد استقرار العرب بهذه الأقطار.

وملخص القول في نسب البربر أنهم ينقسمون إلى جذعين عظيمين وهما البرانس وجدهم برنس، والبتر وجدهم مادغس أو مادغيس – وبرنس بفتح الباء والنون وسكون الراء، والبتر بضم الباء وسكون التاء، ومادغس بسكون الدال المهملة وفتح الغين المعجمة، ومادغس بكسر الغين، وبرنس ومادغس أو مادغيس أبوهما واحد وهو، بر بفتح الباء وتشديد الراء، وبر من نسل مازيغ بن كنعان من أبناء سام خلافا لمن ألحقهم بأبناء حام لأغراض لهم، ويقولون أن صنهاجة من عرب حمير في اليمن ولذا كان عدد وافرمن العلماء في العصور الماضية يتلقبون بالحميري – والجذم (بكسر الجيم وسكون الذال المعجمة) والأرومة (بفتح الهمزة) الأصل–

وقد سبق أن أصل سكان بلادنا من جزيرة العرب، وبعد استقرارهم بشمال افريقية انقسموا إلى حضر سكان المدن والقرى والجبال، وإلى بدو متنقلين في القفار يعني أنهم لبثوا يعيشون كما كانوا في أوطانهم الأصلية، ولا غرابة أن عناصر أخرى كثيرة أتت من عدة جهات وامتزجت بهـم فـي أثناء العصور وغابر الأزمان.

ونهي الكلام عن البربر بهذا التنبيه: قيل إن اشتقاق كلمة برانس مـن

اللفظة اليونانية بارالوس ومعناها أهل ساحل البحر (السواحلية) ويقصدون أهل المدر وهم الحضر- واشتقاق كلمة البتر من اللفظة اليونانية بوتروس ومعناها الرعاة يعني أهل البوادي المرتحلين بمواشيهم لأجل الكلا (العشب) والماء وهم أهل الوبر.

وقد قيل أن البرانس تسمية للذين يلبسون البرنس(البرنوس) وهو نوع من الثياب معروف من قديم الزمان في أوطاننا يفرغ على باقي اللباس وهو يناسب سكان الجهات الباردة كالجبال وغيرها- والبتر هم الذين يلبسون الثياب القصيرة غير الواسعة وهي تناسب سكان البوادي والقفار وأصحاب الانتجاع والانتقال - وركوب الخيل والجمال- ولا يخفى مـا فـي كل ذلك من الفرض والتقدير والاحتمال.

جدول مفصل في بيان الدول الإسلامية

بافريقية الشمالية

سبق الحديث على مدينة الجزائر بأنها كانت في بعض الأوقات تحت نظر حاكم يرجع إلى دولة من الدول التي استولت على شمال افريقية، وكانت في بعض الأحيان متصرفة في نفسها مع مشيخة أي جماعة بلدية، وليس لدينا أخبار متوالية على ممر الأيام محققة كافية في هذا الشأن ماعدا العصر التركي فإنه في الجملة في ضوء التاريخ، ولذا أفردنا له قسطا كافيا للتعريف به، ولا نعرف جيدا ما كانت علاقات الجزائر وروابطها مع الدول التي قامت بهذه البلاد، وعلى كل حال فها هو جدول في بيان تلك الدول:

- الدولة الرستمية: تأسست بتهرت سنة 144هـ-761م- بويـع

عبـــد الرحمان بن رستم أولا بالامارة ثم الامامة، وسقطت في أيدي بنــي عبيد (بصيغة التصغير) سنة 296هـ-909م- فمدتها 152سنة قمرية و148 شمسية- ورستم (بضم الراء والتاء وسكون الميم) وهو فارسي الأصل.

- الدولة الادريسية - تأسست بالمغرب الأقصى سنة172هـ -788م، وأول أميرها ادريس بن عبد الله الذي تولى من سنة172 إلى سنة177هـ. وكانت نهاية الأئمة الادارية سنة375 هـ-985م.

- الدولة الأغلبية: تأسست سنة 184هـ-800م، ولى هارون الرشيد بعـد استشارة أصحابه اربراهيم بن الأغلب التميمي على افريقية، وقاعدتها مدينة رقادة (بتشديد القاف) بقرب القيروان، وكانت نهايتها سنة 296هـ-909م - وعدد أمرائها أحد عشر أميرا.

وكانت تطلق افريقيا على الأيالة التونسية وأكثر القطاع القسنطيني.

- الدولة العبيدية: أميرها الأول عبيد الله المهدي الذي أسس مدينة المهدية واختار لها موقعا حصينا وانتقل إليها سنة 308 هـ، أقامت هـذه الدولة بالمغرب مـن سنة 296هـ، إلى سنة انتقالها إلى مصر سنة 362هـ، فـي أيام المعز لدين الله وسميت هناك بالدولة الفاطمية فكان لها شـأن عظيم ومن مآثرها الخالدة إنشاء الجامع الأزهر.

- الدولة الزيرية: تنتسب إلى عاهلها وأميرها العظيم زيرى بن مناد الصنهاجي الذي أنشأ مدينة أشير بجبل تيطري شرقي بلدة قصر البخاري، ومات في الحرب التي نشبت بين زناتة وصنهاجة سنة 360هـ، بعد أن تملك مدة ست وعشرين سنة، وتولى بعده ابنه بلكين بعهد من المعز لدين الله سنة361هـ، وأسس بالقرب من أشير التي بناها أبوه زيري مدينة أخرى

تسمى بنية – وكان بلكين في أول أمره واليا على مدينة الجزائر حينما كان والده زيري أميرا على صنهاجة ثم خلفه في إمارته قبل أن يواليه المعز لدين الله ولاية افريقية، وادامت الدولة الزيرية من سنة 361 إلى سنة 405هـ.

– الدولة الحمادية: أنشأ حماد بن بلكين بن زيري مدينة قلعة بنـي حماد بين برج الغدير والمسيلة فالدولة الحمادية الصنهاجية أخت الدولة الزيرية التي كانت عاصمتها مدينة أشير، ويوجد بين برج بوعريريج والمنصورة جبل اسمه يشير (بفتح الياء وكسر الشين) وبه آثار مدينة لا يعرف عنها خبر، وبيشير محطة للقطار بهذا الاسم، وقد غلط الشيخ محمد بوارس فظنه اشير زيري، واشير أو يشير معناهما باللهجة البربرية قمة الجبل، وشرع حماد في بناء القلعة سنة398هـ، وتم تمصيرها سنة400 – وهي على جبل كناية ويسمى أيضا بمعديد ويقولون اليوم جبل المعاضيد فوقع فيه تحريف، ومكان القلعة يدعى في القديم قلعة أبي طويل، وأعلاها الموضع المسمى تاقربوست وهو يطل على سهول الحضنة.

وشرع الناصر سنة 460هـ في تأسيس بجاية ونقل الناس إليها وأسقط عنهم الخراج، واختار لها موضعا منيعا في سفح جبل ولها مرسى مأمون يسع أسطولا، والناصر هو الناصر بن علناس بن حماد، وعلناس(بفتح العين وسكون اللام) أصله اعلى الناس أي الحاكم والأمير –ودامت هذه الدولة الحمادية من سنة 405 إلى سنة 547 هـ.

– دولة المرابطين: وتسمى الدولة اللمتونية ودولة الملثمين وهـي صنهاجة، وامتدت من المغرب الأقصى إلى مدينة الجزائر، وملكت بوطننا مدة 67سنة– تبدأ هذه الدولة مت تاريخ تأسيس يوسف بن تاشفين مدينة

مراكش سنة 454هـ، ودامت دولة المرابطين أقل من قرن (من سنة 454 إلى سنة 541هـ) وهي فترة قصيرة من الزمان مع ما قامت به من الأعمال المحمودة.

– دولة الموحدين: أميرها الأول الرجل العبقري عبد المؤمن بن علي من قرية تاجرا (بسكون الجيم)بقرب بلدة ندرومة بالقطاع الوهراني، دامت هذه الدولة من سنة 541 إلى سنة 668هـ، باستيلاء يعقوب بن عبد الحق المريني على مراكش عاصمة الموحدين، توفي محمد بن تومرت سنة 524 بعد أن اسس دولته واحكم تدبيرها وبين للموحدين ما يفعلونه، وقام بالأمر بعده بعده عبد المؤمن بن علي، (وكلمة المؤمن بالهمزة لأنه اسم فاعل ولكن في اللغة الدارجة تسقط في النطق للتخفيف وغالب الظن أنهم كانوا ينطقون بلا همز كما في ايامنا)، وكانت ولادته بقرية تاجرا (أو تاقرا) بقرب مرسى هنين (بصيغة التصغير) بساحل تلمسان، وكان بنو عبد المؤمن يعرفون بالسادة لا يسمى غيرهم بالسيد في عصرهم.

– الدولة الحفصية: لها علاقة مع دولة الموحين، وهي منسوبة إلى ابي حفص بن عمر بن يحي الهنتاني(بكسر الهاء وسكون النون) وهنتانة قبيلة من المصامدة في جنوب المغرب الأقصى، وابو حفص هذا من أصحاب محمد بن تومرت (بضم التاء وفتح الميم وسكون الراء) وكان ممن أيدوه وأعانوه ولهذا كان معظما في دولة الموحدين، وتولى للناصر الموحدي ابنه (أي ابن أبي حفص) عبد الواحد على تونس سنة 603هـ وتوفي سنة 618م– وكان انتهء دولة بني عبد المؤمن في أيام أبي زكرياء يحي سنة 627هـ، لضعف الدولة المؤمنية فدامت الدولة الحفصية ما يزيد على

ثلاثة قرون، وكان سقوطها بسعي الأتراك إذ كان السلطان العثماني سليم الثاني كلف وزيره وهو سنان باشا بفتح تونس وطرد الأسبان منها فكان الأمر كما نوى فأسر الأتراك القائد الاسباني وبعثوا بالسلطان الحفصي محمد إلى اسطنبول وانتهت بذلك مملكة الحفصيين.

- دولة بني عبد الواد الزيانية: هي من أعظم الدول الإسلامية في افريقية الشمالية، وقام بتأسيس هذه الدولة قبيلة بني عبد الواد، وكانت مواطنهم ما بين بلدة سعيدة شرقا ووادي ملوية غربا - وملوية بضم الميم واللام- وكانوا يعيشون عيشة النجعة والانتقال كأعراب البوادي الرحل (بضم الراء وتشديد الحاء المفتوحة) في صحراء المغرب الأوسط لإلى الحضنة (بضم الحاء وسكون الضاد) وواحة فيقيق إلى تافيلالت بجنوب المغرب الأقصى، ومن المعلوم أن المغرب الأوسط هو عبارة عن مقاطعة وهران (بفتح الواو) ومقاطعة الجزائر وقد امتد نفوذ هذه الدولة في كثير من الأحيان أو في بعض الأحيان إلى جميع قطر الجزائر بحدوده المعروفة، وقد كان يزاحمها سلاطين تونس الحفصيون وبنو مرين بالمغرب الأقصى، وبنو مرين من قبيلة زناتة العتيدة العظيمة المرتادون في الصحراء في شرق المغرب الأقصى ما بين ملوية وتافيلالت، وكان عصر بني مرين عصرا طويلا نحو ثلاثة قرون من سنة 668 إلى سنة961 هـ، ومؤسس دولة بني مرين (بفتح الميم وكسر الراء) عبد الحق بن محيو (بفتح الميم وسكون الحاء وضم الياء) الذي دخل بقومه إلى تل المغرب الأقصى سنة610 على حين ضعف دولة بني عبد المؤمن وقتل سنة 614هـ، وكان أول ملوك هذه الدولة بتغلبه على مدينة مراكش عاصمة الموحدين

سنة 668 ويلقب بأمير المسلمين، وقد حاصر سنة 698هـ، أبو يعقوب المريني مدينة تلمسان مدة ثمان سنين وثلاثة أشهر وأياما حصارا هائلا قاسى فيه سكانها ما لايوصف من المجاعة وفناء الخلق قيل أنه مات نحو العشرين ومائة ألف شخص.

- كان الموحدون قد أقطعوا (أعطوا) قبيلة بني عبد الواد أرضا واسعة فلبثت في ولائهم إلى أن ظهر الضعف فيهم وتضاءل نفوذهم فتنازل الموحدون لهم عن إمارة تلمسان وترأس شيخ القبيلة في ذلك الأوان جابر بن يوسف سنة 627هـ، فكان أول أمير لهذه الدولة، وحين تلك أبو يحي يغمراسن بن زيان سنة 633هـ أعلن باستقلاله وانفصل عن الموحدين غير أنه أبقى اسمهم في الخطبة. ويغمراسن (بفتح الياء وسكون الغين المعجمة وضم الميم وفتح السين أو بفتح الياء والغين وسكون الميم وفتح السين) ومعنى هذه الاسم بالزناتية رئيس القوم، وهم من قبيلة زناتة وقد سبق القول عنا.

وقالوا الأصل في التسمية بعبد الواد: عابد الواد وهو لقب لجدهم لأنه كان يتعبد في واد هناك، ولعل تسمية هذا الجد جاءته من أنه انفرد بأسرته بسكنى واد، ولنا شاهد عن ذلك وهي التسمية بمولى الواد كما قال لنا صديق يوثق بعلمه وأمانته.

وتسمى هذه الدولة بدولة بني عبد الواد(لا الوادي كما في اللغة الفصحى)، وقد عنون أبو زكرياء يحي بن خلدون تاريخ هذه الدولة بهذا العنوان: نجعة الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، وقيل بل العنوان هو: بغية الرواد في أخبار الملوك من بني عبد الواد - فتبين

مـن ذلك أنهم كانوا يسمونهم بني عبد الواد- والنجعة والبغية بضم الحرف الأول وسكون الثاني، والرواد جمع رائد وهو من يبحث عـن أماكـن العشب والماء.

اشتهرت هذه الدولـة الجزائريـة فـي أول حكومتـها باسم دولـة بني عبد الواد إلى عهد السلطان أبي حمو الثاني فعرفت بدولة بني زيان أو دولـة الزيانية نسبة إلى زيان وهو والد يغمراسن.

وكان سقوط دولة بني زيان بخلع مولاي الحسن وهو آخر ملوكهم واحتلال الأتراك لتلمسان نهائيا سنة961هـ-1554م.

وقد ذكرنا في هذا الجدول المطول الدول التي يهم الإلمام بـها بالنسبة إلى تاريخ حاضرتنا أو قطرنا، ولهذا لم يرد الكلام على دولة بنـي وطاس (بتشديد الطاء المهملة) أوعلى الدولة السعدية، وقد كانت لدولة الأتراك الجزائرية منافسة ومناوشات بسبب الحدود وبالخصوص مع الدولة العلوية فنذكر شيئا عنها في بعض الصفحات من هذا الكتاب.

الأتـــراك بـالـجـــزائـــر

أصل عرّوج وخير الدين من جزيرة في الأرخبيل يقال لها مدلي (بكسر الميم والدال المهملة وكسر اللام مع تشديدها والياء ساكنة)، وكانت مـن جملة المملكة العثمانية، وكان أبوهما يعقوب جنديا في العسكر الحارس للجزيرة، فتزوج بنت من بنات النصارى اليونانيين فرزق منها أربعة بنين اسحاق وعروج وخضر (بكسر الخاء وفتح الضاد) وسمي فيما بعد خير الدين، والياس (بكسر الهمزة وسكون اللام) وترتيبهما على حسب ذكرهم، وكان عروج وخير الدين كثيرا ما يسافران في البحر، وأنشأ كل منها جفنا "مركبا" برسم "بقصد" التجارة، فصادف عروج وكان معه أخوه الياس – جفنا من أجفان النصارى الغزوية مـن جزيرة رودس وكانت في حكم النصارى فوقع القتال بين الجانبين فاستشهد الياس مع جملة مـن المسلمين وقبضوا على عروج وساقوه أسيرا إلى رودس، وقدّر الله لـه أن يفلت من أيديهم حينما كان في مركب لهم فهال البحر بهم واضطربت أمواجه فألقى بنفسه فـي البحـر ونجا، وعاد عروج إلى السفر في البحر والجولان فغنم وظفر من نفائس الأمـوال شيئا فشيئا، وألقت به الريح إلـى جزيرة جربة بساحل الأيالة التونسية فأودع بها أثقاله وسافر إلى ناحية بلاد النصارى فغنم وسبى ودخل مدينة تونس وأهدى لسلطانها الحفصي ماغنمه من الروم واستأذنه عروج بأن يقيم ببعض مراسي بلـده فأذن لـه واشترط عليه أن يعطيه خمس الغنائم لخزينة بيت المال، وهذه السلطان هو أبو عبد الله محمد الدي تولى من سنة 899 إلى سنة 932هـ، ويقولون

أنه وقع اختيار عروج على القرصنة لأنها كانت من الصنائع الرابحة وإن كانت في الحقيقة محفوفة بالأخطار ولكنها كانت تكسب صاحبها يعني (القرصان) الشهرة والشرف وتغنيه في المدة القصيرة إذا كانت له فيها مهارة وشجاعة- والقرصنة هي الغارات البحرية للغنيمة والسبي.

ومما يجب التنبيه عليه هو أنه في ذلك العصر كانت الدولة الزيانية اختلت أحوالها وظهر فيها الضعف ومالت إلى السقوط واستولى الاسبان على المرسى الكبير ووهران وبجاية وكانت مقاطعة قسنطينة تابعة للحفصيين. والذي زاد في الطين بلة أن دول المغرب العربي الحفصية والزيانية والمرينية كانت متخاذلة متنافسة كل دولة منها تتعدى على أختها وتكيد لها وتريد التملك والسيطرة، فكانت سواحل قطر الجزائرمهددة من طرف الأسبان بالخصوص، وجمهورية البندقية (فينيز) وجنوة هي مرسى كبير بايطاليا في البحر الأبيض المتوسط - وسكان جنوة يسمون بالجنويز،

وقد قيض الله لهذا الوطن مجيء الأخوين عروج وخير الدين للدفاع عنه وحمايته من تسلط الأجانب واستيلائهم عليه، فهذان البطلان الوطنيان شأنهما عظيم في تاريخ بلدنا فقد كونا فيه دولة مستقلة بنفسها لها كيان ووحدة جغرافية وحدود معينة- وليس كل ذلك بالشيء القليل ولا بالأمر الهين اليسير. وكان عروج يمتاز بمعرفته اللغة اليونانية وباطلاعه أثناء مدة أسره بجزيرة رودس على نظام فرسان رودس وهم فرسان القديس يوحنا (بضم الياء وفتح الحاء وتشديد النون) المسيحيين وكانوا يتعاطون القرصنة في تلك الناحية الشرقية من البحر الأبيض المتوسط.

حاصر عروج مدينة جيجل مع اعانة أهالي تلك النواحي وافتكها من

أيدي الجنويز وكانت لهم فيها حامية تحرسها وذلك سنة1514م- فتح الاسبان مدينة بجاية سنة1510م وحاصرها عروج سنة1512م، فلم ينجح وأصيب بجراح في يده اليسرى فقطعت وجعل عوضها ذراع من فضة - وقد كان في تلك السنوات اتفق رأي الاسبان على غزو مدينة الجزائر والاستيلاء عليها لأنهم قالوا إذا توطن الأتراك مدينة الجزائر وافتتحوا عمالتها وتوسعوا في البلاد فإنهم يقطعون البحر عنا وربما امتد طمعهم إلى بلادنا وشنوا الغارات على سواحلنا، ولهذا بنوا على الصخرة الوسطى في الموضع الذي فيه بناء الإمارة البحرية حصنا هدمه فيما بعد ذلك خير الدين.

وقال في كتاب غزوات عروج وخير الدين ما نصه: وكان من جملة ما عتدوا به على فتح الجزائر حصنهم المجاور للمدينة من ناحية البحر فإنه كثيرا ما كانت تحصل منه الإذاية لأهل المدينة بحيث أن النصارى كانوا يرمون على أهل المدينة بالمدافع والمكاحل فكان هذا شجى معترضا في صدور أهل الجزائر إلى أن خلصهم الله منه على يد زعيم المجاهدين خير الدين اهـ- وقد جاء الاسبان بعسكر ونزلوا من أجفانهم بالبر بقصد حصارها والتضييق عليها فخرج إليهم عروج مع جماعته وأهل المدينة فكانت الغلبة على الاسبان فمات منهم عدد كبير والباقي منهم أبحروا في مراكبهم وذهبوا إلى بلادهم خائبين.

كان عروج بمدينة جيجل بقطاع قسنطينة فاستصرخ به أهل الجزائر فلبى دعوتهم ومعه عسكر من الأتراك والجزائريين فعرج أولا على مدينة شرشال فاحتلها سنة922هـ (1516م) ثم انصرف إلى الجزائر في تلك

السنة فأنقذها من براثن الاسبان.

ووجدت كتابة في برج الترك بشرشال الذي هدم في وقت الاستعمار سنة 1860م ونصها بعد البسملة: هذا برج شرشال أنشأه القايد محمود بن فارس الزكي في خلافة الأمير القائم بأمر الله المجاهد في سبيل الله أروج بن يعقوب، بتاريخ أربع وعشرين وتسعمائة (924).

و الحاصل أن في سنة 1516م وقبل مسير عروج لانقاذ الجزائر من الاسبان وكان استدعاه سالم التومي شيخ المدينة فإنه نزل بشرشال وكانت في حكم قارا حسن أحد خلفائه فقتله وجعل حامية في تلك البلدة، قيل إنه استراب منه وتخوف، ولعل محمود بن فارس الزكي خلفه في منصبه، والظاهر أن بناء البرج (الحصن) وقع في ذلك الوقت سنة 922هـ-1516م وتم تشييده سنة 924هـ-1518م وكانت وفاة عروج في هذه السنة في نواحي تلمسان كما سيأتي ذلك في محله،

ويجب التنبيه هنا على كلمة عروج بفتح العين وضم الراء فإن أصلها اروج بضم الهمزة والراء، وهي لفظة تركية معناها الصيام ورمضان، فأروج بالتركية هو رمضان بالعربية من أسماء الرجال، وبلا شك أنه وقع فيه التحريف من قديم الزمان لأنه اسم عجمي غير موجود ولا مأنوس في العربية، والهمزة و العين من حروف الحلق القريبتين في النطق.

كان أحمد بن القاضي في أول الأمر واليا على مدينة بونة (عنابة) من قبل السلطان الحفصي بتونس، ومقاطعة قسنطينة كانت في ذلك العصر للحفصيين، ولما استولى الاسبان على بجاية سنة 915هـ 1509م فإن السلطان الحفصي أمر ابن القاضي بالالتحاق بعروج وإعانته بكل ما يستطيع

لطرد هؤلاء الأجانب المتوثبين فمكنت هذه الفرصة ابن القاضي من العودة إلى أرض الأجداد فجعل مقره في قرية صغيرة تسمى أورير (بفتح الهمزة وضم الواو وكسر الراء الأول) في قبيلة أيت يحي وهذه القرية في مرتفع من الأرض يطل على وادي سباو - وبلا شك أن القاضي اختار تلك القرية لموقعها الجغرافي وخلفها جبل الاكفادو- والوصول إليها وعر متعب، فأطاعه بنو جناد (بتشديد النون) والمداشر (الدشور) الأخرى القريبة منهم، وكانت سيطرته ممتدة من جيجل إلى الجزائر وساعدته شهرة أسرته القديمة إذ هو من نسل القاضي الشهير أبي العباس أحمد الغبريني كان من أعيان بجاية. وله كتاب عنوان الراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، وتوفي بها سنة 714هـ، ونشر هذا التأليف شيخنا المرحوم محمد بن شنب بالجزائر 1328هـ1910م- ومنه جاء لقب أعقابه بابن القاضي.

ثم إن أحمد بن القاضي انتقل إلى موضع آخر بالقرب من مستقره الأول يسمى كوكو (بضم الكافين) وهذه القرية هي أيضا على سند جبل بقرب وادي بوبحير (بضم الباء الأولى وسكون الثانية وكسر الحاء المهملة) سباو الاعلى - وشمل نفوذ ابن القاضي ما بين نهر سباو ووادي الساحل من جهة ونهر سباو والبحر من جهة أخرى، وكانت مراسي دلس وأزفون وبجاية وجيجل مراكز تجارية لهذه الدويلة التي كانت يسمى رئيسها عند الفرنسيين بملك كوك (بضم الكاف الأولى وسكون الثانية) وكانت البضائع التي تباع أو تعوض هي العسل والصوف والجلود والشمع وغير ذلك- وكانت هذه الدويلة في ضمن المملكة التركية الجزائرية غير منفصلة عنها.

مر الزمان وتتابعت الأيام ولم يبق اليوم إلا ذكر هذه الأسرة التي كانت

من جملة أسباب اضمحلالها النزاع والشقاق والتنافس على الحكم بين أفرادها وسوء الرأي والتصرف -دامت حكومة أبناء ابن القاضي نحو القرنين السادس عشر والسابع عشر من الميلاد وانتهت في أواخر القرن السابع عشر الميلادي وجاء دور المرابطين والزوايا فإنهم أداروا شؤون المداشر بالاتفاق والتفاهم ومراعاة المصالح مع جماعاتهم، واعتنوا بنشر العلم وجلب الطلبة إلى معاهدهم، فكان في ذلك خير للبلاد وانتفع به المواطنون مدة طويلة من الزمان ولكل عصر ما يلائمه ويناسبه فدل هذا العمل على حسن نواياهم نحو معاشريهم.

وكتب شيوخ الزوايا قوانينها فيها بيان للنظام و العوائد وترتيب الدروس وكل ما يتعلق بالإدارة والتسيير.

وبعد فهذه نظرة إجمالية خاطفة في سيرة أحمد بن القاضي وذكر أسرته باختصار وتلخيص، وعنوان هذا الكتاب صفحات... فيه دلالة واضحة على المقصود وهو الايجاز المفيد.

رجعنا إلى خبرعروج : ويسمى أيضا بابا عروج، وكلمة بابا (أي الأب) تدل على الاحترام والتعظيم والتقدير لمن تعطى له، ولما شاع استعمال عروج أوبابا عروج بهذا الاسم (أي الكتابة) وبهذا النطق والتلفظ به على الألسنة وفي كتب التاريخ فإننا نقتصر عليه عوضا عن أروج، وقد سبق بيان ذلك أعلاه.

وبعد انصراف عروج من شرشال فإنه توجه إلى الجزائر مصحوبا بجماعته من الأتراك والجزائريين برئاسة أحمد بن القاضي وقد كانت لالة (أو لالا) خديجة خير وسيلة لحث مواطنيها على مساعدة الأتراك للدفاع عن الوطن

بابعاد كل طامع فيه، وكلمة لالة (بتشديد اللام الثانية) معناها سيدة، ومن المعلوم أن لالة خديجة لها ضريح في قمة جبل تامقوت بتراب بني جناد في سلسلة جبال جرجرة.

كانت دولة بني حفص بتونس ودولة بني زيان بتلمسان أحوالهما غير مستقيمة فكانت بعض المدن الجزائرية مستقلة بنفسها ومنها مدينة الجزائر فكان لها هيئة في يدها زمام الأمر تحت رئاسة شيخ، وقد كان تولى عليها في فترة من الزمان العالم الشهير سيدي عبد الرحمان الثعالبي ثم انه تخلى عن مشيخة المدينة واشتغل بالتعليم والتدريس، وكانت وفاته سنة875هـ، نحو الأربعين سنة قبل مجيء الأتراك، ثم انتقلت الرئاسة من الثعالبة إلى أولاد سالم من بني علان الهواري وكان آخرهم الشيخ سالم التومي وكان سكناه بحي "حومة" باب الواد داخل الجزائر.

احتل الاسبان الصخرة الوسطى بمرسى الجزائر مكان برج الفنار الآن وبنوا عليها حصنهم المعروف باسم "البينيون" ومعناها في لغتهم الصخرة العالية وذلك سنة 916هـ-1510م وأنزلوا فيه حامية وذخائر وآلات حربية وضيقوا على أهل المدينة بكل صنف من التضييق منها فرض الضرائب "المكوس" على البضائع الواردة على طريق البحر والبضائع الصادرة أي الخارجة.

نزل عروج بالجزائر بعد الاستدعاء من أهلها وشيخها أي حاكمها، وحاول أن يقضي على حصنهم فلم ينجح وعمل المغرضون الدسائس ضده مع اعانة مشيخة البلد ففتك عروج بسالم التومي قيل أنه خنقه وهو في حمام داره وقيل أنه كلف باغتياله غيره، ثم انه نصب نفسه ملكا على

الجزائر وأعلن جنده بتوليته في البلد ولم يلق من جانب الأهالي معارضة تذكر.

ووقع خلاف في تاريخ استيلاء عروج على الجزائر، والذي يظهر انه كان سنة 916هـ- 1510م- وهذا ما ذكره عبد الرزاق بن أحمدوش الجزائري في جدول رؤساء الجزائر المنسوب إليه. وقيل سنة 915هـ.

ويقول بعض المؤرخون الافرنج انه كان للشيخ سالم التومي زوجة بديعة الجمال اسمها سافيرة فطلب منها عروج أن تتزوج به فلم ترض لأنه كان سبب موته ولما تمادت في الامتناع فانه قتلها، والذي يظهر لنا أنها قصة مصطنعة بعد حين ولم نجدها في التواريخ العربية التي نعرفها.

ولم يرد ذكر أي شيء يتعلق بسالم التومي في كتاب غزوات عروج وخير الدين.

كانت قلعة بني راشد (بفتح الشين) التي كانت تسمى سابقا قلعة هوارة من أخصب بلاد الله، وقبيلة هوارة كانت نتشرة في المغرب الأوسط، بحيث انه يطلق عليه اسم بلاد هوارة، فكانت هذه القلعة تعطي الميرة أي الطعام لكل ناحية وكانت وهران اذ ذاك قد استولى عليها الاسبان وتأتيهم الميرة منها، فأرسل إليها خير الدين أخاه اسحاق مع جيش فكانت وفاته هناك شهيدا في محاربة الاسبان سنة 924هـ،

وجاءت حملة اسبانية فأرسلت عمارتها أي أسطولها بناحية باب الواد وقيل بناحية حسين داي في شهر رمضان سنة 922هـ-1516م وكان ذلك في يوم عصفت فيه رياح قوية واضطربت الأمواج فتحطم أكثر سفنهم فقابلهم عروج ومن معه بشجاعة فكانت الخيبة على الاسبان فرجعوا

علـى بلدهم بلا طائل.

وبدأ عروج في توسيع مملكته فاستولى على سهول متيجة (بفتح الميم وكسر التاء المشددة) وكانت في العصور الوسطى مدينة اندثرت فيما بعد ولعل البليدة الحالية هي التي خلفتها أوكانت بالقرب منها، واحتل المدية ومليانة، وولى أخاه خير الدين على الناحية الشرقية فجعل مركزه بمدينة دلس فكانت بلاد القبائل تحت نظره ورعايته وخصص عروج الناحية الغربية لنفسه واحتل بلدة تنس سنة923هـ-1517م.

كان لهذه الفتوحات تأثير كبير فاستغاث أهل تلمسان بعروج ضد سلطانها الظالم فدخل إليها سنة923هـ-1517م وفر سلطانها أبو حمو إلـى وهران التي كانت حينذاك في حكم الاسبان وكان هو مواليا لهم، وقتل عروج جماعة من بنـي زيان وأشياعهم، ثم ان الاسبان أعادوا الكرة مـن وهران لاحتلال تلمسان وارجاع سلطانها إلى عرشه فخرج عروج لملاقاة أعدائه وقاتلهم مقاتلة الأبطال إلـى أن استشهد مع جماعته قرب مقطع الواد المالح بناحية مدينة وهران وذلك فـي شهر جمادى الأولى سنة 924هـ ماي1518م وعمره نحو 45سنة، فاحتز الاسبان رأسه وطافوا به في كثير من مدنهم تطمينا لشعبهم وتشفيا لقلوبهم لأنه كان ألحق بهم الخسائر الفادحة وأذاقهم حربا لا هوادة فيها ولا رفق.

ويروى أن جثمانه حمل إلى مدينة الجزائر ودفن في مسجد سيدي رمضان بجـوار قبره، وهذا الخبر مأثور ومنقول بالـتواتر و السماع لا غير ولـم يرد فـي التواريخ على حسب ما يظهر.

واذ قد عثرنا على رواية أخرى عن الموضع الذي قتل فيه عروج شهيدا فمن الواجب ايرادها هنا: قال الشيخ الصباغ في كتابه بستان الأزهار (وهو في مناقب الشيخ أحمد بن يوسف) أن أباه مات شهيدا وكان في صف الأتراك، وحاصر الاسبان عروجا بما لا طاقة له من عساكرهم مع بني زيان فخرج ناجيا بنفسه في جملة عسكره فنهضوا في أثره فقتلوه بجبل بني موسى، ومدة ايالته أي حكمه تسعة أشهر (يعني بتلمسان) اهـ- وقال ابن عسكر في كتابه دوحة الناشر في ذكر من كان في القرن العاشر أن عروجا عاث بتلمسان لما افتتحها وثار به أهل تلمسان فأوقع بهم ثم خرج على جبل بني يزناسن اهـ - قيل أنه كان عازما أن يلتجأ إلى السلطان المريني.

والحاصل أن في موقع وفاة عروج روايتين هل هو بقرب الواد المالح في ناحية وهران أو في جبل بني يزناسن، وغالب الظن أن عروج كانت في جبل بني موسى حين كان متوجها إلى ناحية بني يزناسن على نحو التسعين كيلو مترا غرب تلمسان بقرب نهر ايسلي (بكسر الهمزة وسكون السين وكسر اللام) - نهر وجدة- في حدود المغرب الأقصى مع الجزائر.

ومحمد الصباغ من قلعة بني راشد التي تبعد بنحو 25كيلو مترا عن معسكر (أم عسكر) و55 كيلو مترا عن مستغانم بالقطاع الوهراني.

والشيخ الصباغ من أبناء القرن العاشر الهجري وله تأليف عنوانه (بستان الأزهار في مناقب الشيخ احمد بن يوسف الراشدي النسب والدار) دفين بلدة مليانة العالم المربي الكبير المتوفي سنة 927 هـ، وكان من خصوم ملوك بني زيان لتعسفهم وظلمهم فحرض الناس لاعانة الدولة

الجزائرية الناشئة الفتية- وقلعة بني راشد تسمى اليوم بالقلعة لا غير.

وابن عسكر من أبناء القرن الهجري، وهو القاضي أبو عبد الله محمد بن علي بن عسكر وله كتاب دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشائخ القرن العاشر، وولد سنة 936 وتوفي سنة 986هـ، وتأليفه هذا في أهل العلم والتصوف الذين عاشوا في القرن العاشر الهجري.

وتلخيص القول في سيرة عروج أن من تأمل في خدماته ومساعيه وعرف مآثره الخالدة فانه يتفطن لحسن مقاصده وأغراضه فإن هذا الرجل العبقري سعى في توحيد البلاد وجمع شمل أهلها وتحطيم المعتدين عليها الطامعين في أرزاقها فله الفضل العظيم في تأسيس أول دولة بمدينة الجزائر وكانت قبل ذلك بلدة صغيرة وفي جعل هذه الحاضرة عاصمة وقاعدة مملكة ولكن ما شرع فيه لم يقدر له أن يتمه ويكمله فان أخاه خير الدين أتمه وأكمله، وخير ما يقال وأصوب ما يكتب ويسطر أن بابا عروج هو أول من وضع اللبنة الأولى لبناء صرح الدولة الجزائرية وأول من تنبه جليا لتمتين أساسها وتصحيحه وفهم أنه يجب لتنفيذ نظرياته ان لا يتجاوز القطر الجزائري وأن يكرس مجهوداته في توحيده وجمع شمل جميع أنحائه فإن الجزائر لها شخصية تمتاز بها وشعار خاص بها ومنابع وخيرات مختلفة متنوعة فان تفرغ لها المواطنون وشمروا عن ساعد الجد وصمموا على العمل المثمر بالتآخي والنية الصالحة الخالصة نالوا منها ما يكفي وفوق ما يكفي.

فتح البينيون، هو الحصن الذي كان بناه الأسبان فوق الصخرة التي كانت وسط صخور ثلاث أخرى بازاء المدينة سنة 916هـ- 1510م بقصد

التضييق على الجزائر وتفتيش الصادرات والواردات (أي ما يخرج منها وما يأتي إليها من البضائع) وقطع الصلات البحرية بين الجزائريين وغيرهم متى شاؤوا فكان هذا الحصن (البينيون باللغة الاسبانية) كالشوكة في صدرهم، فحمل عليه خير الدين في شهر رمضان936هـ ماي1530م، وكان الهجوم عليه في 16ماي 1530 فقضى على من كان في الحصن وهدمه حتى لا يبقى لهم مطمع في العودة إلي، ومن انقاضه ضم الجزر الأربع التي كانت هناك على بعضها بعضا بحيث أنه صارت بقعة واحدة وبنى جسرا (قنطرة) وهو الرصيف الممتد على المدينة الرابط بينهما، فتم بذلك الاستيلاء النهائي على الجزائر وانقاذها من المعتدين فاطمئن بال الأهالي ووجدوا راحتهم.

ويحسن هنا ذكر استشهاد سيدي ابراهيم بمرسى الجزائر فانه أقبر هناك وضريحه معروف إلى اليوم، وبنى عليه خير الدين قبة فخيمة وكان قد عرفه بالمشرق على ما قيل، ووجد بخط الشيخ محمد بن علي الخروبي خطيب الجزائر في وقته أنه جاء من الصحراء (بوسعادة) قاصدا حج البيت فتوفي شهيدا بالجزائر اثناء الهجوم على الحصن الاسباني المشيد ازاء المرسى القديم لمدينة الجزائر، واسمه ابراهيم السلامي نسبة إلى مدينة السلام وهي بغداد، ويعرف بالجزائر باسم سيدي ابراهيم البحري، ولعل في ذلك اشارة إلى قرب ضريحه من البحر وليس من تحقيق هذه التسمية، (من تعريف الخلف برجال السلف باختصار وبعض الزيادة).

ومحمد بن علي الطرابلسي (من طرابلس الغرب بافريقية الشمالية) كان نزيل الجزائر وخطيبه وكان فصيحا له دراية واسعة في شؤون الإدارة

والسياسة وكان له جاه عظيم لدى ولاة الأمر، عينته الدولة التركية بالجزائر للسفارة على سلطان المغرب الأقصى في شأن الحدود فارتحل لهذه المأمورية مرتين دخل مدينة فاس سنة959هـ- ومدينة مراكش سنة 961هـ، وكان علما مشاركا متفننا صاحب تآليف عديدة واكنت له شدة في المناظرة وحدة، وكان يصرح برأيه جهارا بلا تردد وكنه كان صاحب حق وانصاف ولنا شاهد عن ذلك، كان الشيخ أحمد بن يوسف كثير التلقين فقال له أبو عبد الله محمد الخروبي أهنت الحكمة في تلقينك الأسماء للعامة حتى النساء فقال له دعونا الخلق إلى الله فأبوا فقنعنا منهم بأن نشغل جارحة من جوارحهم بالذكر، قال الشيخ الخروبي فوجدته أوسع مني دراية اهـ - يعني أن الشيخ أحمد بن يوسف كان يربي الناس بما يناسبهم وفي قدرتهم أن يفهموه ويعلموا به فدل جوابه على أن فكره فيه سعة وعمق فاعترف له محمد الخروبي بذلك حيث أنه سكت - والتلقين هو التعليم - وتوفي الشيخ محمد الخروبي بالجزائر سنة 963 هـ (والمراد بالأسماء أسماء الله الحسنى وهي تسعة وتسعون).

وكان أهل الجزائر في الزمان الماضي يجلبون الحجر من مدينة تبعد بنحو26كيلو مترا بشرقي جون الجزائر أسسها القرطاجنيون واسمها عندهم "روش قوني" بضم الراء والقاف المعقودة والمعنى بالعربية رأس القنة (أي الربوة) على ساحل البحر، وبالقرب منها رأس ماتيفو (بكسر التاء وضم الفاء)، واسم قرية تمانتفوس (بسكون النون والتاء والسين وضم الفاء) واسم قرية تمانتفوس اليوم برج البحري، وحقيقة كان الأتراك بنوا هناك برجا أي حصنا كانوا في العصر الأول من توليهم وإن شئت قلت من مملكتهم

يخبرون الناس بطلقة مدفع عن مجئ الباشا الجديد من اصطنبول عوضا عن الذي توفي أو عزل، ومن هذه المدينة القديمة القرطاجنية التي سكنها الرومان ثم الروم والبيزنطيون بقيت بعض الأطلال والآثار، وخير الدين استعمل في بناء الرصيف الذي سبق ذكره كثيرا من أحجارها.

هجرة المسلمين الأندلسيين إلى افريقية الشمالية

ابتدأت الهجرة الأندلسية في أواسط القرن الخامس عشر الميلادي والتاسع الهجري بسبب اعتداء الاسبان على المسلمين هناك فالتجأ الكثير منهم إلى مدن افريقية الشمالية ومراسيها فصار الاسبان يطاردونهم في البحر وصارت سفن عدة دول أوروبية تشن الغارات في البر والبحر فكانت النتيجة أن اتحدت الجالية الأندلسية مع اخوانهم الجزائريين يدافعون عن مراكبهم وعن سواحلهم وصاروا يغيرون في البحر على الافرنج فعمت البلوى وكثر العيث–وبعد سقوط مدينة غرناطة في يناير (جانفي) 1492م–سنة 897هـ خرج منها أبو عبد الله (ويسميه الافرنج بوعبديل) آخر الملوك من أسرة بني الأحمر النصريين الذي توفي بفاس، فضيق الاسبان على المسلمين هناك وأذاقوهم أنواعا من العذاب كما هو مسطر في كثير من كتب التاريخ – واستغاث المسلمون بخير الدين سنة935هـ–1529م فشرع يرسل إلى سواحل الأندلس الشرقية المراكب لنقلهم فنجح في سعيه فنزل كثير منهم بالجزائر فأكرم مثواهم ورحب بهم أهل الوطن واختاروا بأنفسهم الأمكنة التي توافقهم للقيام فيها بصناعة أو زراعة فمنهم من نزل بمدينة الجزائر ومنهم من نزل بفحوص متيجة ومنهم من نزل بشرشال ودلس ووهران وغيرها من المدن والمراسي من الجزائر وتونس والمغرب، ومنهم من ذهب إلى تلمسان وبقيت منهم بقايا من سلالتهم إلى اليوم، وقد أتى هؤلاء الأندلسيون بصناعاتهم المتعددة مع ما لهم من مهارة ونشاط ودراية في جميع الشؤون وقد كانت حياتهم بالبلاد التي خرجوا

منها حياة ترف ورفاهية بلباسهم الخاص الممتاز وطبيخهم الرفيع، فاذا كانت الجزائر استفادت منهم في جميع الميادين الاجتماعية والصناعية والاقتصادية والعلمية والأدبية فإن الخسارة التي لحقت الاسبان كانت من أعظم الخسائر في شتى الميادين.

ومما يسجله لهم تاريخ الجزائر الموسيقى الأندلسية فانها صارت شعارا لبلدنا وبقي لها اسم غرناطة إلى يومنا هذا – ونغماتها اللذيذة المؤثرة لا تختلف عن الموسيقى الأندلسية في أرض منبتها في اسبانيا في هذه الأيام، ونقول هنا كلمة صريحة: فلا بد من المحافظة على الغناء الأندلسي كما أننا نرى من الواجب المحافظة على الغناء الشعبي الأصيل والغناء الصحراوي المتين فكيف ننسى الفنانين كابن مسايب وابن تريكي وابن سهلة والشيخ الأخضر بن خلوف ومصطفى بن ابراهيم وابن كريو و محمد بن قيطون والسماتي وغيرهم كثيرون ولا يمكننا احصاؤهم، ولا مانع ولابأس ومن المعقول أن يحب بعضنا أوكثير منا الغناء العصري والغناء الشرقي فلكل مميزاته وقيمته ولكن "غرناطة الجزائر" لابد من صيانتها، ونعيد القول بأنها شعار لنا ومن جملة شخصيتنا فاهمالها ينقص من تراثنا القومي وينقص من ثروتنا الفنية والأدبية، هذا ما أردنا وليس لنا غرض آخر.

نظرة اجمالية في القرصنة بالبحر الأبيض المتوسط

القرصنة هي قطع البحر واللصوصية فيه، والقرصان من يتعاطاها ويستعمل مفردا وجمعا، ويجمع أيضا على قراصين وقراصنة، واشتقوا من القرصنة فعلا وهو قرصن على وزن فعلل - اختلت أحوال مسلمي الأندلس وشرع الاسبان والبرتغال يغيرون على سواحل المغرب العربي، وتغلب الاسبان على عدة مراسي قطر الجزائر وبقيت في أيديهم إلى أن أخرجهم منها الأتراك،- وقد كانت بجاية في القرن السابع الهجري أهم الثغور البحرية والثغور جمع ثغر وهو الموضع الذي يخاف منه هجوم العدو فالثغور في معنى الحدود، ويقول الشيخ أحمد الغبريني في عنوان الراية: كانت بجاية بلدة غزاة (جمع غاز) وكان الغزاة يدخلون إلى الجزر الرومانية وغيرها ويسوقون السبي الكثير منها وينزل الناس لشرائه بحومة المذبح من جهة الربض اهـ فالسبي مصدر سبى يسبي بمعنى أسر يأسر أسرا إذا قبض عليه وأخذه على وزن رمى يرمي رميا.

والربض (بفتح الراء والباء) ما حول المدينة من الدور وغيرها.

ويخبرنا ابن خلدون في كتابه العبر عن القرصنة في عصره(أواخر القرن الثامن الهجري) فيقول: وشرع في ذلك (أي في الغزو) أهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجتمع النفير والطائفة من غزاة البحر ويصطنعون الأسطول ويتخيرون له الأبطال ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة فيخطفون ما قدروا عليه ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة (الافرنج) فيظفرون بها غالبا ويعودون بالغنائم والسبي والأسرى

حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية بأسراهم تضج طرق البلد بصخب السلاسل والأغلال عندما ينتشرون في حاجاتهم.

ويغالون في فدائهم بما يتعذر منه أويكاد اهـ.

قوله النفير(بفتح النون وكسر الفاء) الجماعة القليلة من الناس والطائفة يريد بها الجماعة الكثيرة الأفراد - يصطنعون يصنعون وصنع بمعنى أنشأ- الأسطول (بضم الهمزة والطاء وسكون السين) يستعمل مفردا بمعنى السفينة والمركب وجمعه أساطيل، ويستعمل الأسطول بمعنى الجمع أي جملة من المراكب - الفرنجة الافرنج وأهل أوروبا- يصادمون يهجمون - الأسرى (بفتح الهمزة وسكون السين والألف المقصورة) جمع أسير وهو الذي قبض عليه وذهبوا به محروسا- الثغور الغربية يعني المراسي الغربية من افريقية - ينتشرون في حاجاتهم: يذهبون للعمل الذي كلفوهم بـه فهؤلاء الأسرى كانوا باعوهم في السوق، وفي مدينة الجزائر كان موضع مخصوص لبيعهم ازاء الجامع الجديد يسمى البادستان (بكسر الدال المهملة وسكون السين)وهي كلمة عجمية بمعنى سوق المملوكين - بالأسر- يغالون الخ-كانوا يطلبون فيهم الأثمان الباهظة المرتفعة لإطلاق سراحهم فقل من يتحرر من هذا السبب، ويتعذر يستحيل.

وهذه القرصنة التي يتحدث عنها ابن خلدون (من دون أن يذكر هذه الكلمة ويسميها بهذا الاسم "يقول أنها بدأت ببجاية حوالي سنة760هـ ولكنها في الحقيقة ابتدأت منذ نحو القرنين قبل هذا التاريخ فكان هذا البحر الرومي -كما يسميه العرب- ميدان القرصنة ومجالها يتبارى فـي العرب والافرنج مع أن هؤلاء كانوا يشتكون من عيث العرب وغاراتهم علـى

جزرهم وسواحلهم، ولما استقر الأتراك بمدينة الجزائر فإنهم قلدوا ما كان موجودا قبلهم ودافعوا عن مملكتهم وهاجموا وشنوا الغارات وكان أهل بجاية يجلبون الخشب لصنع السفن من غابات جبالها فصار الأتراك يأتون به من هناك ويسمون هذا الخشب في لغتهم كاراستة وبقيت هذه الكلمة معروفة عندنا ولكن بمعنى الضخم القوي، وسيأتي القول عن بعض من اشتهر في العهد التركي من رجال البحر الغزاة كالرايس حميدو ومراد رايس.

كان هذا البحر الأبيض المتوسط في قديم الزمان في أنحائه الشرقية بالخصوص مجالا للمراكب الرومانية وكانوا ينسبونه لأنفسهم فقالوا بحرنا، ولما نزل العرب بالمغرب فإنهم رأوا أن الحاجة أكيدة لخوضه إذ أنهم يسافرون فيه للمواصلات بينهم وبين أوطانهم الشرقية ولو كانت المواصلات البرية مستمرة فأنشأوا بتونس دار صناعة وهي معمل السفن وتسمى أيضا طرسنة(بفتح الطاء وسكون الراء) وكانت بونة "عنابة" مرسى للتجارة وللغزو، وكانت بلدة مرسى الخرز (بفتح الخاء المعجمة والراء) وسميت فيما بعد ذلك القالة قد صنعوا بها مرفأ يقصده التجار لاقتناء المرجان "والمرفأ والفرضة والميناء والمرسى بمعنى واحد".

وقال صاحب الاستبصار في عجائب الأمصار واسمه لا يعرف إلا أنه كتبه سنة587هـ ان مرجان مرسى الخرز أنفس مرجان في الدنيا وأنفق شيء في الهند والصين اهـ يعني أنه يباع بكثرة في تلك البلاد، ونفقت البضاعة تنفق بفتح الفاء في الماضي وضمها في المضارع إذا كثر طلابها.

ومن جملة ما قال ابن خلدون في تاريخه عن القرصنة مايلي: كان المسلمون قد تغلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم

فيه فلم تكن لأمم النصرانية بأساطيلهم بشيء من جوانبه وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وهي جزر (الباليار) وصقلية وقوصرة (بضم القاف وكسر الصاد) ومالطا واقريطش (كريت) وقبرص (بضم القاف وسكون الباء وضم الراء)، وقد ملأت سفنهم الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا واختلفت في طرقه سلما وحربا فلم يسبح للنصرانية فيه ألواح اهـ باختصار.

قوله ببسيط هذا البحر أي وجه البحر الأبيض المتوسط وسطح مائه وما امتد منه واتسع، والباء بمعنى على -العدة (بضم العين وتشديد الدال المهملة) ما يعده الانسان ويهيئه من قلاع وحبال ومتاع وآلات مما يلزم لتسيير المراكب، وعددا أي كثرة- ألواح جمع لوح يعني أنهم كانوا لايقدرون على السير فيه والسفر فلم يكن يطفو لوح لهم على وجه الماء، وطفا ضد رسب.

والحاصل أنه مرت أزمنة كانت فيها أساطيل دول المغرب قوية كثيرة القطع (جمع قطعة بمعنى المركب) وأزمنة قلت فيها وكادت تختفي عن العيون بحسب الحالة التي تكون عليها دول المغرب من قوة وضعف، ولنتذكر هنا محمد بن هاني الأندلسي شاعر المعز لدين الله الفاطمي في القرن الرابع الهجري فله القصائد الرائعة في وصف الأساطيل والحروب البحرية.

ومن المعلوم أن العهد التركي راجت فيه القرصنة وانتعش منها أناس كثيرون وكانت لبعضهم منها ثروة طائلة، ثم طرأ عليها شيء من الوهن والضعف في المدة الأخيرة من الحكم التركي بالجزائر لأسباب عديدة

منها تنبه الدول الأوربية لخطرها عليهم أكثر من ذي قبل ونقصان التشاجر والمشاغبات بينهم، وعلى كل حال فقد كانت القرصنة الناشئة من المنافسة فيما بينهم وحب التغلب أومن التعصب وبالخصوص لرغبة التمول واكتساب الأرزاق كانت بلية عظمى منتشرة في هذا البحر وغيره فأصابت خلقا كثيرين من المسلمين وغير المسلمين في الأنفس والأموال.

ولم تكن مساهمة الافرنج فيها بالشيء القليل كما يدعيه بعض المؤرخين، وكانت من طرف المسلمين في بعض من الأحيان رد فعل ومقابلة المثل بالمثل، هذا ما قاله مؤرخو العرب وبعض مؤرخي الافرنج، وهنا ختام هذه النبذة في القرصنة وكان لزاما علينا الحديث عنها فلخصنا بكل صدق وانصاف وعلى قدر المستطاع ما ينبغي أن يقال في هذا الموضوع وله مساس بتاريخ حاضرتنا وأعمالها، وقال بعض المؤرخين ان تاريخ قرصنة الجزائر معروف في الجملة أكثر من غيره في بلدان أخرى ولهذا كثر القول عنها.

وأسس خير الدين سنة942هـ-1535م مدينة البليدة (وهي تصغير بلدة للدلالة على حسن موقعها وخصب أرضها وكثرة مياهها)، وأنشأها بسهول متيجة (بفتح الميم وكسر التاء المشددة وقيل أن معناها الأرض المشمسة) بقرب بلدة اندثرت وكانت في سالف الزمان تسمى قزرونة وموقعها معروف اليوم باسم خزرونة، وأعانه الأهالي والأندلسيون الذين نزلوا هناك فشيد لسكانها مسجدا ولازال موجودا إلى اليوم ويسمى بجامع الترك وحماما يقولون هو الموجود بقرب ذلك المسجد ويظهر عليه علامات القدم والبلى وفرنا اندرس وعفت أثاره، وأنشأ الأندلسيون بها وحولها البساتين ذات

أشجار البرتقال الممتاز اللذيذ الطعم وأشجارا أخرى فكانت الأزهار تعطر أرجاءها ويهب النسيم فيذهب بنفحاتها، وبنى الأندلسيون دورهم بها وحولها واشتغلوا بالزراعة والغرس ما جعل البليدة بفضل نشاطهم وخبرتهم من أجمل المدن الجزائرية وأطيبها للإقامة والسكنى.

وقال أبو عبيد البكري ما نصه: قزرونة هي مدينة على نهر كبير عليه الارحاء والبساتين ويقال لها متيجة ولها مزارع ومسارح وهي أكثر النواحي كتانا ومنها يحمل، وفيها عيون سائحة وطواحين ماء اهـ - قوله مسارح جمع مسرح بمعنى المرعى، والارحاء جمع رحى بالتنوين وهي مؤنثة، وطواحين جمع طاحونة وهي الرحى- والظاهر أن النهر الكبير الذي ورد ذكره في كلام البكري هو الواد الكبير الذي ينصب في واد شفة (بفتح الشين وتشديد الفاء).

الحاق الجزائر بالمملكة العثمانية

ظهر لخير الدين أن يجمع طائفة من أعيان مدينة الجزائر وأهل الرأي والمشورة فأخبرهم بعزمه على الارتحال من بلدهم والعودة إلى الأسفار في البحر والتسلط على مراكب الافرنج، وكانوا هم أيضا يتعاطون للقرصنة، فأبى عليه أهل الجزائر ما قصد من فراقهم، فعرض عليهم فكرة الحاق الجزائر بالسلطنة العثمانية للتقوي بها والالتجاء إليها عند الحاجة. فاستصوبوا رأيه وذلك لرابطة الدين ومصلحتهم في ولاء السلطان، فأرسل خير الدين سفيرا في هذا الشأن إلى الآستانة فرضي السلطان سليم الأول بضم الجزائر إلى مملكته وجعل خير الدين حاكما على الجزائر وأعمالها وأمده بجند فيه عدة آلاف من رجال الحرب المدربين مع سلاح وأذن له في ضرب السكة فصارت الجزائر من سنة924هـ-1518م ولاية تركية مرتبطة بالدولة العثمانية تابعة لها ولكنها متمتعة بالاستقلال الداخلي، وسنرى أن هذا الارتباط قد تناقص مع طول الزمان وخف محمله.

وفاة ابن القاضي - كان خير الدين قد عين ولاة على النواحي ومن بينهم أحمد بن القاضي فأقره على ناحية كوكو قرب أربعاء بني ايراتن بجبال جرجرة ومحمد بن علي في الجهة الغربية، وكان أحمد بن القاضي قد ساعد الأتراك وشاركهم في الدفاع عن الوطن ولكنه فيما بعد ذلك ثار عليهم عدة مرات وكان يعقد مع خير الدين المهادنة ثم ينقضها، ومن جراء الدسائس من طرف صاحب تونس الحفصي ومن صاحب تلمسان من ملوك بني زيان لدى ابن القاضي يحرضانه على الأتراك حدث القلق والاضطراب

داخل الجزائر وخارجها فخرج خير الدين من العاصمة وذهب إلى جيجل وهي البلدة التي كان يجد فيها كأخيه بابا عروج الترحيب والتعظيم مع الإيواء والإعانة وقد عرف الأتراك لأهلها فيما ذلك هذا الجميل ولم يضع.

وانتهز ابن القاضي هذه الفرصة واحتل الجزائر، وبعد مضي سبع سنوات قضاها خير الدين في مطاردة قراصين الافرنج رجع إلى الجزائر فدخل إليها منتصرا مصحوبا بأتباعه وأشياعه وخرج إلى مناهضة ابن القاضي الذي كان قد فر من الجزائر بعذ أن امتلكها مدة سبع سنوات فلقي حتفه بثنية ابن عيشة بأحواز شرق الجزائر سنة 1527م، وهكذا كانت نهاية هذا الرجل الذي أسس دويلة دامت زهاء المائتين من السنين.

وتصدى خير الدين لتنظيم دولته وأصبحت مدينة الجزائر مركزا للحكومة وهي جديرة بذلك لأنها مرسى في وسط القطر المسمى عليها وموقعها الجغرافي كفيل لها بالرئاسة وبالأولوية على غيرها من البلدان مع ما لهن من المميزات الطبيعية وغير الطبيعية كبونة (عنابة) وقسنطينة ووهران وتلمسان.

وأصبحت أيضا لها حدود معروفة معينة إلى اليوم، وكان من حسن تصرف الأتراك في شأن الحدود أنهم لم يتجاوزها ولم يحدثوا شقاقا معتبرا مع جيرانهم ولكنهم سعوا في ضم جميع أرجائها لبعضها بعضا ولم يقع خلاف يذكر بين أهليها ولم يخطر لهم ببال رغبة في الانفصال.

وكانت راية بابا عروج ملونة بالأخضر والأصفر والأحمر ولكن هذه الألوان الثلاثة أبدلت باللون الأحمر فيما بعد ولا ندري في أي وقت وقع

هذا التغيير، وعلى كل حال فعند ملاقاة الجزائريين بالفرنسيين في 19جوان 1830م بقرية أستاوالي كان علم الجزائر أحمر اللون كما كان عند سلاطين الدولة العثمانية وكلمة ستاوالي كلمة معناها "المعلم والي" والنطق بها اليوم صطاوالي (يعني بالتفخيم)، والأفضل أن لا يغير لأنه شاع بالاستعمال.

وقد قلنا آنفا أن العهد التركي له خصائص ومميزات فورد فيه الأندلسيون ووردت معهم صنائع وحرف ورافقتهم آداب وأخلاق مع رفاهية في المعاش من طبخ ولباس ومتاع وأثاث وغيرها من مرافق الحياة ونزلوا في عدد وافر من المدن الساحلية والأرياف وكان لهم فيها التأثير المشكور فساعدوا على اتساع العمران.

وقد تحدث كتاب كثيرون على سوء سيرة الكشايرية نحو الجزائر والكشايرية (بسكون الكاف والياء الأولى) جمع كشايري وهو العسكري أي الجندي، والأصل يني تشري. يني(بفتح الياء وكسر النون) معناها جديد، وتشري (بسكون التاء وفتح الشين وكسر الراء) معناه عسكري، وهاتان الكلمتان تركيتان، ويسمى أيضا العسكري بيولداش أويولضاش (بضم الياء وسكون اللام)، ودار الكشايرية معناها دار العسكر أي القشلة والثكنة.

والحق أن الدولة التركية بالجزائر عسكرية احترمت العلم وأهله واحترمت المعاهد الدينية والشرعية ولا ينكر من عرف أحوالها أن جنودها ربما تعدوا وظلموا ولكن الحكم على الشيء يكون بالنسبة إلى غيره وبالمقابلة فحالة أهل أوروبا لم تكن حينذاك أحسن وأهنأ من التي كانت بالجزائر، والقول الفصل فماذا يطلب الانسان من نظام حكومي أصحاب

الحل والعقد فيه هم اليولداش والرياس - ولاكبير لوم عليهم عدد المتبصر المتأمل إذ هم أناس إذا كان لهم دراية ودربة في ميدان عملهم ومجال أشغاله فلا لزوم أن يكون لهم حتما أهلية وقابلية في ميادين أخرى، وليس في ذلك أدنى تنقيص ولا حط فكل ميسر لما خلق له، وقد عرفنا في تاريخ بلدنا رجالا كثيرين لعبوا دورا هاما واسعا مثل الأخوين بابا عروج وخير الدين وعلي البشنين وابنه شلبي ومحمد الكبير باي وهران وكصالح باي بقسنطينة وأحمد بن القاضي الذي سبق ذكره، وسنرى في ولاة مدينة الجزائر عدة رجال من هذا الصنف من عداد الذين أبقوا في تاريخ بلادنا الذكرى الحسنة والآثار الطيبة المذكورة- والحاصل أن جند الجزائر (الكشايرية) لم يكن كله من أصل تركي مسلم بل كان منه منهم من أصل أوروبي، و الحق أنهم كانوا أقلية-ونكرر القول أنهم كانوا أقلية - ودخلوا في الاسلام بانخراطهم في الجندية، ومن المعلوم أن الإسلام لايراعي السوابق بل يجب ما قبله ولا يعتبره، ولنتذكر هنا أن الرسول عليه السلام كان يعتبر سلمان الفارسي من أهل البيت يعني من أسرته وعائلته لخصاله وخالص إيمانه، ثم ان افراد هذا الفريق قد اندمجوا اندماجا كليا في الوسط الإسلامي الجزائري، فإذا كانت هناك بعض الحزازات فلا نعطي لها قيمة فوق قدرها، ولا نريد بقولنا هذا إلا الصدق ولا نقص إلا الإنصاف وليس لنا غاية أخرى من وراء ذلك، ولا ننسى ولا نتناسى المسؤولية التي يتحملها من يريد أن يكتب في التاريخ، وقد أشرنا في المقدمة إلى مايجب عليه فلا لزوم إذن للعودة إليه.

وبمناسبة الكلام على الكشايرية فإننا نقول أن المسلم من أصل أوروبي كانوا يلقبونه بالقايد ويسمى أباه عبد الله، وهكذا نجد من الكشايرية من بقي اسمه معروفا إلى الآن كالقايد صفر(بفتح الصاد المهملة والفاء) وهو الذي بنى بالجزائر المسجد المسمى باسمه وجاء ذكره في قصة حصار القيصر شارل كان لمدينة الجزائر في شهر اكتوبر سنة1541م "الموافقة لعام 948هـ وقد تحرف اسم صفر إلى سافير، وهكذا ورد رسمه في كتاب غزوات عروج وخير الدين الذي الف في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري فوقع فيه التصحيف مبكرا يعني مدة قليلة بعد وفاة صفر. وتم تشييد المسجد المذكور في شهر ربيع الأول لسنة 941هـ 1534م.

وكانت الحكومة الجزائرية توفد من حين إلى آخر جماعة ينزلون بالآستانة ويجولون في شوارع المدينة ويقفون في أماكن الاجتماع ويدعون الناس إلى التجند بالجزائر ويصفون لهم الحياة الطيبة التي سيعيشونها ويرغبونهم في الذهاب معهم ويذكرون لهم ما يتقاضونه من الأجرة والامتيازات الأخرى التي ينالونها زيادة على العيش الرغد الذي ينتظرهم، ومن البديهي أنهم كانوا يبالغون فيما يعدونهم به.

وهكذا فإن بعض القضايا التاريخية فالنظر فيها قد يختلف على حسب العصور التي تطرأ وتقع فيها فما كان ملائما في زمان ما لا يكون ملائما في زمان آخر فلكل زمان أقضية تحدث فيه خاصة به، وقد أشرنا فيما مضى إلى شيء في هذا المعنى عند الحديث عن الزوايا وشيوخها في القبائل الكبرى وقلنا أنهم في ذلك العصر بالخصوص قد نفعوا وأحسنوا بتعليمهم

وتوسطهم لإصلاح ذات البين بحسم الخلاف والخصام وتوطيد الوئام والوفاق بين أهالي المداشر.

ومما يجب التنبيه عليه أن الاسبان لقبوا خير الدين باربروشة وهما كلمتان معناهما لحية شقراء، ولقب خير الدين بهذا اللقب لآن لحيته كانت شقراء (أي حمراء)، وهذا ما ورد في كتاب غزوات عروج وخير الدين حيث قال مايلي: ولقبوه بلسانهم الرومي باربروشة بحيث أنهم صاروا يخوفون به صبيانهم اهـ - ويقول بعض مؤرخي الافرنج إن هذا اللقب هو تحريف اسم أخي خير الدين يعني بابا عروج في لسان الأوروبيين، والحق الذي لا مراء فيه أن لقب خير الدين غير أنه مع طول الزمان أطلق أيضا على بابا عروج ووقع على سبيل المصادفة أن بابروشة فيه نوع شبه من جهة النطق والصوت مع بابا عروج.

وفي سنة 1534م940هـ عين السلطان العثماني "سليمان القانوني" خير الدين قابودان باشا أي أمير البحر فتولى قيادة جميع الأسطول التركي، ووقع اختياره عليه لما يعرف من شجاعته وإقدامه وكثرة غزواته وما فتحه من بلدان الجزائر وكيف قرر دعوة بني عثمان بالغرب حسب ما جاء في كتاب الغزوات، (والدعوة هي الامارة والولاية والاعتراف بالسطوة والامتثال والطاعة للأوامر، وجعل في مكانه عند ارتحاله من الجزائر حسن آغا، وكان أخذه قرصان الجزائر وهو ولد صغير بينما كان يرعى الغنم في بعض سواحل جزيرة سردانية الايطالية وتربى في دار الامارة بالجزائر عند خير الدين، وكان سعيه مشكورا وكان مثال العدل

والانصاف والعزم والشجاعة مع الدراية والتبصر في شؤون التصرف والادارة.

وآخرا فماذا نقول في خير الدين وهو ذلك الرجل العظيم صاحب الهمم العالية والنظريات الصائبة العميقة الرجل الذي أتم ما بدأ به أخوه بابا عروج فوسع خير الدين مملكته بفتح المدن الكثيرة لأنه رأى أنه من الواجب لانتعاش عاصمة الجزائر أن تكون الفحوص والأرياف وأكثر مايمكن من البلدان تحت نظر الحكومة المركزية ورعايتها، وبعد انصرافه إلى الآستانة فانه خلف حكومة منظمة وعلى رأسها حسن آغا.

وهو الرئيس الكفء الذي ثبت في وجه القيصر شارل كان عند هجومه على مدينة الجزائر في شهر اكتوبر من سنة 1541م و948هـ، وقد كان خير الدين أكبر أمراء البحر قاطبة في القرن السادس عشر الميلادي والعاشر الهجري أو في الأقل هو من أكبرهم بشهادة من ألفوا في تاريخ الملاحة البحرية.

نظـــام حـــكـــومـــة الجـــزائـــر

كانت الجزائر في أول عهد الأتراك تحت سلطة حاكم يسمى بايلار باي أي باي البايات، وكان له التصرف المطلق التام بالمملكة الجزائرية وما يليها شرقا من ولاية تونس وولاية طرابلس، ثم انحصرت سلطته على قطر الجزائر فقط فخرجت تونس وطرابلس من تحت نظره -(وجمع بايلار باي هو بايلاربايات).

والبايلار باي باللغة التركية هو أمير الأمراء باللغة العربية وهو لقب يمنحه سلطان الدولة العثمانية لأمير مع كسوة شرف وتعظيم تسمى قفطان (بضم القاف وبفتحها وسكون الفاء) وجمعه قفاطن، وتحول لقب حاكم الجزائر وتبدل على حسب العصور من بايلار باي إلى باشا ثم آغا ثم داي،

حكم الباشا (أي ادارته وتصرفه) يسمى باشالق (بكسر اللام وسكون القاف) ويقوقون أيضا باشالك (بالكاف في الآخر)- وحكم الباي يسمى بايلـك (بسكون الياء وفتح اللام وسكون الكاف)، وجمع باشالك هـو باشالكات.

وحاكم الجزائر كان من جهة رئيس دولة عسكرية حرة مستقلة وبالخصوص في داخليتها ومن جهة أخرى فالجزائر كانت ولاية لها ارتباط وعلاقات بالدولة العثمانية وحاكمها هو والي جزائر الغرب.

وقد يضيفون لكلمة "داي" كلمة "باشا" فيقولون مثلا: الداي محمد عثمان باشا، وكلمة الدولاتلي (أي صاحب الدولة) لقب تشريف وتعظيم لولاة الجزائر بمعنى الملك أو السلطان.

النظام الحكومي لدولة الجزائر

كان للحكومة الجزائرية مجلسان: مجلس الشورى ومجلس الديوان.

- مجلس الشورى وكان يتألف "يتركب" من أربعة أعضاء وهم:

1- وكيل الحرج وهو المتصرف في جميع شؤون الدولة العسكرية والمدنية برا وبحرا.

2 - خوجة الخيل وهو بمنزلة وزير الحربية وله التصرف في أملاك الدولة.

3 - الخزنادار ويسمى أيضا الخزناجي هو وزير المالية.

4 - الأغا وهو القائد العام للقوات المسلحة البرية.

- مجلس الديوان وكان ينعقد ثلاث مرات خارج القصر ومرة واحدة بالقصر وكان يتألف من عدة أعضاء وهم:

1 - الخليفة وهو نائب رئيس الدولة.

2 - الدفتر دار وهو رئيس ديوان الانشاء أي كاتب الدولة العام.

والكتابة حينذاك باللسان التركي وهو اللغة الرسمية وباللسان العربي لأنه لسان الدين ولغة أغلب أهل الوطن وأكثرهم. "ودار كلمة فارسية زيدت في الآخر ومعناها الماسك والحامل".

3 - الباش سيار وهو مدير البريد "البوسطة". والسيار هو حامل الرسائل والأوامر ليوصلها لأصحابها. ولم يكن البريد للعموم بل لمصالح الدولة فقط.

4 - القبودان رئيس وهو أمير البحر. والقبودان "بفتح القاف وضم الباء" معناه القبطان.

5 - الترجمان.

6 – شاوش الكرسي. وهو الواسطة بين الداي وأكابر الموظفين.
7– بيت المالجي وهو المكلف بمواريث جميع من يموتون من غير وارث.

وهناك مجالس أخرى أقل من المجلسين السابق ذكرهما تأثيرا على سير حركة سياسة البلاد كمجلس الكراسي (بفتح السين وجمع كرسي) وينظر في بعض الشؤون ويضاف إليه رؤساء الين كمفتي الحنفية ومفتي المالكية وغيرهما ومجلس طائفة الرياس (بضم الراء وتشديد الياء والمفرد رايس بفتح الياء) وينظر فيما يتعلق بأمور القرصنة وقد كان له شيء كثير من النفوذ في بعض الأزمنة من تاريخ الدولة التركية الجزائرية بسبب الغنائم المجلوبة إلى مدينة الجزائر وكان يستفيد منها خزينة الدولة وأناس كثيرون –والرايس قائد السفينة الحربية.

وقد كان لهذه الدولة موظفون كثيرون وكلهم من العنصر التركي ولم يكن حظ لغيرهم في مباشرة الحكم وتسيير سياسة البلاد، والمفهوم من ذلك أن الأتراك لما كانوا هم الأقلية في سكان البلاد فإنهم كانوا على حذر من انفلات السلطة من أيديهم فيظهر أن هذه السياسة كانت تعتمد على التحذر والتيقظ لا لرغبة في الميل إلى مجرد العنصرية ولهذا نجد فيما بين رياس البحر أفرادا كثيرين من غير العنصر التركي ولم يكن لهم مدخل في سياسة الدولة، والغرض في ذلك معقول فلطالما كان الرياس يأتون بالغنائم التي يظفرون بها في البحر فكانت زمانا طويلا موردا من موارد الثروة فلا لزوم اذن أن يكونوا أتراكا، ولا نعيد الحديث عن القرصنة إذ انه مر القول عنها بالتفصيل.

وكانت الخزينة موجودة بقصر الحكومة في دهاليز تحت الأرض

وبابها ينفتح في صحن الدار حيث يجتمع الديوان وعلى بابها عسس ستة عشر جنديا والخزناجي وحده يدخل إليها لوضع المال أو اخراجه عند الحاجة إليه لتكون المسؤولية على واحد فقط، والمفتاح دائما عند الداي ويسلمه إلى الخزناجي الذي يرده إليه بعد قضاء مآربه، ويعين الخزناجي موظفون يعدون النقود الداخلة للخزينة أو الخارجة منها، وكل واحد منهم يسمى "صايجى" بسكون الياء.

ومن المعلوم وبشهادة من كتبوا عن دولة الجزائر أن خزينتها كانت هي الوحيدة أوكانت تكاد تكون هي الوحيدة في ذلك العصر عامرة من المال علاوة على ما يوضع فيها ويدخر من المصنوعات النفيسة كالسيوف المذهبة والبنادق (المكاحل) المرصعة والحلي (المصوغ) والجواهر واليواقيت والمواعين من الذهب والفضة، وليس هذا التعداد باستقصائي،

والحق يقال أن الأحوال ساعدتها على تنميتها، وهذا الأمر لا يمكن أن يتيسر في جميع الأوقات فما كان سهلا ميسورا في عصر من العصور قد يكون في عصر آخر من الصعب المتعسر بمكان - ولا بد من التنبيه هنا بأن خزينة الدولة كادت لاتصرف ولا تنفق شيئا في مصالح الأهالي.

ومما اختصت به هذه الدولة أنه كان لايسوغ للداي ولا يجوز أن يتزوج فإن فعل وقلما يفعل أسكن زوجته خارج دار الإمارة- وعلى كل حال فهذا الأمر نادر قليل الوقوع، وهذا القانون يرتكز على أن الداي يعتبر أبا لجميع الجنود فلا يحق له أن يكون أبا لأولاد آخرين، وأيضا كانوا يخشون من أن ينفق من مال الدولة ومواردها على عائلته مع أن له مرتبا وكمية معينة من الخبز والمواد الغذائية تدفع إليه زيادة على الهدايا التي

ترد إليه في أوقات محصورة من السنة.

والخزناجي كان بمنزلة رئيس الوزراء - وآشجي باشي أوعشجي باشي هو رئيس الطهاة أي الطباخين- آتشي (بسكون التاء) وعشجي (بفتح العين وسكون الشين) معناهما الطاهي أي الطباخ- وكانت وظيفته معتبرة فيها مسؤولة كبرى ولذا كان الدايات يتخذون لهذه الوظيفة (باش طباخ) من يثقون به الثقة التامة - وباشي معناه رئيس-.

وكان الداي يسكن في الطابق الأعلى من دار الإمارة وكانوا يسمونها أيضا دار السلطان، وهذا الطابق يطلق عليه اسم السرايا أو السراية بمعنى القصر في اللغة الفارسية.

ومن جملة الموظفين: خوجة الباب المكلف بفتح أبواب القصر وإغلاقها ولايغيب طرفة عين عن وظيفته والقصر تحرسه نوبة أي جماعة من الجند.

والمحل الذي ينعقد فيه مجلس الوزراء برئاسة الداي يسمى المحكمة، وللخزناجي أربعة من الكتاب رئيسهم الباش دفتر، والكاتب يسمى المقاطعجي (بسكون الميم وفتح الطاء وسكون العين).

وكاتب الداي الخاص به يسمى خوجة السر وهو الذي يقرأ الرسائل الواردة على الداي ويجيب عليها بأمره وبعد مشاورته.

وآغا الصبايحية هو قائد الفرسان ويترأس الحركات أي الحملات التي تخرج أحيانا إلى بعض الجهات، والصباحية جمع صبايحي وهو الفارس.

وأمين السكة وهو المكلف بضرب العملة والناظر على صنعها.

والخواجات كثيرون: خوجة مخازن الزرع، وخوجة الرحبة أي سوق القمح والشعير وغيرهما، وخوجة الملح والدولة هي التي وحدها كانت

تبيعه، وخوجة الجلد ومفاتيح فندق الجلود كانت بيده، وخوجة القمرق وإليه تدفع حقوق الديوانة على البضائع التي تصل إلى المرسى من الدول الإسلامية وأما التي ترد من الدول الأخرى فيدفع ما يجب عليها في قصر الحكومة بحضور الخزناجي وخوجة الوزن، وخوجة الغنائم وتقسم أمامه فيأخذ البايلك حقه منها ويطرح مبلغ المصاريف والباقي يوزع بين المستحقين على مقدار معلوم، وخوجة القمح وكان يقيم في سوق الفحم خارج باب عزون ويقبض هناك ما يجب قبل دخول أصحاب الفحم إلى المدينة، وقائد المرسى هو المكلف بمراقبة المراكب التي تخرج وترد وله تحت نظره الورديان باشي يعينه في عمله، ويسكن هذا القائد بالمرسى ويختار دائما من الرياس ذوي الخبرة بشؤون البحر، والمزوار هوالمكلف بحراسة المدينة ليلا ونهارا والاحباس تحت رعايته ويراقب أهل الدعارة وما يتعلق بالبغاء وبنات الهوى -وكانوا يسمون الحبس زندانة وهي كلمة تركية- وللمزوار أعوان من الحرس منهم السركاجي، وقائد الفحص المكلف بحراسة ضواحي مدينة الجزائر، والمحتسب يراقب أسواق الفاكهة والخضر ودكاكين (حوانيت) الخبازين ولا يغفل عن الأسعار المحددة والوفاء في الكيل والوزن كي لا يزيد التجار في الأثمان من عند أنفسهم.

ولجميع هؤلاء الموظفين أعوان يشاركونهم في مأمورياتهم.

وكان لطوائف الناس أمناء فلطائفة أهل الأغواط أمين يتفقد أحوالهم وهو المسؤول عنهم ولبلاد القبائل الكبرى (زواوة) أمين ولأهل جيجل أمين الخ - وكذا لأصحاب الصنائع والحرف أمناء كالبنائين والنجارين والخياطين والعطارين والحصارين وصيادي البحر الخ- وبقي

ذكر أمناء آخرين كثيرين.

وسمعنا منذ سنين عديدة من أحد الأصدقاء عاش أبواه في المدة الآخرة من العهد التركي أن أمين اليهود كان يسمى المقدام (بفتح الميم وسكون القاف) أي المقدم، ولم يذكر أحد هذه الكلمة فيما نعرف.

وجميع الموظفين من أعلى الدرجة إلى أدناها لهم مرتب واحد لايزيد أحدهم على غيره في الجراية وإنما الفرق بينهم في الهدية أو الهدايا التي ينالها ويتقاضاها كل فرد منهم فيكون مقدارها على حسب مقامه في النظام الحكومي ومنزلته.

وهذه الهدايا كانت تسمى العوائد - وكان للداي كاتبان من العرب يقومان بتحرير الرسائل للبايات والقياد وباي تونس وباي طرابلس وسلطان المغرب (وننبه أن في اصطلاح عصرنا إذا قلنا الغرب المراد به دول أوروبا وفي شأن المغرب الأقصى نقول أيضا المغرب)، وإذا قلنا المغرب العربي فالمقصود شمال (بفتح الشين) افريقية أوافريقية الشمالية، ويرسمون (يكتبون) افريقية بالتاء وأيضا افريقيا بالألف- والكتاب الأتراك وهم أربعة يكتبون للباب العالي والدول الأجنبية باللغة التركية لأنها هي اللغة الرسمية لدولة الجزائر حينذاك.

نظام الجند، يعبر عن نظام الجند بالوجاق "بضم الواو" ويرسم أيضا "أوجاق" "بضم الهمزة"، وأصل معناهما الموقد "بفتح الميم وسكون الواو وكسر القاف" وهوموضع وقود النار واشتعالها ثم استعملا بمعنى البيت الذي يسكن فيه اليولداش ويطلقان على من يسكن فيه وعلى طائفة الجند وهم الانكشايرية -وهذا البيت يسمى اوضة "بضم الهمزة" وهي باللغة

التركية اوده بضم الهمزة وفتح الدال المهملة وسكون الهاء بمعنى الحجرة أي البيت"-ورئيس الاوضة يسمى اوضا باشي- ورئيس فرقة من الجند يسمى بولوكباشي "بضم الباء واللام وسكون الكاف" وبولوك "بسكون الكاف" كلمة تركية معناها الجماعة والفرقة من الجند أي الجيش- والآغا باشي والكاهية "أي نائبه" هما أعلى درجة في الجند.

وكان للأنكشايرية سبع ثكنات "قشلاث" أي محل سكنى الجند، بمدينة الجزائر:

- قشلة متاع الخضارين القديمة الفوقانية بالنهج المسمى ميدي.
- قشلة متاع الخضارين الجديدة السفلانية أو التحتانية بالنسبة إلى التي بنيت أعلاها - ومن هاتين الثكنتين جعلوا منذ زمان ناديا عسكريا- واطلق عليهما جميعا اسم دار الكشايرية بقرب المسرح البلدي (أوبيرا).
- قشلة موسى باسم هذا البناء الأندلسي الذي أقام بها مدة ثم سميت فيما بعد بقشلة باب الدزيرة لقربها منه.
- قشلة باب الدروج بازاء قشلة موسى.
- قشلة باب عزون (بفتح العين وتشديد الزاي مع ضمها)، وهدمت لانشاء شارع الجمهورية.
- قشلة متاع المقريين، وأصل هذه الكلمة المقرئين أي المثقفين لأنها كانت في حارة يسكنها الموظفون وأهل العلم، وقد تصحف اسمها إلى ماقارون- وكانت بقرب الجامع الأعظم، وبقي من هذه الثكنات دار الكشايرية.

وقد بنى الميرميران (بكسر الميم الأولى والثانية بمعنى الأمير والرئيس والحاكم) والي الجزائر عبدي باشا سنة 1138هـ1726م مسجدا جامعا بحومة "حارة" قاع السور أي في أسفل سور المدينة ومنتهاه حيث يصل إلى البحر، وتصحف قاع السور إلى كاسور، وأضيف إلى هذا المسجد مدرسة، وكلاهما هدما لإنشاء شارع الجمهورية.

وكانت الدولة الجزائرية لا تلزم الرعية بالانخراط في سلك الجند، وكان الجند مأجورا من نفقات الحكومة العامة، وهؤلاء الانكشايرة بمنزلة اللفيف الأجنبي في عصرنا الحاضر، ولفيف المرتزقة "المأجورين" من منشآت أقدم العصور-والضابط التركي الأعلى للجند يسمى آغا العسكر فكان هو المتصرف المطلق فيه، والعجيب أن نفوذه كان لا يزيد عن شهرين ثم يتخلى عن وظيفته ويخلفه آخر، ولهذا السبب كان يسميه الافرنج آغا الهلالين "أي القمرين" فكان يعتبر من أعلى الموظفين، وآغا الصبايحية أي الفرسان أقل درجة منه، وهؤلاء الفرسان كانوا من العرب لأن الانكشايرية كانوا في الأغلب الساحق مشاة- ويسمى هذا الآغا المتقاعد بآغا منزول.

والانكشايرية ينقسمون إلى أوجاقات أي حجرات "بيوت" وكل حجرة لها رقم وفيها عدد من اليولداش -والنوبة هي الحامية التي يرسلونها إلى بعض المدن لحراستها وحراسة نواحيها، والتسمية بالنوبة تدل على أنها تقيم مدة وكانت سنة ثم تخلفها نوبة أي جماعة أخرى وبعد رجوعها إلى عاصمة الجزائر فإنها تنال سنة من الراحة- والنوبة تشتمل على عدة سفرات جمع سفرة أي مائدة يجتمع حولها اليولداش وقت الطعام، وتتألف

السفرة من أحد عشر إلى ستة عشر جنديا - والمحلة تشتمل على عدد من الأخبية جمع خباء أي خيمة وفيها نحو الخمسة عشر جنديا- وكان الطبخ يتولاه الجند بنفسه لنفسه.

وكان عدد الجنود قليلا بالنسبة إلى مساحة البلاد وسعتها و لكن دولة الجزائر وجدت مسلكا ناجحا لسد هذه الثلمة فكونت فرقة من زواوة - وهم كما هو معلوم- من جبال جرجرة يتقاضى كل واحد منهم رزقا أي أجرة على خدمته كما انها اتخذت جماعات من الزنوج أي السود وهم الذين عرفوا بالعبيد واسكنوا منهم فرقا بناحية تيزي وزو عند ملتقى واد عيسى وواد سباو، واقطعوهم أرض شاملال الخصبة لحرثها وغرسها لانتاج الحبوب والخضر والفواكه ليزودوا الحامية التركية بتلك الأنحاء وكانوا يسمونهم بعبيد شاملال، - واتخذوا أيضا الدوائر وهم فرسان من العرب "خيالة بتشديد الياء" والمفرد دايرة- والزمول جمع زمالة ويسكنونهم ويعطونهم الخيل والسلاح وهم يعسون، وكل زمالة لها قائد متولى من قبل الآغا، وإذا ركب الآغا إلى موضع ركبوا معه ولا يدفعون شيئا من الضرائب إلا العشور أي زكاة الحبوب - والمخازنية جمع مخازني وهو الفارس في خدمة الإدارة- وكانت الدولة التركية تفرض على سكان بعض الأنحاء أن يمدوها بالجنود عند الاقتضاء والحاجة إليهم، وهؤلاء الجنود يسمون القوم "بالقاف المعقودة"،

وكان عدد جنود الانكشايرية لايزيد عن الألف ثم تكاثر مع مرور الزمان إلى أن بلغ خمسة عشر ألف جندي.

الأسطول الجزائري-لم تكن الحكومة الجزائرية بكثيرة الاهتمام

بالقوات البرية لأن حدودها في الجهة الغربية والجهة الشرقي لم يكن عليها في الجملة كبير خطر كما كان ذلك متوقعا في ثغورها البحرية من هجومات الأجانب على سواحلها، وأكبر هجوم وقع على مدينة الجزائر هو حصارها من طرف القيصر شارل كان مع حضوره بنفسه في شهر أكتوبر سنة1541م كما سيأتي القول عنه، وأما الجنوب فكانت الصحراء الكبرى تحمية حيث يكاد الماء لايوجد بل رمال مترامية الأطراف وقفار قاحلة، وكان من الصعب اختراقها إذ لاسيارات ولا طيارات في تلك الأزمنة.

وقد لعبت الملاحة الجزائرية دورا من أهم الأدوار في التاريخ مدة مايزيد على ثلاثة قرون فألحقت خسائر عظيمة بالملاحة الأوروبية، وكانت بمرسى الجزائر دار صناعه لإنشاء المراكب يعمل فيها جزائريون وعدة أوروبيين، والخشب كان يجلب من غابات جبال بجاية وغيرها، وكانوا يستوردون جهاز المراكب من أوروبا، وربما حولوا بعض المراكب التجارية إلى مراكب حربية إذا رأوا فيها صلاحية لهذا التحويل -وقلما يعطون اسما للمراكب الحربية كالنصر والانتصار والغزال لأنه كان من عادتهم أن يسمى المركب باسم رئيسه، ومجلس طائفة الرياس هو الذي كان يعين ويختار الرئيس ممن يعرفون في الدراية بشؤون الملاحة والمهارة والشجاعة، وأقدم الرياس كان يتولى وظيفة قبطان وهو أمير البحر، فكانوا يعطون قيمة كبيرة للذي عاش زمانا طويلا وجرب أمور الحياة وشاهد المعارك وقاسى شدائد البحر وأهواله- ومحل سكنى القبطان كان بدار امارة البحر بمرسى الجزائر الدار التي زالت موجودة إلى هذه الأيام.

والأسطول التركي كان له نظام من أجود ما يكون وبلغ في عدده

وعدد جهازه إلى حد بعيد في ذلك العصر، وبلغت وحداته إلى عدة عشرات من القطع المختلفة الأشكال المجهزة بالمدافع والرجال وعتاد الحرب. وكل المراكب تسير بالشراع (بكسر الشين ما نسميه القلاع) وبالمجاديف بأيدي عدد كبير من الاسارى (بضم الهمزة جمع أسير) وقوله: في عدده وعدده: العدد (بضم العين وفتح الدال بعدها جمع عدة (بضم العين وتشديد الدال) ما أعد وهيىء من مؤونة أو سلاح أوغير ذلك والعتاد بفتح العين في معنى العدة.

والعدد (بفتح الحرف الأول والحرف الثاني والجمع أعداد - والمجاديف جمع مجداف (بكسر الميم وسكون الجيم) بالدال المهملة أوبالدال المعجمة وهو خشبة يضرب بها في الماء لتسيير المركب، والرجال الذين يجذفون يسمون بالكراكجية (بتشديد الراء والياء) والمفرد كراكجي وهي كلمة تركية ، وعملهم بضرب المقاذيف (جمع مقذاف وهوالمجذاف) يسمى كراكة بفتح الكاف وبتشديد الراء- ولم تزل كلمة كراكة مستعملة في لغتنا الدارجة بمعنى العمل الشاق المتعب.

وأشهر الرياس في القرن الحادي عشر الهجري والسابع عشر الميلادي هو علي بشنين الذي بنى من ماله الخاص المسجد الجامع المسمى باسمه ولازال موجودا بنهج باب الواد بعاصمتنا، وكان هذا التشييد حوالي سنة 1032هـ-1622م وكان من أصل ايطالي واسمه يدل عليه وانتحل الإسلام وانخرط في طائفة الرياس بالجزائر ونال صيتا كبيرا ومالا جزيلا وكان حاذقا ذكيا ماهرا في شؤون الملاحة صاحب مغامرات وإقدام، واقتدى به ابنه شلبي فكان رئيسا مذكورا، ونورد هنا على سبيل الاستطراد ما يلي:

في شهر ديسمبر1940 وجدوا أثناء هدم الدور العتيقة التي كانت بنهج دولاشارط في حومة (حارة) باب الدزيرة في عمق نحو الستة ميترات تحت الأرض شاهدين من الرخام الأبيض الناصع مكتوب على شاهد الرأس في جيهة منه: هذا قبر المرحومة خديجة بنت علي شلبي المتوفاة في جمادي الأولى سنة 993هـ (أفريل سنة 1586م) وفي قفا نفس هذا الشاهد: هذا قبر المرحومة فاطمة بنت علي شلبي المتوفاة في أول جمادى الأولى سنة 1048هـ (13سبتمبر1638م)، والظاهر أنهما أختان توفيت الأولى في عنفوان الشباب، والدار التي كان في دهليزها هذا القبر اتخذوها وقت الاستعمار مجلسا لعمالة الجزائر مدة طويلة، وكانت هذه الدار فاخرة متقنة البناء كان فيها زليج نفيس استعملوا كثيرا منه في دار العمالة الجديدة بالجزائر، وكان في صحن هذه الدار شبابيك نحاس مزخرفة بديعة الصنع وغالب أبوابها كان يحيط بها رخام منقوش نقشا متقنا وكانت تدعى دار الغولة وكذا المسيد الملاصق لها، وكان هذا النهج دولاشارط يسمى في العصر التركي نهج الحمام الصغير وأيضا مسيد الغولة (والمسيد هو المدرسة القرآنية في لغتنا الدارجة)، وهذه التسمية بالغولة لزعم الناس أنه كان يتراءى أحيانا في بعض الجهات منها ما يسمى بالرواحن في لغتنا الدارجة جمع روحاني و روحانية، ولعل هذه الدار كانت ملكا للرايس علي بشنين بناها في حارة كانت سكنى المثرين طيلة العصر التركي، وربما كانت لابنه شلبي، ولا نعرف تاريخ وفاة علي بشنين بالدقة ومن المظنون أنها كانت في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري وأواخر النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي حوالي سنة 1647-

واذا كنا في صدد القول عن علي بشنين فاننا نلاحظ أن رياس البحر الذين هم من أصل غير مسلم ثم انتحلوا الإسلام وكانوا عونا لمواطنيهم صادقين في خدماتهم وأشغالهم اتخذوا اسما جديدا وضربوا صفحا عن اسمهم الأول إلا أقل قليل منهم كعلي بشنين واصل في هذا الاسم: بتشينيني ومعناه الصغير.

وكانوا يلقبون من يملكون مراكب للمعاملات التجارية وللغنائم وللرد عن هجومات المتوثبين المغيرين على السواحل بلقب التاجر، وقد كان من يساهمون في الشركة في هذه المراكب كما أنه كان لبعض الناس غلياطة أو أكثر يعمل بها ملاحون (بحارون)، وقد مر آنفا ذكر الست زهرة باي التي يقول عنها ابن المفتي أنه كان لها غلياطتان ورثتهما من أبيها وزوجها وكان لها ورديان باشي وكيل عليها.

ومن أشهر الرياس ولكنه عاش في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي الرايس حميدو بن علي (وحميدو بفتح الحاء وكسر الميم وتشديد الدال مع ضمها) وكان من حضر الجزائر، جعله أبوه عند خيط ليتعلم حرفته ولكن الولد كان ذا طموح فكان يتغيب من الدكان ويذهب ليستمع أقاصيص الرؤساء المتقاعدين عن العمل وأهل الخبرة بشؤون البحر فيجول فكره في كل ما يسمع من أحوال القراصين وأهوال البحر وزوابعه التي يقاسونها ويتمنى ان يكون من عدادهم، فسعى في أن يكون بحريا وانخرط في سلك الملاحين وطفق يتعلم حرفته الجديدة واجتهد فيها وما لبث ان يترقى على أن صار رئيس مركب بفضل ما أظهره من الحذق والمهارة والشجاعة ففاز بالغنائم الكثيرة المتوالية ضد المراكب لعدة دول

أوروبية في هذا البحر انستوسط إلى أن كان في سنة 1815م فتراىء لــه من بعيد جملة مراكب حربية أميريكية فرغب منه مساعده في الرئاسة أن ينفلتوا من هذا الأسطول العدو فلم يرض الرايس حميدو برأي مساعده وقال أنه من العار أن يفر وطلب منه - ان قدر الله عليه بالوفاة - أن ترمى جثته في البحر فكان الأمر كما ظن وحدس فأول كرة أطلقت على مركبهم أصابته فكان بها حتفه، وكان هذا الحادث في 16جوان سنة 1815بـازاء رأس قاطا (بالقاف المعقودة) شرقي مرسى المرية الاسبانية في هذا البحر المتوسط، وكان ذلك في أيام الداي عمر باشا.

النظام القضائي

كان بالعاصمة قاضيان حنفي ومالكي ولم يكن قبل الدولة التركية إلاقاضي المالكية وكان المذهب الحنفي هو مذهب الدولة، ولكل قاض عدة عدول - والمجلس الشرعي يتألف من القاضيين والمفتيين الحنفي والمالكي، وهذا المجلس ترفع لديه النوازل والمشاكل العويصة والمنازعات الصعبة، وهو الذي يراجع أحكام قضاة الآفاق وينظرون فيها فكان بمنزلة محكمة الاستئناف، ومقر انعقاده بمدينة الجزائر الجامع الكبير، وقد يحضر فيه صاحب الجزائر بنفسه في بعض الأحيان، وإذا كان الخصوم من المسلمين فإنهم يدخلون المسجد وإن كان فيهم من النصارى واليهود فإن أعضاء المجلس يخرجون إلى صحن بجانب الجامع ويحضر أمامهم الخصوم.

وكان قاضي الحنفية يمضي الرسوم والأحكام بالمداد الأسود وقاضي المالكية يمضيها بالمداد الأحمر، ولعل ذلك للتمييز في أول نظرة بين ما صدر من المحكمة الحنفية أو المحكمة المالكية.

وكان للجند خاصة بهم لا يحضرها أجنبي عن العسكر وطائفة الانكشايرية وقع تنظيمها بعد ارتباط دولة الجزائر الفتية بالإمبراطورية العثمانية-كما مر آنفا-بسعي خير الدين فكان الانكشايرية حامية شخصية لوالي الجزائر وجيشا نظاميا ترسل فرق منه لحراسة بلدان بداخل القطر،

ويلقب أحيانا حاكم الجزائر بلقب الملك لأنه كان رئيسا مطلق التصرف مرتبطا بدولة الخلافة - وكانت حينذاك دولة آل عثمان- ارتباطا بالاسم وببعض المصالح المتبادلة، وكانت راية الجزائر حمراء ليس عليها نجم

ولا هلال كما للعثمانيين إشارة إلى هذا المعنى، وبقي نظام الحكم التركي بالجزائر حسبما وضعه الاخوان عروج وخير الدين والولاة الذين تعاقبوا بعدهما مقصورا على الأتراك وحدهم لا يشاركهم فيه أحد من أبناء البلاد الجزائرية إلى أن زال وانقضى فكان الأهالي معتنين بصناعاتهم وحرفهم وتجارتهم في البر والبحر وبالزراعة والغرس ودراسة العلوم بأنواعها ولا شأن لهم في غير ذلك.

ونظام الجندية كانوا يعبرون عنه بالوجاق وهو أعظم ما تعتمد عليه الحكومة لتوطيد الأمن ونشر نفوذها، وكانت ترسل الامحال إلى المداشر لقبض الضرائب، والامحال (بفتح الهمزة وسكون الميم وتشديد اللام) جمع مستعمل في لغتنا الدارجة ومفرده محلة(بتشديد اللام) وهي طائفة من العسكر – من الأربعمائة إلى الألف – وكانوا يرسلون المحلة إلى بعض الأنحاء عند الحاجة لاعادة الهدنة والهدوء، وفي الحقيقة لم يكن عدد الجند "أقل من الأربعة آلاف في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي" كافيا لحراسة البلاد لولا رضى الأهالي بالسلطة التركية لرابطة الدين والخلافة، وقد سبق أن دولة الجزائر اتخذت قوات متنوعة من أهل الوطن بترتيب خاص لكل فريق منها فكل ذلك حفظ لها الأمن العام بصفة اجمالية مدة قيامها بالأمر بهذا القطر.

ولما قوي شأن الانكشايرية صارت كلمة وجاق أو أوجاق تطلق على حكومة الجزائر، وأولع الافرنج باستعمالها في هذا المعنى.

الحياة الادارية بالجزائر كانت حياة جد وعمل شاق متوال كل أحد من الموظفين مع كثرتهم وأنواعهم واختلاف طبقاتهم ومراتبهم من الداي

إلى اليولداش قائم بعمله أحسن قيام بلا توان ولا فتور ولا ملل بحيث أن المرض الخفيف لا يمنع صاحبه من متابعة ما كلف به من دون أن يحشر أنفه فيما لا يعنيه، ومن الصبح الباكر إلى العصر كلهم في شغل شاغل، والحاصل أن هذه الدولة كان لها نظام عجيب وأمرها مطاع وموظفوها مع وفرة عددهم كانوا قائمين بواجباتهم بحرص واجتهاد شاعرين بمسؤوليتهم لايعرفون معنى لضياع الوقت بل كان اعتناؤهم شديدا فكانت النساء قد يأتين ملتحفات متقنعات لدى أكابر الحكام لعرض شكواهن والتوصل إلى حقهن- والكتاب الافرنج الذين عاشوا مدة بالجزائر واقاموا بها مثل المستشرق فانتوردي بارادي الذي مكث بعاصمتنا ثلاث سنوات من سنة 1788 إلى سنة 1790م على عهد الداي محمد عثمان باشا وكتب عنها يشهد بكل ذلك، وقد تعرف بهذا المستشرق المؤرخ المصري عبد الرحمان الجبرتي "بفتح الجيم والباء وسكون الراء" وتحدث عنه في كتابه عجائب الآثار في التراجم والأخبار واثنى عليه الثناء الجزيل فهذه هي الجزائر في سالف الأيام فينبغي أن تكون عبرة لمن اعتبر وأسوة من أعز ما يطلب ويرغب.

ويوم الجمعة يتعطل الاشتغال في الحوانيت الدولية والمفرد حانوت بمعنى مكتب وكان يوم الثلاثاء هو يوم الراحة لسائر الناس، وكان كثير من الأهالي يملكون الدور التي هي كالقصور في اتقان البناء وزخرفته وحصانته في فحص الجزائر وكانت تسمى بالابراج، ومن المعلوم أن كلمة برج لها عدة معان، وكانوا يستحسنون الاصطياف في بعض الأنحاء القريبة من العاصمة: زغارة وبوزريعة وعيون السخاخنة "واد قريش والجهة السفلى

منه تسمى واد المغاسل لوجود حياض ماء يغسل فيها أناس كثيرون ثيابهم" والأبيار وحيدرة، وكنت ترى موظفين وأعيانا من البلد في الربيع والصيف راكبين البغال يسوقها العبيد في غالب الأحيان ((والمغاسل جمع مغسل بكسر السين وفتحها بمعنى الصهريج أي الحوض))،

وكانت المحلة المتنقلة داخل البلاد تجد أماكن معدة للراحة ليس فيه بناء في الغالب ولكن بحذائها خيام لعرب المخزن الموكلين بحراسة السيارين الحاملين لرسائل الدولة، وهذه المواضع المعدة للراحة تسمى القناقات والمفرد قناق وهي كلمة تركية.

وكان تصرف الداي مباشرة على مدينة الجزائر وضواحيها فكانت هي منطقة الجزائر الحرة المستقلة.

القطر الجزائري كان يشتمل على ثلاثة بايلكات:

1 – بايلك الغرب، وكان مقر الباي أولا ببلدة مازونة في جبال الظهرة شمال واد شلف بين تنس ومستغانم بالقطاع الوهراني ثم انتقل بايلك الغرب إلى مدينة معسكر وآخر إلى وهران سنة 1206هـ1791م بعد افتكاكها بصفة نهائية من يد الاسبان يسعى الباي محمد الكبير.

2 – بايلك تيطري ومقر الباي بلدة المدية واسمها القديم لمدية (بفتح اللام وتسكين الميم وكسر الدال) وهو قبيلة.

3 – بايلك الشرق ومقر الباي مدينة قسنطينة التي احتلها الأتراك بصفة نهائية سنة 962 هـ1555م – وكان الأتراك قد نزلوا بها منذ زمان قبل ذلك حوالي سنة 941 هـ–1535م ثم خرجوا منها.

4 – قائد سباو– بنى الأتراك برج سباو وهو نهر في بلاد القبائل الكبرى

وجعلوا هناك قائدا ولم يسموه بايا.

ولكل هؤلاء البايات نظام داخلي خاص وتراتيب، ولهم أعوان من "قياد" وشيوخ، والداي هو الذي يعين البايات "ويسميهم" ويعزلهم ويبدل هذا بذاك، والبايا في طاعة الحكومة المركزية بالعاصمة وامتثال أمرها مع أن الباي له تصرف واسع في عمالته - والبايات وقائد سباو يدفعون الدنوش والهدايا من حيوانات ومواد غذائية متنوعة كالعسل والسمن والزيت وسلاح وأكسية وغير ذلك مما يطول تعداده على حسب عنى عمالتهم ومحصولاتها.

وكانت عدة عشائر لها تصرف داخلي شبه الاستقلال ولكل منها رئيس: قائد أو شيخ، والحكومة المركزية كانت مكتفية بما تمده لهم من المال والرجال عند الحاجة اليهم، وكان حكم رؤساء هذه العشائر اقطاعيا استبداديا - منها قبيلة النمامشة بجنوب بلدة تبسة، وبالقرب منها قبيلة الحنانشة شمالا، وقبيلة الحراكتة غربا بناحية بلدة عين بيضاء- والنمامشة جمع والمفرد منهم نموشي (بفتح النون وتشديد الميم مع ضمها) والحنانشة جمع والمفرد حناشي (بفتح الحاء وتشديد النون) والحراكتة جمع والمفرد حركاتي (بفتح الحاء وسكون الراء) ومن العشائر الكبيرة الذواودة بالذال المعجمة في الأول والدال المهملة في الآخر، وهم من العرب الذين نزحوا مع الهلاليين في أواسط القرن الخامس الهجري والحادي عشر الميلادي، وكانوا بالزاب الجنوبي -وقبيلة بني عباس كونت دويلة صغيرة كانت في أوائل العهد التركي تحت امارة عبد العزيز الوالي من طرف السلطان الحفصي بتونس، وكان مقره بالقلعة التي سميت بقلعة

بني عباس، وتوفي في مناوشة مع الأتراك سنة 960 هـ- وتولى بعد حاكم - قيل هو أخوه- اسمه أمقران (بفتح الهمزة وضم الميم وسكون القاف) وسميت أعقابه بأولاد مقران، وتوسع في تلك النواحي فكانت الحضنة (بضم الحاء وسكون الضاد) ومجانة (بتشديد الجيم) تحت نفوذه، ومنهم الباشا آغا المقراني المتوفي شهيدا في 5ماي1871م بقرب واد سفلات (بضم السين وسكون الفاء) بناحية بلدة البويرة - وتكونت في القرن العاشر الهجري بجنوب القطاع القسنطيني سلطنة بني جلاب (بتشديد اللام) وهم من بني مرين، وقد توسعت من واد ريغ (بكسر الراء) إلى أنحاء أخرى ثم تضاءل أمرها وصارت منحصرة في بلدة تقرت (بضم التاءوالقاف المعقودة المشددة) ونواحيها القريبة، وانضمت على الحكومة التركية في أيام صالح باي قسنطينة بصفة نهائية سنة1789م- وانضمت إلى الدولة التركية بلاد مزاب (أو ميزاب كما يسميها أهلها) المشتملة على سبعة قصور كل قصر له جماعة "عزابة" تتولى شؤونه، ودانت بشروط بينها و بين الأتراك إلى أن زال حكمهم من هذه الأقطار.

وتولى خير الدين الآمر بعد استشهاد أخيه عروج وكلف بشؤون الادارة، وتولى سنة 940هـ-1534م، وأنعم السلطان العثماني سليمان القانوني على خير الدين بترقيته إلى رتبة قبودان باشا (أمير البحر) لقيادة الأسطول جزاء لشجاعته ومهارته وانتصاراته العديدة في الوقائع البحرية فبادر بالرحيل إلى عاصمة آل عثمان، واستخلف حسن آغا الذي كان تربى في داره، وكان من أهل الذكاء والسياسة فكان سعيه مشكورا واسمه مذكورا، وقد تمكن من اخضاع مدينة قسنطينة سنة 941هـ 1535م وتصدى حسن

آغا لمقاومة القرصنة الأوروبية والتضييق عليها، فعزم شارل كان على محق السلطة التركية والقضاء عليها من هذه البلاد فجاء بنفسه إلى الجزائر بجيش عرمرم في عمارة حربية كبيرة تحت قيادة أندارية دورية، وبلغت هذه الحملة في عصر يوم الخميس28 جمادى الثانية سنة 948هـ-23اكتوبر 1541م وأرست العمارة بناحية حسين داي ونزلت الجنود قاصدة المكان الذي بأعلى مدينة الجزائر المسمى بكدية الصابون والمعروف عندنا منذ زمان بعيد ببرج مولاي حسن وسماه الافرنج فورلانبرور أي حصن القيصر لأنه نصب به خيمته وقت حصاره للجزائر واستعد للهجوم إلا أن المقادير عكسته فهبت رياح عاصفة في غاية الشدة ونزلت أمطار هائلة لم ير مثلها فيما مضى من الزمان ورمت مراكب كثيرة الى الساحل فتحطمت ومات أناس وخيول وضاعت ذخائر وسلاح وآلات حربية وأقوات ولم يترك الجزائريون راحة للمهاجمين، وكان آخر الأمر أن ركب القيصر في السفن غير المنعطبة مع من نجا من الرجال المقاتلة والمجدفين.

وكان انصرافه عن الجزائر خائبا يوم فاتح نوفمبر1541م فتوجه في الباقي من أسطوله إلى مرسى بجاية ثم إلى اسبانيا.

ورد خبر حصار شارل كان في آخر كتاب غزوات عروج وخير الدين على روايتين ليس بينهما اختلاف كبير ولا مناقضة في حكاية أطواره إلا أن النصين يكمل احداهما الآخر، والرواية الأولى وعنوانها "هجوم ملك اسبانيا على الجزائر في مدة حسن آغا" أطول من الرواية الثانية التي عنوانها "هذه تاريخ قدوم لنبلادور إلى الجزائر"، ونحيل قراءنا الكرام

إليهما في طبعتنا لهذا الكتاب فانهم يجدون فيه زيادة عن النصين شروحا وملاحظات لعلها تفيد بعض الفائدة، وغاية القول أن نتيجة هذه الوقيعة العظيمة كان بها للجزائر نصر مبين وعواقب حميدة إذ لم يصب الجزائر بعدها كبير خطر طيلة زمان مديد ولهذا قال صاحب الغزوات: وبقيت الجزائر كالعروس تختال في حليها وحللها من رخاء الاسعار وأمان الأقطار فلم يبق لهم (للجزائريين) عدو يخافون منه وشاعت هذه القضية في مشارق الأرض ومغاربها اهـ- والأمر الذي يتعجب منه هو أن صاحب كتاب الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، لابن عبد الرحمان التلمساني من أبناء النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري نقل قصة حصار شارل كان للجزائر حسب الرواية الأولى حرفيا من دون أن يذكر كتاب الغزوات.

حكام الجزائر

كان في أول الأمر سلطة حاكم الجزائر الأعلى تشمل مملكة الجزائر وولاية تونس وولاية طرابلس وكل ولاية منهما لها باي، ولهذا كان لقب حاكم الجزائر بايلار باي (أي باي البايات)، ثم اقتصرت سلطته على قطر الجزائر فقط وتغير على ممر العصور لقب هذا الحاكم ثلاث مرات، وتنقسم هذه العصور العصور إلى مايلي:

أ ـ عصر الفتح التركي من سنة 920 إلى سنة 950هـ –1514 –1544.

ب ـ عصر البايلار باي من سنة 950 إلى سنة 995هـ–1544 –1587.

ج ـ عصر الباشاوات من سنة 995 إلى سنة 1069هـ –1587–1659.

د ـ عصر الآغاوات من سنة 1069 إلى سنة 1081 هـ–1659 – 1671.

هـ ـ عصر الدايات من سنة 1081 إلى سنة 1246 هـ–1671 –1830.

وكان حكام الجزائر في عصر البايلار بايات والباشاوات في طاعة السلطان العثماني إلى أن حدث انقلاب في القرن الثاني عشر الهجري(17م) فضعفت الصلة المتينة التي كانت بين الجزائر والباب العالي حيث وهنت السلطة العثمانية ورأى حكام الجزائر أنها صارت قاصرة عن الدفاع عنهم بأسطولها فانتهزوا الفرصة للاعلان باستقلالهم وكامل تصرفهم بأنفسهم واستبدت السلطة العسكرية الجزائرية بالأمر فصار حاكم الجزائر ينتخب ويختار من بين أفرادها أو من طائفة الرياس وقرصان البحر، وأحيانا من أعضاء مجلس الديوان من غير مراعاة لنسبه أوجنسه أومنبته وأصله فكان للحاكم الجزائري الحرية المطلقة فيما يفعله وينجزه في المحادثات

السياسية مع الدول الأجنبية، وكان له حل المشاكل الخارجية التي تعترض واعلان الحرب وعقد الصلح وامضاء المعاهدات والاتفاقات وقبول الممثلين من طرف شتى الدول.

دامت ولاية حسن آغا من سنة 940هـ-1534م إلى وفاته سنة 951هـ - 1544م فخلفه الحاج بكير باجماع أهل الديوان على توليته إلى أن يأتي الحاكم الذي يرسله الباب العالي، ثم قدم حسن باشا بن خير الدين سنة953هـ-1545م يحمل لقب بايلار باي، وكان سلطان المغرب مولاي أحمد المهدي قد احتل تلمسان ونواحيها لكي لا تسقط في يد الاسبان أو الأتراك فسار إليه حسن باشا ولاقاه عند مدينة مستغانم فكانت الغلبة على السلطان، ونصب باشا الجزائر، ونصب باشا الجزائر مولاي الحسن الزياني ملكا على تلمسان تحت حماية الجزائر سنة 961هـ-1553م، وفي نفس هذه السنة شيد حسن باشا القلعة المسماة باسمه برج مولاي حسن بسيدي يعقوب بأعلى الجزائر في موضع مرتفع بديع يطل على مرسى الجزائر وجونها المسمى أيضا كدية الصابون، ولهذا البرج عدة أسماء: برج بوليلة قيل لأنه أقام بموقعه القيصر "شارل كان" ليلة واحدة وبرج الطاوس لأن أحد دايات الجزائر ربى فيه هذا النوع من الطيور، وبرج سلطان قالاسي "أي قلعة السلطان بالتركية".

وأنشأ حسن باشا بلدة القليعة بقرب ساحل البحر سنة957هـ-1550م غربي مدينة الجزائر وهي تبعد عنها بنحو46كيلو ميترا وهي على ربوة ومرتفع من الأرض وتحتها سهول متيجة الخصبة فسكن بها النازحون الأندلسيون وانتفعوا بمياهها العذبة الصافية وهم أناس ماهرون في شؤون

الزراعة والبساتين، وببلدة القليعة ضريح الشيخ علي مبارك "علي بن مبارك" المتوفى سنة1040هـ-1631م ولا زال له اعقاب معروفون.

ولما هجم سلطان المغرب على تلمسان واحتلها وبسط نفوذه على مستغانم إلى نواحي واد شلف تحرك إليه حسن باشا من الجزائر فتأخر المغاربة إلى تخومهم أي حدودهم وتولى الباشا على تلمسان وألحقها بدولته وتولى حسن قورصو على هذه العاصمة الزيانية، واتفقت دولة الجزائر بتعيين الحدود مع المغرب.

واستدعى حسن باشا إلى استانبول وتولى الجزائر صالح رايس سنة959هـ-1552م وأخضع بعض نواحي الجنوب منها تقرت التي كانت بيد بني جلاب وورقلة "أرجلان" وبسكرة وأحوازها، ومن منشآت صالح رايس بالجزائر دار الامارة وتسمى أيضا دار السلطان وقصر الجنينة لحديقة كانت فيه وتم بناؤه بعد سنوات في عام 963هـ-1556م.

ولما توفي صالح رايس سنة963 انتصب بنفسه حسن قورصو بلا مراعاة جانب السلطان العثماني، وكان شجاعا ذا بطولة حربية وكان أصله من جزيرة كورسيكا فنسب إليها ولكنه اندمج في الوسط الجزائري وصار من أفراده الممتازين، ثم ناداه السلطان مستنجدا بأسطول الجزائر فرد حملة اسبانية كان رئيسها أندري دوريا عن البوسفور.

وخلفه بالجزائر محمد شلبي كردأوغلي -تاكرلي، فأراد حسن قورصو أن يمنعه عن ولاية الجزائر فوقعت بينهما حرب فلقي قورصو فيها حتفه، واستقر محمد شلبي حاكما مدة سنة إلى وفاته عام 964هـ-1557م.

ثم رجع حسن باشا من الآستانة وتولى للمرة الثانية على الجزائر

سنة 964– 1557 وابتهج الناس به لما يعرفون من شيمة وحسن ادارته مع أنه من أبناء بلدهم وأمه جزائرية، وهو الذي أسس النظام الاداري للدولة التركية الجزائرية، وارضى جند الكشايرية لأنه كان من عادته أن يرغب في زيادة الأجور بسبب أنه ليس بجند وطني بل جماعة من المرتزقة تطالب بالزيادة كلما تجدد أمير البلد، وأجلى المغاربة السعديين عن تلمسان، وتوجه إلى ناحية مستغانم لطرد الاسبان فأخرجهم منها.

ثم التفت إلى الناحية الشرقية فقصد بمحلته قلعة بني عباس بقرب برج بوعريريج لأن صاحبها عبد العزيز أبى أن يذعن للدولة المركزية بالجزائر ويعترف لها فحاصر الباشا القلعة فخرج منها عبد العزيز لرد الهجوم فلقي حتفه وأخيرا عاد حسن باشا إلى الجزائر بلا طائل بسبب المشاق وشدة البرد ونزول الأمطار، وكان ذلك في الشهور الآخرة من سنة960هـ1560م وخلف عبد العزيز أخوه أحمد امقران جد الأسرة المقرانية ووقعت المصالحة بينه وبين باشا الجزائر المذكور الذي كان أثناء زحفه على النواحي الشرقية استولى على المسيلة بأرض الحضنة وبرج بوعريريج وبنى فيه برجا أي حصنا وآخر بزمورة، وبقيت بهذه المدينة وبتلك النواحي إلى أيامنا سلالات من الأتراك.

ومن السنة التالية تزوج حسن باشا بفتاة من أسرة ابن القاضي ليتقوى ويشد أزره بهذه المصاهرة، ثم لفت نظره إلى أحوال عاصمته ووطد الأمن فسعدت الجزائر بسعيه واتسعت تجارتها مع داخل البلاد من سكان الجبال والسهول فأتوا إلى العاصمة بالعسل والشمع والسمن والجلود

والزيت والزيتون والتين والصابون المائع ما نسميه بصابون الجزائر وغير ذلك من الغلال والمحصولات وبعض المصنوعات.

وألزم حسن باشا الكشايرية بالطاعة واتخذ جندا لنفسه فكان لـه الكشايرية وتشاوروا عليه لأنهم رأوا أنه يتحذر منهم ويحسب لهم حسابا فاقتحموا عليه في قصره ذات ليلة على حين غفلة منه وأركبوه قهرا في سفينة مكتوفا وذهبوا به إلى السلطان بتهمة أنه أراد أن يثور ويتمرد ويستبد بالأمر ويجعل دولة مستقلة منفصلة عن الباب العالي والحاصل أنهم نسبوا له ما قيل عن والده خير الدين أنه كان عازما على إنشاء دولة بهذا المغرب العربي تشمل كل افريقية الشمالية تكون مسايرة للمملكة العثمانية متكاثفة معها لرد كل عدوان، ولكن فكرة خير الدين لم تخرج إلى حين الوجود لأن وزراء السلطان وحاشيته عارضوها، وفي الحقيقة أن الممالك العظيمة المتسعة المترامية الأطراف لا تدوم إلا زمانا قصيرا ما لم تتوفر فيها شروط من مراعاة مميزات كل ولاية من ولاياتها وكل اقليم من أقاليمها واحترام كل ما يخصها في حياتها الاقتصادية وحياتها العلمية وبقول مجمل في جميع الشؤون فيتكون إذن ما يمكن أن يسمى بالولايات المتحدة بكل معنى الكلمة، فهذا البناء المرصوص الذي يشد بعضه بعضا إذ كـل قسم قسم من أقسامها مستقل في داخليته لايسيطر أحد على غيره مرتبط بالآخرين بروابط وثيقة متينة لا انفصام لها،

ثم تعاقب في التولية على الجزائر قوصة محمد ثم أحمد باشا بستانجي (وننطق بهذا الاسم في لغتنا الدارجة بسطانجي يعنى بتفخيم التاء) ثم القايد يحي.

وعاد البايلار باي حسن باشا للمرة الثالثة للجزائر ومعه سفن حربية وقوة عسكرية بأسلحتها وذلك في سنة 969هـ-1562م، وتصدى إلى الاصلاحات والتنظيمات الإدارية، وقسم القطر الجزائري إلى أربع مقاطعات:

1- بايلك الجزائر وهو ما كان يدعى دار السلطان فكان المنطقة الحرة تحت نظر حاكم الجزائر مباشرة.

2 – بايلك تيطري ومركزه المدية.

3 – بايلك الغرب ومركزه بلدة مازونة في جبال الظهرة (بين تنس ومستغانم) ولعل أول باي بها هو المسمى بوخديجة، ثم نقل المركز إلى معسكر (أم عسكر) ثم وهران، وتولى بوخديجة بايا سنة 970هـ1563م بمازونة.

4 – بايلك الشرق ومركزه قسنطينة.

وشارك حسن باشا في حصار جزيرة مالطة مع الأسطول العثماني سنة 973هـ -1565م ثم عينه السلطان لقيادة أسطوله فانتقل لمنصبه الجديد سنة 974هـ – ولم يعد بعد ذلك إلى الجزائر وقبل ارتحاله هذا الآخر أحسن إلى الفقراء والمعوزين والجمعيات الخيرية وقد كان له دور وحمامات داخل المدينة وأملاك خارجها، ولم ينس زوجته وولده منها فخلف لهما ما يكفي وفوق ما يكفي ولا ندري لأي سبب لم يذهبا معه إلى الشرق ولا ندري إلى ما آل أمرهما بعد، وعلى كل حال لم يبق شيئا من مقتناياته وممتلكاته بالجزائر.

وجاء بعده محمد بن صالح رايس ولن تطل إقامته فبعد سنة انتقل إلى ولاية أخرى في الشرق، فكانت مدته من سنة 974 إلى سنة 976 هـ،

و1567م إلى 1568م و لما ورد صادف بالجزائر المجاعة وهيجانا في الكشايرية واضطرابا عند الأهالي بسبب الأمراض فسعى في إسعاف المصابين وإعانة المعوزين وتسكين فتنة المشوشين، وقضى على الثورة التي وقعت في قسنطينة باغراء الدولة الحفصية بتونس وولى على عاصمة الشرق المذكورة القايد رمضان، ورد هجوم الاسبان على الجزائر.

ولاية علج علي -تولى منصب بايلار باي بالجزائر سنة 976هـ-1568م وكان قبل ذلك قد شارك حسن باشا في حصار جزيرة مالطة وخلف درغوث باشا بطرابلس كما أنه كان تولى الحكم بتلمسان.

وهذا الرجل عظيم القدر في تاريخ الجزائر لمواهبه وأخلاقه السامية وخدماته الجليلة، وأصله من أسرى جزيرة صقلية أتى به القرصان إلى حاضرتنا وهو في سن الشبيبة ونشأ في بيئة راقية وتربى في وسط عرف أن يستخلص منه ما ينفع ويذر ما يضر، وكان يلوح على وجهه شيء من الكآبة والحزن فاستنتج بعض الكتاب من حالته هذه أنه كان يتذكر ماضيه ويتأسف عليه ولكن ذلك لم يكن فقد ساومه فيليب الثاني ملك اسبانيا وابن شارل كان وعرض عليه أعلى الوظائف فلم يجبه، ما دل على صدقه مع مواطنيه واخلاصه لهم، وكانوا استخدموه في مراكب القرصنة، وكان أقرع فلقبوه بالفرطاس، ولما كان من الفطانة بمكان فإنه ترقى في المراتب البحرية وبلغ إلى درجة رايس وبانت للأعين بطولته وظهرت مهارته وشاهدوا نشاطه الذي لا يكل- وفي أثناء إقامته بالجزائر سعى في إنقاذ الأندلسيين الذين لجأوا إلى سواحل البحر المتوسط في شرق الأندلس وأرسل بعض النجدات لمسلمي غرناطة الذين فروا منها وآووا إلى جبال

البشرات وهي قريبة منها، والمناوشات والمعارك التي وقعت بين المسلمين والاسبان تسمى بحرب غرناطة وسببها انتقاض الشروط التي عقدت بين الطرفين مع أنه لم يصدر أي خرق لها من جانب المسلمين وهم المورسيك أوالموريسكوس وهي تسمية تدل على الذين تخلفوا منهم ولم تطاوعهم أنفسهم على الجلاء لمحبة مسقط رأسهم وعدم صبرهم على مغادرته وترك ديارهم، وذهبت هذه الحرب بأكثرهم، ولا نعيد القول هنا على الخسارة العظمى التي نتجت عن خروجهم من وطنهم ولم يتفطن لهـا رؤساء الاسبان في ذلك العصر لأن التعصب والأغراض ضربت حجابا كثيفا بينهم وبين الحقيقة فأضروا بأنفسهم وأضروا بغيرهم، ولايشعرون: ومن لم ينظر العواقب فما الدهر له بصاحب، ودامت حرب غرناطة عدة سنوات من عام1568 إلى عام1571 –وهكذا اختفت تلك الحضارة الأندلسية التي أضاءت على ربوع القوط ذلك الشعب الجرماني الذي سكنت طوائف منه جنوب اسبانيا، وقد قطن المسلمون بتلك البلاد زهاء ثمانية قرون مـن سنة711م إلى سقوط غرناطة في الثاني من شهر يناير (جانفي)1492 -الثاني من ربيع الأول عام897هـ- وهكذا طويت صفحة شعب من أمجد شعوب التاريخ وحضارة من أعرق حضاراته كما قال بعض المؤرخين.

وتصدى علج علي لمقاومة الاسبان واخراجهم من ناحية تونس فتوجه إلى هذه العاصمة واحتلها وعزم بعد ذلك على أخذ حلق الواد بقرب حاضرة تونس فطلب الإعانة من السلطان العثماني ولكن هذا الآخر كانت له مآرب أخرى فقد كان مهددا من طرف ملك اسبانيا فيليب الثاني وحلفائه فاقتضى هذا الأمر استدعاء باشا الجزائر فالتزم بالاسراع إلـى

إجابة طلبه فذهب برفقة السفن الجزائرية وهكذا شهد حرب ليبانت بقرب ساحل أرض اليونان سنة1571-978هـ وحين توفي أمير الأسطول التركي خلفه في منصبه و ثابت أمام الارمادة الاسبانية معززة بحلفاء الاسبان واخترق صفوف هذا الأسطول مطلقا عليه نيران مدافع سفنه الجزائرية بلا انقطاع وعددها أربعون، وقد أوقع مروره السريع دهشة فجائية استفاد منها علج علي بحيث أنه أسر سفينة الرئاسة الحاملة لراية الديانة وسار سيرا حثيثا متوجها إلى استانبول ولكن أكثر المراكب العثمانية عطبت فغرقت، فكانت مكافأته أن نال من السلطان رتبة قبودان باشا مع ابقائه في وظيفة بايلار باي افريقية، واعتنى بانشاء اسطول آخر في عدة أشهر عوضا عن الذي ضاع وتلف.

وفي تلك الأثناء اغتنم دون خوان وهو أخو فيليب الثاني الفرصة لأخذ تونس فاتهموا علج علي بالتفريط ظلما وعدوانا فجمع مراكب حربية واستدعى عراب أحمد الذي ناب عنه بالجزائر ليأتي إليه بغليوطات الجزائر وذهبا معا واستوليا على تونس وحلق الواد وذلك في سنة 1574م.

وعين السلطان لولاية جزيرة قبرص- وكانت إذ ذاك في حكم دولة آل عثمان- عراب أحمد الذي خلفه بالجزائر القائد رمضان في نفس تلك السنة.

وقد رجع علج علي على مدينة الجزائر في مدة القايد رمضان وعزم أن يعضد سلطان المغرب مولاي عبد الملك من أسرة السعديين وذلك سنة981هـ -1575م فسار حاكم الجزائر مع جنده لاغاثته ولكن عبد الملك بعد سنتين من استيلائه على عرش المغرب لقي حتفه في

وقيعة القصر الكبير في نواحي طنجة وبذلك خاب أمل علج علي في اقصاء الاسبان من مراكزهم الافريقية.

وخلف رمضان في ولاية الجزائر حسن فينيزيانو وهو من أسرى البندقية وكان كاتبا في سفينة لهذه المدينة الايطالية، وكان فيه حدة وقساوة مع شجاعة ونشاط عجيب، فأغار على سواحل شرق الأندلس وأماكن أخرى وعدة جزر في هذا البحر المتوسط فكثرت في أيامه الغنائم، وحصن مدينة الجزائر وأخضع الكشايرية وألزم الرياس بالطاعة وجبى (أي جمع) المغارم بلا رفق ولا هوادة فكثرت فيه الشكايات إلى الباب العالي (أي الحكومة العثمانية) فناداه السلطان وجاء عوضه جعفر باشا سنة 988هـ-1580م فضبط الأحوال وكانت له معرفة ودربة في الشؤون الإدارية لأنه كان قد تولى عدة وظائف في الشرق، وفي أيامه ورد علج علي إلى الجزائر واشتغل بتنفيذ ما نواه في توحيد الشمال الإفريقي وجمع شمله، هذا ما قاله عدة من المؤرخين فقد كانت نية علج علي ونية خير الدين وابنه حسن باشا من قبله تشييد امبراطورية في هذه الأقطار الإفريقية الشمالية الأربعة على نمط يرضي جميع الرؤساء ويتقبله الناس بالاستحسان ولكن كل شيء في أوانه فما كان صعبا متعسرا في زمان يصير سهلا ميسورا في زمان آخر.

علج علي وصفه الكاتب الاسباني الكبير سرفانتيس وصفا يستوقف النظر فأثنى عليه بالشكر الجزيل فقد كان هذا الباشا صاحب شمائل رفيعة وكان من الكرام وذوي العدل مع حسن المعاملة الإنسانية، ولاغرابة في ذلك إذا قلنا أنه مع مواهبه وصدق معاشرته وإخلاصه في خدمة مواطنيه في شتى الميادين فقد أنشأ في الوسط الجزائري واندمج فيه فكانت له تربية

أساسية أثرت فيه وطبعت أخلاقه علاوة على ما أعطاه الله له من الفطنة وإصابة الرأي ومعرفة اختيار الأصحاب والأعوان (وما أعز اصابة الرأي وحسن اختيار الأصحاب والأعوان)- وسرفانتيس اسر في البحر بعد وقيعة ليبانت، وبعد إقامته في استانبول أتوا به إلى الجزائر وبقي فيها مأسورا مـن سنة1574 إلى سنة1580م حيث اطلق سراحه بالفداء فعاد إلى بلده بعد غيبة طويلة.

وتوفي علج علي حينما كان شارعا في فتح قناة السويس ليتصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط في سنة 988هـ- 1580م وكان عمره ثمانين، وبوفاته ذهبت أمانيه في تشييد المغرب العربي الكبير وفتح قناة السويس الذي انجز بعد نحو مائتين وتسعين من السنين.

وها نحن جعلنا لعلج علي ترجمة وجيزة حيث أننا رأينا من الواجب المتأكد علينا أن لا نهمل هذه الشخصية العظيمة من أبناء الجزائر لكـي لايكون نكرة فيما بيننا، واسمه ورد في كتب التاريخ والأخبار: علج علـي لاعلي العلج كما ينبغي عربيه، وذكر اسمه أيضا هكذا: علي باشا العلج وقلج علي.

والنبغاء من أبناء الجزائر كثيرون وسيأتي ذكر بعضهم مـن أهـل الإدارة والعلم.

سلف الحديث عن علج علي وحسن فينيزيانو وإذا جعلنا الموازنة والمقابلة بينهما حسب ما قصت عنهما كتب التاريخ فإننا نرى أن سيرتهما متباينة فان الأول أتوا به إلى الجزائر وهو فتى صغير السن ونشأ في وسط ليس فيه تعصب الجنسية (وقد سبق القول عن عدم العنصرية بالجزائر عند

الحديث على الجند النظامي لهذه المدينة)، ومرت به سنوات عديدة في سفن القرصة قاسي فيها أهوال البحر وأخطاره وشارك الجذافين في أتعابهم قبل أن يكون رئيسا بعد ما ظهرت للعيان خصاله وشجاعته فتدرب وتمرن ونال من تجاريبه مع مساعدة مواهبه الغريزية ما جعل منه الرجل العبقري الجليل القدر فصح فيه قولهم أن المصائب محك الرجال، والمحك (بكسر الميم وفتح الحاء وتشديد الكاف) هو الحجر الذي يختبر به الذهب فالشدائد مثله تري وتظهر هل للرجال صبر وعزيمة لتذليل الصعاب واحتمال المشاق أو لا.

وأما حسن فينيزيانو فقد اتصل بالوسط الجزائر الجزائري واندمج فيه وهو كهل بما فيه من الأخلاق الجبلية فلم يتأثر تأثرا بليغا بالبيئة الجديدة التي عاش فيها إذ لم تكن له تربية أساسية يعتمد عليها في منهجه وطريقه فمع بطولته ومهارته في شتى الميادين ونشاطه المستمر لم يحسن المعاملة نحو الأهالي كما ينبغي، ومن الكلام السائر: التعليم في الصغر كالنقش على الحجر، فإذا كانت الحاجة إلى المعرف أكيدة لازمة فكذلك الأخلاق، ولابد أن يكون التهذيب مسايرا للتعليم كلاهما معا لتستقيم الأحوال ويكون الفلاح والصلاح، وعلماء الإسلام تفطنوا لكل ذلك منذ زمان بعيد فنجد في الأدب العربي عددا لا يحصى من التآليف في التربية والأخلاق، ولاننسى هنا ما ورد في القرآن العظيم والحديث الشريف في هذا الشأن،

ومن أشهرها وأبسطها أيها الولد للإمام أبي حامد الغزالي وتعليم المتعلم للزرنوجي(بفتح الزاي وسكون الراء وضم النون) من أبناء القرن

السادس الهجري ومن تلاميذ برهان الدين علي المرغيناني (بفتح الميم وسكون الراء وكسر الغين المهملة) وهو صاحب الهداية كتاب مشهور في الفقه الحنفي، وتوفي سنة 593هـ.

ورجوعا إلى الحديث عن حسن فينيزيانو وختاما له فنقول فإنه على كل حال ولو لم يكن مثيل علج علي وفي درجته فإنه ترقى إلى المناصب العليا كحاكم للجزائر ثم قبطان باشا بفضل قابليته وأهليته، ومما يدل على نبوغ الجزائريين فان الدولة العثمانية كانت تختار منهم أمراء أسطولها وذلك طيلة مدة من الزمان ليست بالقصيرة.

عصر الباشاوات الثلاثيين

الحروب التي عانتها الدولة العثمانية في أواخر القرن العاشر الهجري والسادس عشر الميلادي ضد الامبراطورية الاسبانية قد نقصت من قواها وبدأت تحس بالحمل الثقيل الذي على كتفها من جراء فتوحاتها في أوروبا فأعرضت عن تمنيات خير الدين وابنه حسن باشا وعلج علي الذي كانت له آفاق سياسية واسعة وولت وجهها إلى حكومة الجزائر وغيرت شيئا من وضعها فأبطلت منصب بايلار باي افريقية وأنشأت مكانه وظيفة باشا بالجزائر وبتونس وبطرابلس الغرب وجعلت مدة حكم الباشا ثلاث سنوات فترسل إذ ذاك باشا آخر عوضا عنه، ودام عصر الباشاوات الثلاثيين من 995 إلى 1069هـ-1587إلى 1656م.

وكان يشارك الباشا في نفوذه الوجاق وهو عبارة عن الكشايرية مع ديوانهم العسكري، ولا ريب أن نظاما حكوميا كهذا كثيرا ما يسوده الاضطراب وهذا ما وقع حقيقة.

وأول الباشاوات دالي أحمد باشا وتولى سنة 995هـ إلى سنة 998- 1587 إلى1589م، وجملتهم ستة وثلاثون ومنهم من تولى مرتين أو ثلاث مرات.

وآخر الباشاوات هو ابراهيم باشا الذي تولى من سنة 1066 إلى سنة 1069هـ-1587إلى1656م - ولما حاول هذا الباشا أن يستولي على المنحة التي كان السلطان يرسلها كل عام لإعانة الأسطول الجزائري فإن ديوان الكشايرية ثار عليه وقرر أن الباشا لا يبقى له شيء من السلطة على

محافظة الأموال والخزينة، وقرروا أن يقوم الآغا وهو أمير الجند مقامه والسلطة الفعلية يتولاها الديوان العسكري مباشرة ورئيس الديوان هو الآغا ولايشغل منصبه إلا مدة سنتين فقط، ثم طلبوا من السلطان المصادقة على هذا النظام الجديد فرضي بذلك على شرط أن الديوان هو الذي يدفع النفقات العسكرية فنالت الجزائر بذلك استقلالها مع تبعية وارتباط بالدولة العثمانية.

وينبغي التنبيه هنا على أن الباشاوات كان لهم نفوذ حقيقي وسلطة فعلية فاغتنموا فرصة ولايتهم للتمول واكتساب الأرزاق لأنفسهم بطرق غير مرضية مما أدى إلى الجرأة عليهم وعدم الاحترام من الكشايرية فقد كان بعض الباشاوات يكلفون القرصان بعملية القرصنة لحسابهم ولا يراعون المعاهدات المبرمة مع بعض الدول الأجنبية ولا يبالون بأوامر السلطان العثماني في هذا الشأن فكل ذلك حمل الأهالي والجند على انتقاصهم وعدم تقديرهم ولم يبق للباشا الجديد الذي يستقبلونه بالجزائر عند قدومه من استانبول إلا ذلك الاحتفال الكبير الذي يكرمونه به وهو في الحقيقة ليس لشخصية الباشا وإنما هو إظهار لتعظيم الخلافة العثمانية الإسلامية.

وعدد الباشاوات نحو سبعة وعشرين منهم من تولى مرتين ومنهم من تولى أكثر من ذلك.

عصر الآغاوات

لم يطل عصر الآغاوات، وعددهم أربعة وهم: خليل آغا ورمضان آغا وشعبان آغا وعلي آغا وكلهم ماتوا مقتولين.

ثم لم يتقدم احد لمنصب الآغوية خوفا من الاغتيال، فاجتمع الديوان وقرر تغيير نظام الآغوية وتعويضه بنظام آخر يضمن الاستقرار فأحدثوا نظام الدايات فصار الديوان ينتخب الداي لمدة عمره مع تكليفه بتنفيذ ما يقرره نفس هذا الديوان، فكان الدايات بمثابة ملوك مستقلين استقلالا واسعا مرتبطين بالدولة العثمانية بالاسم ومبادلة المصالح ولهذا كان الداي يحمل لقب باشا، والداي كلمة تركية بمعنى الخال والرئيس ثم استعملت بمعنى الحاكم والرئيس.

وعدد الدايات يزيد على العشرين ودامت حكومتهم من سنة 1081 على سنة 1246هـ-وبالتاريخ الميلادي من سنة1681 على سنة 1830م.

وأول الدايات الحاج محمد باشا (ووجدنا اسمه أيضا الحاج محمد التريكي) الذي تولى سنة 1082هـ- 1672م- وكان من قدماء الرياس وهم رؤساء البحر وكان رجلا هرمًا فترك الأمور لصهره زوج بنته بابا حسن ثم انفصل عن ولايته تماما وجعل صهره مكانه.

ونقتصر على ذكر عدة من الدايات يستحقون الحديث عنهم ولو بطريق الاختصار.

الحاج حسين ميزومورط (بكسر الميم الأولى وضم الثانية وضم الزاي) وهذه الكلمة ايطالية ومعناها نصف ميت قيل أن هذه التسمية لأنه ضربوه

في زمان قرصنته بالسياط فأوجعوه، قدم إلى الجزائر وصار قرصانا وأسلم وكان من ذوي النفوذ وتولى الحكم بعد خلع بابا حسن باشا، ثم بعد سنوات اعتزل الولاية ولحق باستانبول وتقلد امارة البحر، ويشهد تاريخ مدينة الجزائر بخالص ايمانه فانه شيد مسجدا جامعا كانت له قبة حسنة عريضة قليلة العلو، وكان بناء هذا المسجد حوالي سنة1097هـ وكان وضعه عجيبا اذ انه بني فوق عدة حوانيت (دكاكين تجارة) وحمام، وكان بشارع باب عزون وبازاء رحبة الزرع (والرحبة معناها السوق) وقشلة الكشايرية، وقد سبق أن كلمة الانكشايرية ينطقون بها في الجزائر كشايرية، فكان هذا المسجد بقرب عزون داخل المدينة، وكان له امام خطيب وامام للصلوات وشيخ (أستاذ) للفقه المالكي وشيخ للفقه الحنفي ومحدث أي شيخ للحديث النبوي مع راو (بالتنوين) يعنى من يروي أي يقرأ الحديث للشيخ ليشرحه للحاضرين والطلبة، وقارئ المحمديات يعنى قصائد المديح وقراء لتنبيه الأنام، وجعل الداي المذكور أعلاه أوقافا كثيرة ليصرف مدخولها على هذا المسجد في كل ما يلزمه وهدم حوالي سنة 1836م وكان من أحسن بناءات الجزائر وأعجبها.

ودامت ولاية الحاج حسين ميزومورط بالجزائر من سنة 1094 إلى 1100هـ - 1683 إلى1689.

محمد باكتاش (أو باكداش) -كان من أهل العلم والأدب، أعان الباي مصطفى بوشلاغم لاسترجاع وهران من الاسبان، وبعد انقاذ هذه المدينة سنة1119هـ-1708م نقل الباي المذكور مركز بايلك الغرب من مدينة معسكر إلى وهران، وفي سنة 1145هـ -1732م أعاد الاسبان الكرة عليها

واحتلوها، فانتقل بوشلاغم إلى مستغانم وتوفي بها أربعة أعوام بعد ذلك، وتوفي الداي باكتاش معتالا بعد ولاية دامت من سنة 1118 إلــى سنة1122هـ -1706 إلى1710م.

محمد عثمان باشا- من أشهر دايات الجزائر أو أشهرهم مع طول مدة حكمه بالنسبة إلى غيره فقد تولى من سنة 1179إلى سنة 1205هـ و1766- 1791م، وعصر الدايات هو أطول عصور الحكم التركي بالجزائر.

وقد استفدنا في ترجمة هذا الداي بالاختصار والتصرف الكثير مـن مذكرات نقيب الأشراف المرحوم الحاج أحمد الشريف الزهار التي نشرهـا الشيخ أحمد توفيق المدني بالجزائر1356هـ.

تولى محمد عثمان بعد الداي علي باشا الملقب ببوصباع، ولما مرض هذا الآخر نادى وزارءه وجمعهم وهم الخزناجي وآغا العرب وخوجة الخيل ووكيل الحرج ووكيل بيت المال وأوصاهم بولاية محمد عثمان، وكانت وفاة علي باشا في21شعبان سنة1179هـ-8أفريل1766م، ومن الغد اجتمع الوزراء وأهل الديوان والمفاتي والقضاة ونقيب الأشراف وأعيان الناس واجتمعوا بدار الامارة وجلس محمد باشا على كرسي الملك وبايعه العلماء وجميع من سبق ذكرهم، كان محمد عثمان من ذوي العدل والانصاف عارفا بقوانين الملك ملتزما لأحكام الشريعة، ووقعت في أيامه حروب وهجومات على مدنية الجزائر انهدم أثرها كثير من المباني وقدر الله له بالنصر، وكان متواضعا في ملبسه ومأكله محتفظا بمال الخزينة حسب الامكان، ومن مآثره أنه بنى عدة أبراج (حصون) لرد العدو الهاجم الذي كان يأتي من حين إلى آخر لرمي القنابل على المدينة، وشارك أهل البلد

في بنيان هذه الأبراج يرجون بذلك ثواب الله كبرج سردينة (نوع معروف من السمك) بمرسى الجزائر القديم برأس المول (والمول بضم الميم هـو الرصيف الذي يبنى ليكسر من حدة الأمواج) وبقي منه باب قائما، وجاءته هذه التسمية من صورة سمكتين تشبهان هذا النوع من السمك فوق بابه، وكانت في عصره مراكب كثيرة تخرج للقرصنة وللغزو والاغارة فسعى الرياس بنشاط في اكتساب الغنائم.

وهذا الباشا هو أول من صنع اللنجور وهو نوع من مراكب الحرب على هيئة زورق كبير فيه مدافع، وصنع على مثال ما عند الافرنج والكلمة اصلها ايطالية، وقد نفع هذا النوع في الدفاع عن العاصمة – ولما هدمت البومبة (القنبلة) جامع السيدة بازاء دار الامارة جدد محمد عثمان باشا سنة1197 بناءه أحسن تجديد وزينه بأسطوانات الرخام الأبيض (جمع عرصة في لغتنا الدارجة) وكسا جدرانه (حيطانه) بالزليج لا يرى البياض بداخله إلا المنبر وأسطوانات الرخام، والمنبر الرخام لا زال موجودا بالجامع الجديد، والأسطوانات وضعت خارج الجامع الأعظم من جهة نهج باب الجزيرة، وكان كل ذلك بعد هدم جامع السيدة في أول مدة الاحتلال عام1830 وتم هدمه بعد نحو السنتين، ويقولون أن هذا المسجد كان من أبدع ما يكون في الفن المعماري.

ومن احسانه أنه أتى بماء الحامة للبلد وبنى له ساقية "قناة" وأمر بتوزيعه على الأبراج والمساجد والقشلات "الثكنات" وما بقي منه لعيون المدينة ليملأ منه الناس لدورهم، والماء قبل ذلك كان يصل للمدينة وإنما كان ضعيفا ، والحامة موضع معروف بقرب ضريح الشيخ محمد "بفتح الميم

الأولى" بن عبد الرحمن، والحامة في اللغة هي عين الماء الحار "السخون" يتداوى به الاعلاء "جمع عليل" والمرضى، والمأنوس المستعمل هـو الحمة "بفتح الحاء وتشديد الميم"، وفي الوطن الجزائري توجد حامـة أخرى وهي حامة قسنطينة بالقرب منها وأسفلها وهي أرض كثيـرة الخصب كثيرة عيون الماء الحار يسقى بها البساتين والمباقل (جمع مبقلة وهـي الأرض التي تنبت فيها البقول أي الخضر).

اغارات على مدينة الجزائر مدة ولاية محمد عثمان باشا:

جاءت عمارة اسبانية سنة1184هـ، ونزل الجند منها بالموضع المسمى بالحراش وهو اليوم مدينة معروفة بهذا الاسم، وفي اليوم الرابع من نزولهم وصل صالح باي قسنطينة مع من معه من قومه فجاء العسكر وأهل الجزائر وحملوا جميعا حملة واحدة فكان لهم النصر وركب من نجا من الاسبان في سفنهم وانصرفوا بعدما تركوا شيئا كثيرا من الأثاث والعتاد.

والإغارة الثانية وقعت سنة1197هـ فخرج الجزائريون وهم في زوارق (فلايك كبار) فيها مدافع وقاتلوا الاسبان الذين كانوا نزلوا بالجون شرقي الجزائر ورزق الله أهل البلد بالنصر.

واغارة الاسبان الثالثة كانت سنة1198هـ وفشلت كالسابقتين، ونقتبس من مذكرات المرحوم الحاج أحمد الشريف الزهار ما يلي في شأن صنعة اللنجور بمدينة الجزائر: لقد سمعت ممن حضر ذلك الوقت أن الاسبانيول تكسر لهم لنجور من الذين كانوا يقاتلون به وجده المسلمون في عين الربط (ينطقون به بسكون الراء وفتح الباء) في رملة هناك (يعني في ساحل البحر) وسمع بذلك القبطان (الرايس) الحاج محمد فأرسل إليـه

معلم السفائن فعاينه وأخذ قالبه والتقى القبطان مع الأمير واتفقوا أن يجعلوا من ذلك الصنف نحو خمسمائة لنجور فأمروا كبير الطرسنة (دار صناعة السفن) ويقال له وكيل الحرج أن يباشر صنع ذلك، فصنع العدد الذي أوصى به مولانا رحمه الله (وهو الداي محمد عثمان باشا) وقيل أوجدوا أقل من ذلك المقدار، وكان النجارون من أهل البلاد يعملون مع النجارين متاع (كذا في الأصل) الطرسنة اهـ-وعين الربط هو موضع قريب من البحر، واتخذوه مدة طويلة من الزمان ساحة للمناورات وميدانا لسباق الخيل ثم بنيت فيه دور من ناطحات السحاب اهـ- ببعض الزيادة.

سبق القول عن الملاحة الجزائرية ومهارة بحاريها بحيث أن سلاطين آل عثمان كانوا يستغثون بها ويستدعونها عند الضرورة فكانت الدونانمة الجزائرية تخرج من ميناء الجزائر وتذهب إلى استانبول لتجول في تلك النواحي وترد العدوان، والدونانمة هي الأسطول الحربي باللغة التركية- ومما يدل على دراية ملاحي الجزائر بشؤون البحر وبسالتهم هو أن العدد القليل من سفنهم كان يقابل عددا أكثر من سفن الخصوم وذلك للثقة التي كانت لهم في أنفسهم.

هذه هي سيرة الداي محمد عثمان باشا وأوردنا فيها أهم ما ينبغي أن يعرف عنه ونظن أن في ذلك بعض الكفاية، ويذكرون اسمه محمد عثمان عوضا عن محمد بن عثمان كما ورد في بعض الكتب وكما هي العادة في بلادنا خلافا لما في المشرق فيقولون مثلا: محمد علي عوضا عن محمد بن علي ولعل ذلك لقصد الاختصار والتخفيف.

وتوفي الداي محمد عثمان باشا في عاشر شهر ذي القعدة سنة 1205-

1791م فتولى مكانه الخزناجي حسن باشا لأنه كان في عادات أتراك الجزائر اذا مات الأمير يتولى مكانه الخزناجي ويتولى آغا العسكر خزناجيا وهو وزير المالية.

أقرض حسن باشا حكومة الدير كتوار بفرنسا قرضا مبلغه نصف مليون فرنك بدون فائض (فائدة)، وهذا المبلغ من المال كان ذا بال في ذلك العصر ويظهر لنا طفيفا في هذا الزمان فان الأسعار لم تزل في الصعود مدى العصور لسباب مذكورة ومبسوطة في كتب علم الاقتصاد.
ولا غرابة أن ترد إلى حدود معقولة بالتدريج.

وفي أيام حسن باشا احتل محمد الكبير باي الغرب مدينة وهران (بفتح الواو)، وهو محمد بن عثمان الكردي وكان أسمر اللون ولهذا سموه محمد الأكحل، كان أبوه عثمان الكردي قائدا ببلدة مليانة ثم بايا بالمدية، وكان هذا الأب رجلا عادلا نزيها ولقي حتفه أثناء اخماد فتنة في جبل العمور (بسكون العين وضم الميم) فقام صديقه الذي تولى بايا مكانه بتربية ولده محمد فأقبل هذا النجل الصالح الذكي على العلم والفروسية أي ركوب الخيل ونال فيهما رغبته واشتغل في الادارة، ولما انتقل الباي ابراهيم إلى بايلك الغرب (ومركزه معسكر) أخذ معه محمدا وجعله قائدا على فليتة (بسكون الفاء وكسر اللام) بناحية بلدة غليزان ثم رقاه إلى منصب خليفة وصار يدبر الأمور لثقته فيه وأهليته، وقدم إلى الجزائر واشترك مع صالح باي قسنطينة في رد عدوان الاسبان وذلك في سنة1184هـ، وبعد انصراف الاسبان بدون طائل اقتبل الداي باي الغرب وأثنى عليه وكان تولى هذا الآخر بايا بمعسكر قبل انتقاله إلى وهران.

وكان الباي محمد الكبير معروفا بالكفاءة لما يشغله من المناصب والصدق والاخلاص للدولة المركزية بالجزائر، وقد شمر عن ساعد الجد فأنشأ المطامير العامة في الجهات المختلفة من عمالته لخزن القمح ليكون ذخيرة في سنوات الجدب واليبس، وجدد بعض المساجد العتيقة وجلب الماء في القنوات إلى مدينة وهران وشيد جامعها الأعظم وبنى مدرسة للتعليم العالي ورتب لها عدة مدرسين وجعل لها مكتبة عامة وأعان طلبة العلم، ورمم عدة مبان بتلمسان وجسورا(قناطر) بمعسكر وبنى ضريحا على قبر الشيخ أحمد بن يوسف، وكان يكرم أهل العلم ويجزل لهم المنح، وجمع بقصره في وهران عددا من الناسخين ذوي الخط الجيد يشتغلون بنسخ "نقل" الكتب النفيسة فكانت له بقصره مكتبة خاصة به، وكان له اطلاع واسع في الأدب العربي وعلوم الدين والشريعة وكان يحب علم الطب ويعالج نفسه بالأدوية التي يجهزها بيده، وكان تقيا عادلا مع شدة وبأس إذا لزم الحال، وكانت له صلات ودية مع الداي الذي أهدى له ريشة ثمينة من الذهب يضعها في عمامته وكانت من خصائص سلاطين آل عثمان وباشاوات الجزائر وتكرم عليه بلقب محمد باي الكبير "وباختصار محمد الكبير" اشارة إلى خدماته في فائدة أبناء بلاده، وكانت له أيضا صلات طيبة مع باي تيطري وباي قسنطينة ومع سلطان المغرب مولاي محمد بن عبد الله بن اسماعيل، ومن مآثره احتلال وهران وكانت مدة طويلة في تصرف الاسبان، وكانت في حالة خراب بسبب الحروب والحصارات التي قاستها فجعل منها بلدة عامرة مزدهرة... كان هذا الاحتلال سنة 1207هـ -1792م- وتوفي الباي محمد الكبير سنة1211هـ

-1796م، وبقي اسمه مذكورا إلى اليوم وسعيه مشكورا فإنه كان من المحسنين ومن أبناء الجزائر الأبرار.

وبمناسبة استرجاع وهران فإن السلطان جازى الداي حسن باشا المذكور آنفا بطوخ "بضم الطاء" وهو سبيب فرس يجعل في رأس عصا ويحمل أمام الباشا في الاحتفالات تعظيما له وتبجيلا، وجمعه أطواخ وهي كلمة تركية.

– مصطفى باشا – هو مصطفى بن ابراهيم الذي تقلد الحكم بعد حسن باشا سنة 1212هـ-1798م- وهو من أشهر دايات الجزائر، ويوجد حيان باسمه بالجزائر: مصطفى الأعلى ومصطفى الأسفل، وكان مغرما بالبناء فشيد عدة دور قصور، ولما استولى بونابرت على جزيرة مالطة فإنه أطلق سراح أسرى المسلمين الذين كانوا عند فرسان مالطة وكانوا مقيمين فيها منذ سنة 1530م سلمها لهم القيصر شارل لكان وأطرد بونابرت منها هؤلاء الفرسان سنة 1798م وأطلقت دولة الجزائر أسرى مالطة، ولما وقعت حملة بونابرت على مصر فإن الدولة العثمانية أعلنت الحرب على فرنسا وأمرت الجزائر أن تعلن الحرب أيضا عليها فأذعن مصطفى باشا وألقى قنصل فرنسا والفرنسيين في السجن، ووقع الاحتكار في القمح والحبوب من طرف اليهود باكري وبوخريص وبوشناق فارتفعت الأسعار وثارت الفتنة وكثر الاضطراب في المدينة فقتل أحد الجنود بوشناق عند خروجه من قصر الامارة، وبعد خمسة أيام اغتال الجند مصطفى باشا.

– أحمد باشا – تقلد الحكم من سنة 1220إلى 1223هـ-(1808م)، وولي على وهران محمد المقلش (بفتح اللام مع تشديدها) وهو بكر محمد

باي الكبير الذي سبق الحديث عنه بايجاز، وأمره أن يقضي على ثورة الدرقاويين فقاتلهم وأخضع هؤلاء المشوشين في ناحية قبيلة فليتة بالقطاع الوهراني، ووقعت مع التونسيين في عهد حمودة باشا الذي حاصر مدينة قسنطينة ثم انصرف عنها بدون جدوى، ووقعت بعد ذلك ملاقاة بقرب بلدة الكاف في الحدود التونسية الجزائرية، وعقد داي الجزائر مع حمودة "بفتح الحاء وضم الميم مع تشديدها" اتفاقية واستراح الناس بهذا الصلح بين الأشقاء، وثار الكشايرية وقتلوا أحمد باشا.

- علي باشا الغسال- 1223 إلى1224هـ، قتله الكشايرية بعد أربعة أشهر بزعم أنه ليس بكفء لهذا المنصب.

- الحاج علي باشا – تولى سنة 1224 هـ، تصلب في الحكم وقسا، عادت النزاعات بين تونس والجزائر واخذ القرصان بين الجانبين يتبارون في البحر، خرج الرايس حميدو مع السفن الجزائرية وصادم المراكب التونسية عند مرسى سوسة واستولى على سفينة أمير البحر محمد المورالي، وأرسل نابوليون بونابارت سنة 1808م الكومندان بوتان ليجعل له عرض حال مفصلا على مدينة الجزائر ونواحيها وفيه تخطيط للتحصينات، وذلك ليستعين به عند الحاجة إليه، وقد طبع هذا الاكتشاف لمدينة الجزائر وحصونها وبطارياتها "بتخفيف الطاء المهملة وبالألف وبدونها وتشديد الياء وهي كلمة عصرية مستحدثة" أي جملة مدافع موضوعة على خط وسطر واحد ترسل طلقاتها في مرة واحدة، وطبع هذا الكشف بباريس سنة 1927م- وطرأت أحوال وحوادث للأمبراطور نابوليون صرفته عما نوى من الحملة على الجزائر كما قال المؤرخون- وطلب الداي من فرنسا تسديد الدين

الذي سبق ذكره لأن خزينة الجزائر كان لها حق فيه لتسليفها مبلغه - وقتل الحاج علي باشا بالجزائر سنة 1230هـ-1815م بعد ستة أعوام من الحكم.

- الحاج محمد باشا- أراد أن يدخل نظاما جديدا على الخزينة فاغتاله الكشايرية بعد نحو الأسبوعين من انتخابه.

- عمر باشا - من سنة1230إلى سنة1232 هـ-1815 إلى1817م- كان آغا العسكر ولم يقبل الحكم إلا بعد تأكيد متكرر عليه ومحاولات لأنه كان يعلم مصير الدايات في تلك الأيام، ويقولون عنه أنه كان رجلا ذكيا نشيطا صاحب دراية في شؤون الإدارة، وفي عهد سنة1815م توفي الرايس حميدو شهيدا في أثناء لقاء أسطول حربي أمريكي، فهو من أبناء الجزائر المشورين ورجال البحر البارزين مع الأخلاق السامية والسجايا الحميدة وحسن ثناء الناس عليه، وقد سبق الحديث عنه مع نوع من التفصيل.

وبينما كان عمر بن محمد آغا العرب "وهو المنصب الثاني بعد الداي" فإنه تكلف بإخضاع بعض الاضطرابات في النواحي الشرقية كبوسعادة، وكان أهل فليسة يقلقون الحكومة المركزية باغاراتهم على سهول متيجة وهي معروفة بخصبها وخيراتها وينتهبون من ثروتها فتسعى هذه الحكومة في زجرهم وعقابهم، فبنى عمر آغا جسرا عريضا متينا على واد يسر "بفتح الياء وتشديد السين مع فتحها" لتسهيل المواصلات بين الجزائر والقطاع القسنطيني وبين "برج أم نايل بسكون الميم وفتح الياء" والبويرة وهي البلدة المعروفة في القرون الغابرة بحمزة "بفتح الحاء وسكون الميم" باسم بانيها، فكان لهذا الجسر أهمية كبرى للمعاملات التجارية ومرور الامحال التركية إذا اقتضى الحال، وقد اتحدت دول أوروبا في طلب أبطال

القرصنة وسراح الأسرى من دولة الجزائر فرفض الوجاق وهو ديوان الكشايرية هذا الطلب فأغار أسطول انكليزي على الجزائر وأطلق قنابله على الميناء والمدينة فحصلت أضرار جسيمة فرضي الداي بالشروط وعقد صلحا مع أمير الأسطول فثار الكشايرة ومن عاداتهم أن يثوروا واغتالوا عمر باشا فدام حكمه سنتين.

ويرى الداخل إلى ضريح الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي على يده اليسرى مستندين إلى الجدار قبر المرحوم مصطفى باشا وقبر المرحوم عمر باشا، وليس في الضريح داي آخر معهما.

- علي خوجة باشا-1232إلى1233هـ عقد اتفاقا بين الجزائر وتونس ووقع الاعتراف باستقلال كل من الطرفين،، وانسل علي خوجة من قصر الامارة إلى قلعة القصبة بأعلى المدينة ليكون بعيدا عن مكايد الكشايرية وثوراتهم واتخذ حامية من ألفي جندي من الجزائريين فتمرد عليه الجند التركي فألزمهم بالطاعة وأعدم بعضهم وأرجع كثيرا منهم إلى تركيا ليستريح منهم ففضل أن يكون الجند من أهل الوطن ، ولما غادر القصر فإنه نقل معه الخزينة -ومرض علي خوجة بالوباء وقبل وفاته أمر أن يتولى بعده خوجة الخيل، فلم يدم حكم علي خوجة إلا ستة أشهر وكانت وفاته يوم فاتح مارس 1818م.

- حسين داي -1233إلى1246هـ-1818إلى1830م- كان خوجة الخيل في ايام علي خوجة، وهو آخر حكام الجزائر، وأرجع الهدنة والهدوء في جميع أنحاء القطر الجزائري بعد جهد ومشقة - وقعت مناوشات بين تونس والجزائر وتم الصلح بينهما بتداخل السلطان

العثماني 1821م- عين حسين باشا الآغا يحيى لقيادة الجند وقد اشتهر بحزمه ونشاطه وحسن تدبيره لشؤون الإدارة، وقد سعى الآغا يحيى في أرضاء أعراش بلاد جرجرة والاتفاق معهم.

والأعراش جمع عرش وهو في لغتنا الدارجة بمعنى القبيلة، واعترفت الدولة المركزية بقيادة أسرة زعموم "وهم من فليسة أو مليل" وكان نفوذهم من ناحية بني خلفون إلى ذراع الميزان ،وأسرة ايت أوقاسي "من تامدة" وكان نفوذهم على ناحية سباو الأعلى، وأسرة بن كانون ونفوذهم كان على يسر وسباو الأسفل.

وأعانت الجزائر بسفنها تركيا في حرب اليونان سنة 1827 في وقيعة ميناء نافاران بسواحل اليونان وكانت اشتركت عدة دول أوروبية للدفاع عنهم وافتكاكهم من حوزة الأتراك وقد نالوا آخر استقلالهم سنة 1830م.

وكانت في تلك السنوات تأتي من حين إلى آخر مراكب حربية تتهدد على الجزائر طالبة أبطال القرصنة واطلاق سراح الأسرى وترمي في غالب المرات قنابلها على المدينة، وجاءت عمارة انكليزية فخرج إليها الأسطول الجزائري للقائها بعيدا عن المدينة لكي لا يتمكن لها رمي قنابلها فانصرفت بلا طائل.

وطلب حسين داي من فرنسا دفع الدين المرتب عليها الباقي قسط منه ولكن كانت إذ ذاك في حالة اضطراب بسبب سياسة شارل العاشر الذي كانت تنقصه موعظة صروف الزمان إذ لم يستفد من ثورة سنة1789 الكبرى بل أخذ بآراء حاشيته المتطرفة فاستبد وخشي أن تقوم الثورة ضده فاغتنم قصة المروحة التي كانت بيد حسين داي وأشار بها في حال غضبه إلى

قنصل فرنسا وقيل أنه ضربه بها في المناقشة معه في شأن مماطلة تسديد كالي الدين الذي مر القول عنه، فأمر الملك شارل العاشر بالحملة على الجزائر فسار اسطول كبير فرنسي فيه ما يزيد على ثلاثين الفا من الجند وأرسى برملة جون سيدي فرج بالساحل الغربي لمدينة الجزائر على مسافة نحو الثلاثين كيلوميترا منها في14 جوان من سنة 1830- ووقعت معركة دامية في اسطاوالي يوم19جوان عن مسافة ستة كيلوميترات من ربوة سيدي فرج، هذه المعركة وكانت في مكان مرتفع بنحو150 ميترا عن سطح البحر ثم معركة سيدي خلف "بسكون الخاء المعجمة وفتح اللام" ولا زالت قبته ماثلة وبناؤه يظهر عليه القدم والبلى وتبعد عن نحوكيلو ميتر من بلدة الشراقة (بالقاف المعقودة) للسائر نحو ساحل البحر في الجهة اليسرى وذلك يوم32جوان -وقابل الجزائريون بشجاعة الجيش الفرنسي ولم يكن لهم رئيس مجرب ومن الكفاءة يسيرهم بل كان على رأسهم ابراهيم آغا صهر حسين داي (زوج بنته) وهو رجل عاطل من كل شيء من التجارب والمعرفة فتحير في أمره ولم يدر ماذا يفعل، وكان يحيى آغا العسكر الذي سبق ذكره قد توفي، قيل أن ابراهيم هذا كان سببا في اغتياله لأنه كان يحسده لمواهبه وخصاله الحميدة فكان يغري عليه والد زوجته حسين داي إلى أن استمع إلى تحريشه فأمر آخر بشنق الآغا يحيى وهو في البليدة.

وفي 24جويلية وقع حصار برج مولاي حسن (فورلانبرور) فبارحته وحدات الكشايرية ثم أطلقوا بعد ذلك النار في مخزن البارود الذي كان في وسط البرج فانفجر وتفرقع وسمع له صوت هائل وطارت الشظايا إلى

كل جهة، وفي الغد انعقدت اتفاقية بتسليم مدينة الجزائر على فرنسا وتعهد الجنيرال العام دي بورمون باحترام الدين الإسلامي وأملاك المسلمين وأرواحهم، وكان احتلال المدينة في الخامس جويلية 1830م عشية، وغادر حسين داي المدينة مع أسرته وحاشيته وما استطاع أن يحمله معه في مركب وذهب إلى نابلي بايطاليا باختياره ارادته في 16 من نفس هذا الشهر- وكانت وفاته بالاسكندرية سنة 1838م وانتقل ما بقي من الكشايرية إلى تركيا،

- وهكذا انتهى في اليوم الخامس من شهر جويلية من سنة 1830م و1246هـ الحكم التركي بعد أن استمر ما يزيد على ثلاثة قرون من سنة 916هـ على القول الأصح إلى سنة 1246هـ-1830م بما له وبما عليه، ولا ريب أن اجل أعماله كان صيانة الحدود ورد العدوان على الثغور البحرية بالخصوص والمحافظة على مميزات البلاد وشعائر دينها مع أنه ينكر عليه استبداده بالحكم واستئثاره به وحده دون أبناء الوطن واعتساف الجند وتعديه أحيانا على الأهالي وكثرة تمرده على النظام الشرعي فيتحتم على ولاة الجزائر أن يقمعوا الثائرين المتمردين.

ذكر بعض الوقائع في الحدود الجزائرية

كانت تطرأ بعض المناوشات والخلافات بين الجماعات قرب الحدود والتخوم وتقع بعض التعديلات بالدخول إلى وطن الجزائر والتوغل فيه بعيدا أحيانا، ونقتصر في هذا الحديث عن بعضها ولم تكن في الغالب حروبا ومعارك شديدة.

وقعة السطارة (بتشديد الطاء كما رأيناه مضبوطا،وفي لغتنا الدارجة بالتخفيف) وهي اسم مكان بقرب بلدة الكاف بالايالة التونسية، ووقعت حرب بين التونسيين والجزائريين في شهر رمضان من سنة 1037هـ/ ماي 1628م بسبب الخلاف بين الطرفين في شأن الحدود فكانت طوائف تدخل التراب الجزائري وتخرج وهي مقيمة حول التخوم التي كان وقع تحديدها وتعيينها سنة1023هـ و1614م فلم يحصل للتوانسة شيء وعقد الصلح بين تونس والجزائر وعينت الحدود حسما للنزاع: من واد السيرات إلى واد ملاق (بتشديد اللام) ثم إلى البحر.

وفي سنة 1039هـ- 1630م اتفق الكراغلة مع طائفة الرياس ضد الحكومة المركزية لأنهم أرادوا أن يكون لهم حظ في الإدارة حيث أنهم كانوا مبعدين عنها فأطلقوا النار في خزينة البارود فنتج عن الانفجار خسائر عظيمة في الأنفس والدور وغيرها فقتل عدد وافر منهم وصودرت أموالهم ثم وقع جلاؤهم عن المدينة وأسكنوا بواد الزيتون وهو رافد لواد يسر عن مسافة نحو خمسين كيلو ميترا من الجزائر، فسموا الزواتنة (جمع زيتوني وهي نسبة للنهر المذكور) ولا زالت بقية منهم إلى هذه الأيام في تلك النواحي.

وفي الجهة الغربية من قطر الجزائر (وهو المغرب الأوسط) نذكر وقيعة سنة 1090هـ-1679م في عهد السلطان مولاي اسماعيل وقد تعدد دخوله في هذا الوطن ثم خروجه أو اخراجه عنه، وها هو ما قال عنها المؤرخ أحمد الزياني (بتخفيف الياء التي بعد الزاي) في كتابه الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب: وفي عام 1090 توجه السلطان مولاي اسماعيل لحركة الشرق على طريق الصحراء ،ولما بلغ وجدة قدم عليه بنو عامر وسقونة وذوي منيع ودخيسة وحميان والعمور وأولاد جرير والأحرار والحشم وقادوه على طريق الصحراء وترك تلمسان على يساره وأصحر إلى أن نزل على وادي شلف بالقويعة فوجد الأتراك بمحلتهم على وادي شلف بقضهم وقضيضهم ومدافعهم ومهارزهم، ولما جنّ الليل أطلقوا (كذا) الأتراك مدافعهم ومهارزهم وضربوا طبولهم وشعلوا مشاعلهم، فلما سمع العرب ذلك دهشوا وهربوا ليلا ولم يصبح مع السلطان إلا عساكره فانهزموا دون قتال، ووجه له الأتراك رسلهم أتوه بكتاب مولاي محمد بن الشريف الذي عاهدهم على حدود بلادهم وبكتاب مولاي رشيد الذي عمل معهم الحد على وادي تافنة وطلبوا منه أن يتخلى على بلادهم ويقف على حدوده فأجابهم لذلك وانعقد عليه الصلح بينهم ورجع ومن يومئذ لم يؤمن في العرب ولم يثق بهم ورجع إلى المغرب اهـ حرفيا - وقد أورد الشيخ أحمد الناصري في كتابه الاستقصالاخبار دول المغرب الأقصى خبر هذه الغزوة كما يسميها- ويوجد بعض الفرق بين النصين ولكنه يسير، قال الناصري مايلي: وكاتبه الأتراك (أي كتبوا إلى السلطان مولي اسمعيل) أن يتخلى لهم عن بلادهم ويقف عند حد أسلافه ومن كان

قبلهم من ملوك الدولة السعدية فإنهم ما زاحموهم قط في بلادهم وبعثوا إليه بكتاب أخيه المولى محمد بن الشريف الذي كان بعث به إليهم وبكتاب أخيه المولى الرشيد الذي فيه الحد بينه وبينهم فوقع الصلح على ذلك الحد الذي هو وادي تافنا، وكان ذلك سنة تسع وثمانين وألف(1089هـ)-اهـ وكانت وفاة محمد بن الشريف سنة1075هـ ووفاة أخيه الرشيد سنة1082هـ، وقد علمنا مما سلف انهما أخوا السلطان مولاي اسماعيل- هذا بعض ما وقع في الحدود الجزائرية ولم تكن ولله الحمد) حروبا طاحنة وكان في ودنا أن لا نذكر شيئا منها لولا واجبات الأمانة التاريخية، وليس بضربة لازم أن نقول أن النزاع بين الأشقاء لا يرضي الله ولا العباد.

وأبو القاسم (بلقاسم) بن أحمد الزياني (بتفخيم الزاي وتخفيف الياء) ولد حوالي سنة 1147هـ بمدينة فاس وعمر طويلا وتوفي بها سنة1249هـ وخلف عدة كتب في تاريخ المغرب الأقصى – وأبو العباس أحمد الناصري توفي سنة 1315هـ-.

وصف مدينة الجزائر

كانت الجزائر في العصر التركي على شكل مثلث تظهر من بعيد وبالخصوص من جهة البحر كأنها ثوب أبيض منشور على سفح جبل ولهذا يسميها الشيخ ابن مسايب التلمساني في احدى قصائده ببلد الجير.

تنحد دورها طبقة تحت طبقة من حصن القصة إلى ضفة البحر ولهذا سميت الجهة العليا من مدينة الجزائر باسم الجبل ولا زال هذا الاسم مستعملا إلى الآن في ألسنة الناس، وكانت دور الطبقة العليا أكثر سكانها من الأهالي ذوي الصنائع المختلفة والعمال وأيضا من المثرين يدل على ذلك الدور المتقنة البناء المزخرفة، وأما دور الطبقة السفلى من المدينة المجاورة لساحل البحر القريبة منه فكانت سكنى الأمير وأكابر الحكام ورؤساء البحر وأصحاب الثروة والقناصل والافرنج ففي دورها اتقان البناء واحكامه وكثرة الزخرفة والرخام والآجر الغالي الثمن والأبواب والمنافذ من الخشب الرفيع والصنع البديع ما هو بالنسبة قليل في دور الطبقة العليا فالبناء فيها بسيط في الغالب قليل الزخرفة.

كان سور يحيط بالبلد بقي اثر قليل منه بقرب مسجد سيدي رمضان وبقرب القصبة وكذلك في أعلى نهج باب الجديد (والأصل في هذه التسمية الباب الجديد فحذفت أداة التعريف في كلمة باب للتخفيف) فكان هذا السور ينحدر من القصبة إلى البحر وينتهي عند باب الواد في الموضع الذي بقربه اليوم المدرسة الثانوية (ثانوية الأمير عبد القادر)، وفي الجهة الأخرى المقابلة ينحدر السور من ناحية القصبة إلى الموضع

الذي بقربه المسرح البلدي حيث كان باب عزون، ولم يبق شيء أثري من هذين البابين ولكن هذين الاسمين يعني باب الواد وباب عزون لا زال متداولين فباب الواد اسم حارة (حي أو حومة في اللغة الدارجة) وباب عزون اسم نهج معروف، فالمدينة كانت حينذاك محصورة وراء أسوارها، وأزقة ما نسميه الجبل ضيقة في الغالب ودورها ملتصقة ببعضها بعضا فهي كتلة واحدة متراصة ويقطع بين الزقاق والآخر باب يغلق ليلا في وقت معين، وكثير من الأزقة كانت دوره تتماس وبعض الدور لها سقيفة يمر تحتها الماشون وهذا ما يسمى بالسباط كساباط الذهب وساباط العرص وهي في الجملة على حالها القديم، وإذا كان الساباط ليس له علو معتبر فإنه يسمى بالدرب كما يشاهد هذا النوع من السقيفة بالزقاق المسمى بالدرب القصير "بضم القاف وفتح الصاد وفتح الياء مع تشديدها فهو تصغير قصير"، ومن المعلوم أن الدرب في اللغة العربية كان يسمى به كل طريق يوصل إلى بلاد الروم كما ورد في شعر امرئ القيس:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه * وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فصاحبه هو الشاعر عمرو بن قميئة (بفتح القاف وكسر الميم) وكان شيخا هرما وكان طوى عنه خير رحلته إلى قيصر الروم البزنطيين، وأيقن بمعنى تحقق أي تحقق أنهما سيصلان بعد مشقة وتعب إذ كل من سار على الدرب وصل، كما يقول ابن الوردي - وبعض الدور كان لها جهة من الحائط خارجة تسمى بالخروج والاسم يدل على المسمى، ينتفع به السكان للتبرد لرطوبة الهواء فيه زمان الصيف والقيظ - وكانت توجد بطحاء "أي فضاء واسع" أمام دار الامارة مقر الداي وحاشيته فهذه الساحة

كانت في الموضع الذي هو اليوم ساحة الشهداء "بطحاء الحكومة سابقا"- وكان نهج طويل يخترق عرضا الجهة السفلى من المدينة وهو نهج باب عزون المتصل بنهج باب الواد، وكانت في النهج الطويل الدكاكين والحوانيت للمواد الغذائية، وكما هي العادة في المدن الاسلامية كان نهج خاص للصياغين وللحدادين والنجارين والرصاصية أي القزادرية والمقايسية والخراطين والشماعين ويطول ذكر أسماء جميع أهل الصنائع،والحاصل أنه كان لأهل كل حرفة سوق أي نهج تجاري يصنع فيه ويباع ما يحتاج إليه الأهالي -ففي نهج باب الواد كانت ترى حملة أسواق منها سوق البلاغجية تصنع فيه أنواع الأحذية من الجلد المطلق ومن الفيلالي المجلوب من تافيلالت بجنوب المغرب الأقصى تأتي به القوافل وبقيت إلى اليوم تسمية حومة السلاوي نسبة إلى مدينة سلا بالمغرب- وفي نهج باب عزون زيادة على السوق الكبير كانت ترى أسواق يتلو بعضها بعضا منها سوق الخراطين وسوق السمارين للحيوانات وبقرب باب عزون سوق الرحبة للقمح والحبوب.

نظرة اجمالية في هندسة الدور بالجزائر -هي مبنية طبقة فوق طبقة طبقة على سند الجبل كدرج "دروج" سلم بحيث أن البحر يرى من سطوح الدور لأن هذه قلما يكون لها طابقان وتطلى "تجير في اللغة الدارجة" جدرانها بالجير مرة في السنة وفي بعض المناسبات، وبناؤها على شكل واحد يشبه بعضها بعضا سواء كانت كبيرة أو صغيرة ومن رأى واحدة منها أغناه عن أن يرى دورا أخرى وإنما الفرق بينهما في الاتقان والنقش والزخرفة. وباب الدار ينفتح على سقيفة فيها مصطبتان

يجلس عليهما أهل الدار والجيران للتحدث، "والمصطبة مكان قليل الارتفاع عن الأرض يجلس عليه" ويوجد باب آخر يسمى باب الفصيل ينفتح على وسط الدار، وهذا الصحن مربع الشكل في الغالب وأرضه مرصفة مغطاة بالحجارة أو بالرخام، ووسط الدار حوله أربعة رواقات تستند على أساطين "عرص" من الحجارة أو الرخام، "والرواق سقف في مقدم البيت"، وفي الجهات الأربع توجد بيوت يدخل الضوء إليها من أبوابها ونوافذها "الطواقي"، وفي الطابق" الطبقة" مثل هذه الرواقات السفلى والبيوت هناك تسمى الغرف (جمع غرفة)، وفي الطابق درج (دروج) يصعد عليها إلى السطح الذي قد يكون فيه بيت يسمى العلي (بسكون العين وكسر اللام) أو المنزه، وفي بعض الدور الفاخرة يكون في وسط الدار فسقية فيها فوارة (فالفسقية) حوض أي صهريج والفوارة ماء يفور وينبع صاعدا)، والفرق بين الديار هو النقش والرخام والزليج وزخرفة الأبواب والنوافذ من الخشب الجيد- وقد نفعت الجالية الأندلسية في تشييد الدور على شكل معماري أنيق.

ودار الامارة على شكل الدور التي سلف ذكرها وكانت في أكبر نهج للمدينة ويسمى السوق الكبير ويشمل أكثر الحوانيت، وقليل منها في حارة الجبل، وفوق دار الامارة راية وفوق بابها قنديل (مصباح) كبير يتدلى من الطابق الأعلى، ولهذه الدار- وكانت تسمى أيضا بقصر الامارة- باب ضخم من الحديد، وأمام الدار ساحة صغيرة فيها فوارة، ويحيط بالساحة عريش كبير، وبإزائها مكاتب للموظفين وكل واحد منهم له مكتب خاص به، وخارج

الباب مصطبتان مفروش عليهما حصائر يجلس اليولداش عليها للحراسة.

العيون بمدينة الجزائر- كان الماء يأتي من عين تنبع بقرب برج مولاي حسن (فورلانبرور) ماؤها عذب ويصل إلى البلد في قنوات على مسافة نحو كيلو ميترين وتنتهي إلى خزان (بتشديد الزاي أخزنة الماء) في طرف المول (رأس المول) ومنه تستقي المراكب -والماء الذي يضيع حين يسيل في الأواني والجرار (جمع جرة) والقلل (جمع قلة وكانت من النحاس الأحمر ملؤها نحو عشرين ليترا) لا يذهب سدى بل يجري في قنوات تنصب في الخنادق التي توصل القاذورات إلى البحر- والحكومة هي التي توزع الماء في الأزقة، ويتولى ادارة المياه موظف هو قائد العيون أو خوجة العيون وهو الحارس عليها لئلا يكون التبذير، وعدد العيون كان نحو مائة وخمسين عينا، وليس لأحد أن يدخل الماء في داره إلا نادرا فيدفع لذلك أجرة مرتفعة، والسبب في ذلك معقول ومفهوم وهو مجرد الاحتياط لكفاية السكان، فهذه الحكومة كانت تحافظ على الماء خوفا من اسراف المستهلكين له ومجاوزة الحد في استعماله للتهاون وعدم اللامبالاة.

ومجمل القول أن العيون كانت عمومية ولهذا كان السقاؤون "وهم رجال في الغالب وبعض النساء المسنات" يملأن الماء للأهالي بالأجرة.

وقد جلب الماء الداي علي باشا من عين الحامة سنة 1173هـ كما أن الداي محمد عثمان باشا أوصل الماء منها للجزائر منها في قنوات مبنية سنة 1203هـ ولعله جعل قنوات جديدة بسبب التلاشي والانهدام فأوجبت هذه الحالة الاصلاح والترميم والتجديد من حين إلى آخر.

وبعين الحامة كان صهريج يمتلىء من مائها يشرب منه الدواب وإبل

القوافل التي تأتي بالبضائع من الجنوب وغيره.

وكان أناس محسنون ينشؤون العيون داخل المدينة وخارجها ويحسبون عليها الأوقاف لصيانتها وحراستها، ويحفرون الآبار ويطوونها جيدا ليستقي منها عابروا السبيل والقوافل كما فعل مراد رايس الذي كان قرصانا شهيرا فإنه اخترق المحيط الأطلسي وبلغ ايسلاندا وغزا سواحلها سنة1617م، وباسمه سميت القرية "بير مراد رايس" التي هي بصدد التوسع والعمران، وجعلت هذه البئر في موقع يمر به المسافرون والقوافل،

وكانوا يبنون للعيون بناء يسر الناظرين وهي محاطة بالزليج الملون الأنيق، وفي حومة الجبل (القصبة) كانت بعض العيون ماؤها من ينبوع هناك كعين ابن شبانة (بسكون الشين وهو اسم رجل) بنهج القصبة ولا زالت إلى اليوم، وعين زنقة العطش بقرب زقاق سيدي عبدالله، وكلمة زنقة (بفتح الزاي وسكون النون) من كلام المولدين (بضم الميم وتشديد اللام مع فتحها) والجمع زنق، وعن الشيخ حسين بأعلى نهج باب الجديد.

وفي كل دار بئر وجب ينحدر إليه ويسيل فيه ماء المطر الذي ينزل على سطح الدار -وكانت السطوح عادة غير مفروشة بالآجر بل كانت تطلى بالجير الخاثر في آخر الصيف قبل تهاطل الأمطار فتسد الشقوق، وهذا مايسمى الغلالة فكان ذلك كافيا إذ كانت السطوح ليست مجالا للعب الصبيان والأولاد ولا ميدان للسباق والجريان ولا يكسر عليها الخشب ولا غيره ولا تستعمل المهاريس فوقها ولكن الأحوال تغيرت والأخلاق انحطت في بعض الأناس فصاروا لا يبالون ولا يصونون ما يجب أن يصان ولتتميم الفائدة في شأن الغلالة نقول أن هذه التسمية فيها تشبيه بنوع الثياب

الغليلة لتغطية السطح كمثله للبدن.

وفي بعض الديار لا يوجد إلا بئر أوجب، وماؤهما ليس للشرب وإنما هو للتنظيف فقط (للتسييق كما يقولون وهو الغسل والمسح، وللتنشيف أو التجفيف كما يقولون في بعض النواحي من قطر الجزائر) و في كل ذلك توفير للماء الحلو الزلال.

سبق أن قلنا أن الأزقة ضيقة لأن الدور بنيت كيفما اتفق الحال، وقسم كبير من المدينة على سند الجبل وهي محصورة بين الأسوار التي تغلق أبوابها ليلا في وقت محدود (الساعة الثامنة) ومن وصل إلى باب من ابواب المدينة يبيت خارجها وينتظر الصبح للدخول، واجتهد الأهالي أن لا تضيع لهم بقعة من الأرض بوجه من الوجوه فكانت المناهج فيها التواء فقد كان زقاق يسمى سبع لويات "منعطفات بصيغة اسم المفعول" مع أنه كان في بسيط من الأرض في منتهى نهج باب عزون - وبعض الأزقة لها ما يدعى زنيقة مقطوعة أي غير نافذة وفي اللغة الفصيحة هي الرتج "بكسر الراء وسكون التاء" وكانت كلمة الفرن تطلق على الرحى التي تديرها الدواب، وأما الكوشة فهي فرن الخبز ولا زالت مستعملة بهذا المعنى إلى اليوم، وكوشة الجير تسمى أيضا الفرن، وكان خارج باب عزون عدد من أفران الجير وردت الاشارة إليها في كتاب الغزوات.

وفي الحقيقة كان السكان يقيمون في البلد في فصل الشتاء ولما يعتدل الحال ويبدأ القيظ يخرجون إلى الأبراج "جمع برج بمعنى الدار في الفحص والجنان أي البستان" وهناك يجدون الأشجار والأزهار والفواكه

والخضر والظلال الوارفة وماء الآبار البارد العذب أوالعيون، وهذه الدور مع بساتينها "جناين جمع جنان" كانت تمتد على مسافة عدة كيلو ميترات عن الجزائر - وأما الدويرات "جمع دويرة تصغير دار" فيبقون فيها لا يبرحون مقيمين فيها مشتغلين بشؤونهم- وخلافا لما يعتقده بعض الناس فإن القوم كانوا أصحاب نشاط ودراية وخبرة في خدمة بساتينهم، وكانوا مولعين بالأزهار ويقطرونها في الأنابيق "جمع انبيق أي قطارة" يصنعونها من النحاس الأحمر كما أنهم كانوا يقطرون أنواعا من الأعشاب يستعملون ماءها المقطر لعلاج بعض الأمراض أوللمحافظة على الصحة وسلامة الأبدان.

وفي النهج الذي يمتد من باب الواد إلى باب عزون ويلتقيان عند دار الامارة كانت أكثر مقاهي الجزائر غاصة بالجالسين يتحدثون أو يتعاطون لعب الشطرنج أو غيره كما أنه كانت فيه أكثر حوانيت المزينين، والمزين هو الحلاق من الحلق أي ازالة الشعر، ومن عادة الحلاق أن يكون حجاما يستخرج الدم.

في أسماء مناهج مدينة الجزائر-فالأزقة الطويلة كان لها عدة أسماء حسب أقسامها وحسب ما يوجد فيها، فإذا كانت هناك صناعة أو حرفة فالزقاق يسمى بالسوق، وإذا كانت رحى سمي بالفرن كفرن الجمال، وإذا كان فرنا للخبز فهو كوشة، وإذا كان باب سمي به كباب الجديد وباب عزون وباب الواد كما أنه إذا كان باب حارة "حومة" سمي به كالدرب القصير "بصيغة التصغير" وكذا يقال عن المسجد فيسمى بالجامع كالجامع الأخضر- وإذا كانت مدرسة للكبار سميت بالزاوية كازاوية البوعنانية وكان موقعها في الموضع الذي بني فيه الجامع الجديد، وإذا كانت المدرسة

لتعليم الصغار أي الصبيان سميت بالمسيد كالزقاق المدعو مسيد الدالية – وسموا أيضا بالسور فقالوا سور ستارة"حذفوا أداة التعريف من الكلمة الثانية "– وسموا بالعين كعين المزوقة "بصيغة اسم المفعول"، وبالسقيفة يمر الناس تحتها وهي الساباط فقالوا ساباط العرص "بسكون العين وفتح الراء" وساباط الذهب، وبالعقبة كعقبة الشرشالي وكانت غير بعيدة من مسجد سيدي رمضان في أعلى المدينة.

ونهج باب الجديد كانت له عدة أسماء حسب أماكنه: عين الشيخ حسين "بسكون الحاء وكسر السين" ثم جامع ابن شلمون "بفتح الشين وسكون اللام وضم الميم" وابن ينطقون به بن (بفتح الباء وسكون النون) ثم سوق السمن وتحته سوق الكتان في منتهى هذا النهج، وهذه الأسماء استعملوها لمزيد البيان لأقسام النهج المذكور– وكذلك نهج القصبة ففي أعلاه بير الرمانة ثم تحته ساباط الريح ثم حوانت زيان (وحوانت بسكون الحاء وفتح النون هو النطق في لغتنا الدارجة) ثم حمام حمير (بتشديد الياء مع فتحها) ثم جامع علي بشنين –وأسفل نهج القصبة يسمى زوج عيون لعينين كانتا هناك.

وفي نهج باب الواد بقرب دار الامارة سوق الشماعين وهم الذين يصنعون شمع النحل (الشمع الحر) للاستصباح، وبقرب الشماعين دار النحاس لصنع الأواني النحاسية، وبقربها وازاء الجامع الجديد البادستان (بكسر الدال وسكون السين) وكانت تقام فيه سوق لبيع الأسرى.

وفي بعض أسماء الأزقة وقع تصحيف كالجامع الأخضر صار لكدور

"بضم اللام وسكون الكاف وضم الدال" وخرب بن ميمون وقع فيه التحريف فقالوا أخر ميمون "بفتح الهمزة وتشديد الخاء مع فتحها وسكون الراء وكسر الميم"، وكان محمد بن عبد الله بن ميمون يملك في أواسط القرن الثاني عشر الهجري دورا خربة فسمي ذلك الموضع بخرب بن ميمون، ومعلوم أن الخربة "بفتح الخاء وسكون الراء" في لغتنا الدارجة هي الدار المنهدمة، وكان هذا الموقع في أعلى المدينة يدعى عقبة الشرشالي ثم تنوسي هذا الاسم، وكانت فيه أنقاض في عصر الدولة التركية تحت القصبة القديمة – ولنا أيضا زقاق "زنقة" قطاع الرجل فتصحف إلى قاطار وجيل "بضم الراء وكسر الجيم" لأن منه كانوا يسمعون الاعلان باغلاق أبواب الدور وانقطاع الأرجل "جمع رجل" عن المشي، وكان هناك مسجد: المسجد الكائن بقبور أولاد السلطان، ولا نعرف شيئا عن هؤلاء الأولاد ولا اسم هذا السلطان ولا العصر الذي عاش فيه، والظاهر أنه كان حاكم الجزائر زمانا مديدا قبل نزول الأتراك وقد هدموا هذا المسجد سنة 1842 وكان حينذاك باليا متروكا – وقد أتينا بما قلناه على سبيل التمثيل وليس ذلك على ارادة الاستقصاء- وربما سموا دارا بلون جدرانها أو بعض جدرانها فقالوا الدار الحمراء أو دار الحمراء ولعل التسمية بالجامع الأخضر لذلك أو هو اسم أحد أئمته أو وكلائه وهدم المسجد منذ زمان بعيد، والدار الحمراء شادها حسين داي وهو آخر حاكم لدولة الجزائر وكان اذ ذاك خزناجيا أي وزير المالية، وهي بديعة الصنع غاية في الزخرفة ولا زالت ماثلة إلى اليوم، وكان هناك ساباط بازاء الدار الحمراء وعين تدعى عين الحمراء وزقاقها كان يدعى أيضا زنقة عين الحمراء ومسجد يسمى جامع

الحمراء، ولسبب لانعرفه كانت جميع البناءات في ذلك الموضع مطلية حيطانها في الخارج باللون الأحمر عوضا عن الجير الأبيض، وكل ذلك هدم منذ زمان.

وقد أشرنا آنفا بأن حي حومة باب الدزيرة كان سكنى الأكابر والرياس وأهل العلم وأصحاب الثروة، ولكل فريق جهة أو نهج، وكان نهج خاص لسكنى قناصل الدول الغربية.

سكان الجزائر

في أواسط القرن العاشر الهجري -السادس عشر الميلادي- كان عدد سكان الجزائر نحو الستين ألف نسمة، وقد بلغ في بعض الأحيان نحو مائة ألف- ويضاف إليهم المأسورون الذين يتراوح عددهم من الخمسة والعشرين إلى الثلاثين الفا على حسب العصور، وفي القرن العاشر الهجري وأوائل الحادي عشر أتت أفواج من المسلمين الأندلسيين- وفي الفريق أو القبيل التركي كان الانكشارية وهم الجند النظامي، وطائفة الرياس ومجموع الموظفين المدنيين، وكان عدد هؤلاء المشارقة يزيد على عشرة آلاف، والكرغلان وهم أولاد الأتراك من أمهات جزائريات وكانوا عدة آلاف، والحضر ويسمونهم البلدية (بفتح الباء وسكون اللام وكسر الدال) وهم الجزائريون أصالة الذين توطنوا مدينة الجزائر منذ زمان، واليهود القدماء والذين أووا إلى الجزائر في أوقات مختلفة ولكل هؤلاء الأقوام يضاف ما كانوا يسمونهم بالبرانيين وهم الجزائريون الذين كانوا يأتون من داخل البلاد من النواحي المختلفة للعمل بها أو التجارة كأهل جرجرة والجنوب الجزائري كأهل بلدة الأغواط وبلاد مزاب (أو ميزاب كما يسميها أهلها، وابن خلدون وغيره يستعملون كلمة مصاب بنطق الصاد مائلة إلى الزاي) والزنوج وأصلهم من الأقطار السودانية يستخدمونهم في الدور، وكانوا يحملون على الحمير البضائع والأثاث ومواد البناء كالرمل والحجر والجير والخشب-وكان تجار من الافرنج يسكنون بالجزائر ولهم دكاكين للبيع والشراء والوسق للخارج وكان منهم أفراد من مرسيليا

ولهذه المدينة معاملات تجارية مع بلدان الشرق الإسلآمي من زمان بعيد، وكان قنصل فرنسا بالجزائر يتقاضى مرتبه من غرفة التجارة لمرسيليا لأنها كانت تستفيد من هذه المعاملات كما أنها كانت تتعاطى لصيد المرجان بالقالة (مرسى الخرز في قديم الزمان) وكانوا يجعلون المرجان الجزائري وهو من انفس وأفضل ما يكون في المصوغ لتزيينه ولصنع المسابح، ومن المعلوم أن الناس كانوا يستعملون المرجان في أشياء كثيرة وقد نقص رواجه على ما كان عليه في سالف الأيام.

وكانت دولة الجزائر تأذن بفتح حانات الخمر لبعض الافرنج يطرقها النصارى وكانت ممنوعة على الأهالي المسلمين، كما أنها أباحت للمسيحيين اقامة شعائر دينهم والاحتفال بأعيادهم وكانت لهم مقبرة خارج باب الواد، وهذا مما يدل وخصوصا بالنسبة إلى تلك الأزمنة على رحابة صدر الدولة الجزائرية وتسامحها.

ونلاحظ أن جماعة كبيرة من أهل كورسيكا توطنت بمدينة الجزائر فارين من جزيرتهم المذكورة لجور حكم الجنويز الذين كانوا استولوا عليها فاضطهدوهم فاستطابوا الاقامة بالجزائر، ومنهم من اندمجوا في بيئتها ولذلك نجد أسماء مثل حسن قورصو ومراد قورصو.

نظرة في الصناعة والتجارة

تنسج بالجزائر أقمشة من الكتان يلبسها الأهالي، وحاشيات من الحرير مختلفة الألوان والطول والعرض وهي أتقن صنعا وأمتن من التي كانت تصنع بأوروبا، وتصنع الشواشي(جمع شاشية وهي لباس للرأس) من صوف وطن الجزائر، ومن المعلوم أن صنعة الشاشية التي نسميها هنا بالجزائر الشاشية التونسية جاء بها الأندلسيون إلى بلدنا ولونها الأحمر القاني المشرق من صباغ القرمز وهو حب نبات يغرس بناحية معسكر وكاونا يبيعونه في تونس في العهد التركي، وكانوا يصنعون نوعا من الشاشية المطرزة بالذهب والفضة تسمى الصارمة (بسكون الراء)، والحزوم (حزامات) من الحرير ترسل منها كميات كبيرة إلى أنحاء قطر الجزائر وإلى الشرق وقد ادركنا زمانا كان فيه بالجزائر كثير من دكاكين (حوانت) الحرارين يصنعون بمهارة عدة أنصاف من المنسوجات الحريرية كالمحارم وحياك الحرير للنساء – وصناعة دباغة الجلود كان لها رواج وكانت تلك الجلود ملونة منها الجلد الأسود والأحمر والأصفر والبنفسجي، ويصنعون منها أحذية للرجال والنساء، ومحافظ (جمع محفظة) للأوراق ولوضع النقود (تزادم جمع تزدام بتفخيم الدال المهملة) وكانت محكمة الصنع مطرزة بالذهب والفضة، والخرائط "جمع خريطة وهي الجبيرة" وتنسج الزرابي في عدة جهات من وطن الجزائر وكذلك الحياك من الصوف للباس الرجال والنساء في البوادي وحياك للغطاء والبرانيس "جمع برنوس".

ونتبه أننا استعملنا كلمات عديدة من اللهجة الدارجة لقصد الافادة –

وكان من أهل الحرف من يصنعون البابوجات والبلاغي والشواشي من القطيفة والسروج للخيل وصنادق اللوح الملونة وقد أدركنا نجارين يصنعونها بزقاق كوشة الخندق في حي الجبل- وخارج باب الواد كانوا يصنعون الأواني الطينية وتسمى أيضا بالخزف والفخار "بتشديد الخاء" وصانعها هو الفخاري ويقولون بالجزائر الفخارجي "بتشديد الخاء وسكون الراء" وكانت توجد بتلك الناحية أفران الجير - ومن السباخ "بكسر السين" القريبة من مدينة وهران كانوا يستخرجون الملح وتأتي به السفن إلى مرسى الجزائر وتشتريه الحكومة وكانت تبيعه للأهالي ولكن محمد عثمان باشا جعل تجارة الملح حرة سنة 1203هـ-.

وكانت القوافل تقصد الجزائر من داخل البلاد من جرجرة والجنوب وأنحاء أخرى من وطن الجزائر وحتى من المغرب ولذا نجد بعض الأسماء كالسلاوي والتادلي "بسكون الدال المهملة وهي نسبة إلى تادلة ناحية بجنوب المغرب الأقصى" والفاسي، وتحمل هذه القوافل الفواكه والخضر والزيت وغير ذلك ، وفيها من الدواب الحمير والبغال والإبل وتقف أمام باب عزون وهو الباب الذي كانت تفترق منه الطرق وتدخل منه إلى الفنادق جمع فندق أي محل نزول المسافرين وفيه بيوت تكون عادة في الطابق وفي أسفله الاسطبلات "الكوارى" ويسمى الفندق في الشرق بالخان "بالخاء المعجمة"، والقافلة التي تصل إلى الباب ليلا فإنها تبيت خارج البلد لأنه كان من عادتهم إذا أغلقوا أبواب المدينة لا تفتح إلا في الغد- وكان خارج باب عزون ربض فيه فنادق وبناءات مختلفة وقبور، وكانت هذه قليلة جدا بالنسبة إلى ما كان يوجد خارج باب الواد وذلك

حسب الموقع الجغرفي فالفضاء كان هناك واسع ممتدا فساعدهم ليجعلوا فيه القبور الكثيرة ولم تضق الأرض فيه، وكان يرى عابر السبيل الخارج من باب عزون قبة سيدي أبي التقى الذي ينطقون به بتقى (بفتح الباء وتشديد التاء مع سكونها وفتح القاف) وكانت على حافة البحر بقرب ما كان يدعى بقاع السور يعني منتهاه أي آخر هذا السور الذي مبدؤه من باب الجديد وينحدر إلى ضفة البحر، وكانت القبة المذكورة على مرتفع من الأرض تحته البحر ومعها مسجد صغير بلا منارة (أي صومعة) وبيوت للفقراء والمرضى وميضاءات وعيون ماء.

وتصدر البلاد الجزائرية للخارج القمح والشعير والزيت والشمع والصوف والجلود والخضر ومقدار ثلاثة أو أربعة قناطير من القرمز الذي يجنى بناحية معسكر. وائصوف الذي يخرج من مرسى الجزائر إلى أوروبا يرد بالخصوص من تيطري وهي بلاد معروفة بغنمها اللذيذ لحمها، والقمح الجزائري صلب (بضم الصاد وسكون اللام) أي يابس وفيه كمية كبيرة من السميد الجيد ويستعمل للعجين ولصنع الرغيف الجاف وهو البشماط (بفتح الباء وسكون الشين) ولا يخرج القمح من مراسي وطن الجزائر إلا برخصة واذن من الداي، وقد كانت حكومة الجزائر تدخر القمح لوقت الحاجة إليه في سنوات اليبس مثلا، وهكذا في عهد عمر باشا سنة1230هـ-1815م، قل القمح وفقده الأهالي من أسواق مدينة الجزائر فإن هذا الداي أخرج من مخازن البايلك المقدار اللازم منه للاقتيات وأمر بتفريقه على أصحاب مخابز البلد ليطحنوه ويجعلوا منه الأرغفة مع تعيين وزن كل رغيف وثمن بيعه – ولا لزوم لاعادة القول بأن كل ما يباع من مأكول ومشروب وملبوس

ومصنوع سعره معين محدود، والمحتسب وأعوانه يتفقدون كل ما ذكرنا ولا يهملون شيئا.

ويعاقبون كل من لا يراعي الأسعار المعينة، وكانوا يراقبون أصحاب الدكاكين لكي لا يكون تدليس في البضائع وهو كتمان عيب البضاعة واخفاؤه عن المشتري وكالغش مثل شوب اللبن بالماء أي خلطه به كالتطفيف وهو التنقيص في الكيل والوزن بأن لا يفي البائع بهما.

ويزرع الأرز في بعض الجهات كمليانة وغيرها ويستهلك كله في وطن الجزائر - ويقتطف دخان كثير في عدة مواضع والدخان الذي بقرب مدينة الجزائر نوعه جيد وكذا دخان ناحية عنابة ويرسل منه إلى تونس وطرابلس- وكان لهم اعتناء كبير بغرس الكروم (الدوالي في اللهجة الدارجة) فكان لا يخلو بستان أو دار في فحص الجزائر من عريش، وكانوا يعصرون العنب ويجعلون منه الخل.

الواردات إلى الجزائر من الخارج - فمن فرنسا ترد القطنية (أي نسيج القطن) والحديد والمسامير والأقفال والأمواس (المواسي) والمشروبات الطبية والمعاجين والمربيات، ومن انكلترا السلاح والمدافع وبعض العتاد الحربي، ومن هولاندا الآجر والزليج الثمين، وكانت انكلترا وهولاندا تعوضان بضائعهما بالتين اليابس والشمع والتمر والجلود والصوف والزبيب (العنب اليابس) والدخان وبعض المنسوجات- وكانت تستورد الجزائر من الشرق الزرابي والخناجر والنارجيلات (جمع نارجيلة في لهجتنا الدارجة تسمى رنقيلة (بفتح الراء وسكون النون والقاف المعقودة) .

وما ذكرناه من الصادرات والواردات ليس باستقصائي وانما الغرض أن

لايفوت الأهم مما ينبغي أن يطلع عليه القراء.

كلمة عن الاصطياد في البحر بالجزائر -كانوا يصطادون السمك بقرب السواحل والسمك بها كثير ولذيذ الطعم ولعل ذلك لأن ماء هذا البحر المتوسط أكثر ملوحة من ماء المحيط الأطلسي ويعللون كثرة السمك من التيار البحري الأطلسي الذي يجتاز بوغاز جبل طارق ويسير محاذيا الشطوط الجزائرية في عرض نحو عشرة كيلوميترات ويسوق معه الأسماك المتنوعة ويسحبها إلى أن يصل إلى ناحية بجاية فينعكس مرتفعا إلى جهة جزيرة سردينية أو سردينيا، واسمها الوارد في كتب العصور الوسطى سردانية.

وجاء ذكر عدة مدن ساحلية من الوطن الجزائري في البكري من أبناء القرن الخامس الهجري وفي الادريسي من أبناء القرن السادس: عنابة وسكيكدة والقل (بضم القاف وتشديد اللام) وجيجل ودلس "بفتح الدال وفتح اللام مع تشديدها" ومرسى الدجاج وهور وتنس "بفتح التاء والنون" ووهران.

وقال البكري عن عنابة مايلي: ومدينة بونة برية بحرية كثيرة اللحم واللبن والحوت والعسل وأكثر لحمانها البقر اهـ- فقوله برية يريد أنها تستفيد من محصولات البر ومن سمك البحر الذي يصطاد ومن المراكب التجارية التي تحمل البضائع منها وإليها- وقال العبدري عن مدينة الجزائر حين زارها سنة 688هـ: قد حوت مزيتي البر والبحر وفضيلتي السهل والوعر "بفتح الواو وسكون العين أي الأماكن المرتفعة والجبال" اهـ، يعني أنها تستفيد من غلال فحوصها وسهولها وجبالها ومن أسماك ساحلها - وقال الادريسي عن هور "بضم الهاء، وهو يهور في كتاب الغزوات" هو قرية

صغيرة في وسط جون وعلى بعد من البحر وبها قوم صيادون للحوت اهـ.
فقوله على بعد يعني بعض البعد ولعل ذلك خوفا من اغارات الأجانب بغتة، وهذا الجون وفيه رملة معروف بشبه جزيرة سيدي فرج ويبعد بمسافة 27كيلوميترا غربي الجزائر- وهور ويهور أسمان أصلهما قرطاجني على غالب الظن كما ان اسم شرشال في قديم الزمان يول "بضم الياء المثناة" قرطاجني - وتنس وهي بلدة بناها جماعة من الصيادين الأندلسيين سنة262هـ-875-876م فوق ربوة، وكانوا يترددون إليها ويشتون بها ثم سكنوها وأولعوا هناك بصيد السمك إلى هذه الأيام ويستعملون لذلك الشقوف جمع شقف أي مركب شراعي وهو ما يسير بالقلوع، واليوم تسير بالمحركات "موتورات"- ويقولون أن الأندلسيين روجوا صيد السمك بضفاف البلاد الجزائرية واقتدى بهم السواحلية ولا غرابة في ذلك لأن هؤلاء النازحين لكثرتهم تعاطوا إلى أنواع الصنائع والحرف لنشاطهم ومهارتهم في شتى ميادين السعي والعمل النافع المفيد، (والسواحلية كلمة من اللهجة الدارجة جمع ساحلي وهو ساكن ساحل البحر) -وقد لقب المؤرخون الغربيون هؤلاء البحارة الأندلسيين المغامرين الجرئيين بلقب المغامرين، ويذكرنا ذلك اللقب بالقصة التي رواها الشريف الادريسي في جغرافيته عن الفتية من مدينة لشبونة وكانت اذ ذاك في حكم العرب (من سنة 711 إلى سنة 1147م)، وقد كانوا ثمانية رجال كلهم أبناء عم انشأوا مركبا جعلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم عدة أشهر واقتحموا بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) ليعرفوا مافيه وإلى أين انتهاؤه، وكان لهم بمدينة لشبونة بموضع بقرب الحمة درب منسوب إليهم يعرف بدرب

المغررين، ورجعوا إلى بلدهم بعد أخطار شديدة وأهوال، وقصوا ما شاهدوه وقاسوه على مواطنيهم الذين لم يروا فيهم إلا فتية مخاطرين بأنفسهم مغرورين (منخدعين) وعرف الدرب الذي كانوا يسكنون فيه باسمهم، ولم يخبرنا الادريس في قصة الفتية بأنه عرفهم ولا عين تاريخ سفرهم، والظاهر أنه سمع خبرهم من الناس أو قرأه في تأليف، ويقولون أن هذه القصص عن أسفار المسلمين في القرون الغابرة اطلع عليها الأوروبيون وترجموا بعضها إلى اللاتينية واعتمد عليها روادهم، وكان أحيانا الربان والدليل لسفن الغربيين عربيا ويكفينا في هذا الشأن ذكر المعلم (بتشديد اللام مع كسرها) شهاب الدين أحمد بن ماجد في القرن التاسع الهجري وكان يستعمل بيت الابرة (البوصلة) وكانت سياحاته في البحر الأحمر والمحيط الهندي وسواحل افريقية الشرقية وبها عرفه فاسكودي جاما فأوصله ابن ماجد إلى قاليكوت.

ولعل المغررين بلغوا إلى أمريكا ولكنهم لقلة عددهم وضآلة وساءلهم لم يستطيعوا الإقامة هناك فانعطفوا راجعين إلى بلدهم، ويقولون أن الفينيقيين وصلوا هم أيضا إلى أمريكا، ومن المعلوم في تاريخهم أنهم كانوا يكتمون أسرارهم خوفا من المزاحمين لهم في معاملاتهم مع الشعوب الأجنبية النائية.

الأراضي في عهد الدولة التركية -كانت للدولة أراضي تكتريها للأهالي بثمن معين يختلف حسب مواقع الأرض لأن من المعقول أن فيها الخصبة وفيها ما ينقصها الخصب، وكانت لها أراضي تحرثها على حسابها الخاص ويعمل فيها مستخدمون تحت نظر وادارة وكيل تركي، ومنها

الموات "بفتح الميم وتخفيف الواو" وهي التي لا يملكها أحد ولم ينتفع بها، وتكون عادة خالية من السكان بعيدة عن العمارة، فاذا لم يحيها أحد فهي ملك للبايلك أي الدولة.

وأما الغابات والمناجم "المعادن" ومقاطع الحجر فكانت للبايلك.

ولما كان الجند التركي قليل العدد فإن الدولة التركية أقطعت لبعض القبائل "الأعراش" والجماعات من الأهالي بعض الأراضي الزراعية تسمى بأرض المخزن، وكانت تزودهم بما يلزم من آلات الفلاحة والأسلحة للدفاع عن أنفسهم، وكان هؤلاء يجيبون نداء البايلك عند الحاجة اليهم لتوطيد الأمن والحراسة قابضي الضرائب، وهذه الأراضي والعقارات لم تكن ملكا خالصا لمن كانت بأيديهم والبايلك كان له الحق في أن يفتكها إذا لم يوف مستغلوها بالشروط التي التزموا بها، وأرض المخزن كانت تسمى بالعزل في القطاع القسنطيني.

وأرض الملك كان أصحابها يتصرفون فيها كما يشاؤون ولا مدخل للبايلك في شأنها سوى المغارم التي يدفعونها عليها.

وأرض العرش وتدعى أيضا بالأرض العروشية هي التي كانت ملكا خاصا لقبيلة "عرش" فهي ملك بالشركية لجميع عائلات القبيلة، ويسمح لكل واحد منها أن تحرث وتزرع قطعة منها سنة أو سنوات ولا تصير ملكا خالصا لها بأي وجه من الوجوه، وتدعى أرض العرش بالقطاع الوهراني سابقة "بسكون الباء وبالقاف المعقودة" وبالمغرب أرض الجماعة والحاصل أن أرض العرش مشاعة "بضم الميم" غير مقسومة فهي لأهل القبيلة أو المدشر يتوارثونها جيلا بعد جيل ليس فيها تفويت أي بيع ولا شراء ليدوم لهم

الاستغلال مدى الدهور.

والمشمل هو أيضا في معنى أرض العرش إلا أنه دونها في المساحة والاتساع، والمشمل بجنوب قطر الجزائر، وببلاد جرجرة بالخصوص، فإذا كان فيه بعض الاتساع فيحرث شيء منه ويزرع، وتكون فيه أشجار كالتين والزيتون وبعض المرعى فيقتسمون الغلة بلا نزاع.

ومن عوائد وطننا أن بعض الملاك يعطون مجانا لأحد الناس قطعة من الأرض لحرثها وزرعها وحصدها فينتفع بغلتها وتسمى هذه القطعة المعارة بالعزلة وربما تولى مالكها بكل ما ذكر تكرما منه، ومعنى هذه الكلمة ظاهر فإن صاحبها يعزلها وينحيها لمدة سنة أو أكثر من مكسوباته لأجل الاعانة والمساعدة.

ومن عاداتهم أنهم يتعاونون في الحرث والحصاد وغير ذلك كبناء دار أو ترميمها واصلاحها، يتسخرون عن طيب خاطر بلا أجرة -ويجعلون السدود في الأودية لجمع المياه وتقسيمها بينهم للسقي- وهذا العمل الذي يقومون به لمساعدة بعضهم بعضا هو ما يسمى عندنا بالتويزة.

وكانت الدولة الجزائرية تترك الأهالي وشأنهم فيما يخص مصالحهم الفلاحية مثلا فكانوا يعتمدون على أنفسهم ويتعاونون فيما بينهم إلا أنها كانت تبني قنطرة أو ترممها اذا انهدمت لمرور وحدات جندها لتفقد أنحاء البلاد أو لقمع اضطراب يقع من بعض المشوشين.

وقال ابن جزي في كتابه القوانين الفقهية في احياء الموات: ومن أحيا ارض موات فهي له، والموات هي الأرض التي لا حياة فيها ولايملكها أحد واحياؤها يكون بالبناء والغرس والزراعة والحرث واجراء المياه فيها

وغير ذلك، فإن كانت قريبة من العمران افتقر احياؤها إلى إذن الامام بخلاف البعيدة من العمران اهـ، والمراد بالإمام هو الحاكم والحاصل أن الموات كان في غاية الكثرة في قديم الزمان ثم تناقص مع امتداد العمران وزيادته طيلة العصور، ولا يخفى أن القضايا والأحكام تختلف حسب الأزمنة والشعوب ولا تبقى شؤون الحياة على حالة واحدة ولا تغيير ولكن يطرأ عليها ما يطرأ على الكائنات.

وأبو القاسم محمد بن أحمد بن جزي بضم الجيم وفتح الزاي بعدها ياء ساكنة ثم همزة وينطقون به بضم الجيم وفتح الزاي وتشديد الياء وذلك للتخفيف، كان من أهل غرناطة، تولى خطيبا بالمسجد الأعظم لتلك الحاضرة وكان فقيها حافظا مشاركا في فنون عدة، له التصانيف الكثيرة منها كتاب القوانين الفقهية، ولد سنة693هـ وكانت وفاته شهيدا بكائنة (أي وقيعة) طريف عام741هـ، وطريف بلدة ساحلية أندلسية عند بوغاز جبل طارق في الناحية الغربية وهي في أقصى جنوب القارة الأوروبية، والاسبان يسمونها طريفة (بفتح الطاء وكسر الراء).

وأبو القاسم هذا هو والد محمد بن جزي الذي حرر تقاييد الرحالة ابن بطوطة بأمر السلطان أبي عنان (بكسر العين وتخفيف النون) من أسرة بني مرين : وكان فراغه من هذه الرحلة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار في 3 ذي القعدة 756هـ - 1355م.

مساجد مدينة الجزائر

من المساجد الكثيرة التي كانت بمدينة الجزائر بقي منها الآن مايلي ذكره:

1) الجامع الأعظم: ويسمى بالجامع الكبير وهو أعظم مسجد للعاصمة ومساحته نحو مائتي ميتر مربع، وهو للمالكية إذ قبل نزول الأتراك بالجزائر لم يكن مسجد للحنفية، وتشييده يزيد بكثير على تسعة قرون كما سيبين فيما نقوله بعد وذلك ان كتابة منقوشة على المنبر الخشبي تقرأ كما يلي: بسم الله الرحمن الرحيم أتم هذا "أي هذا المنبر" في أول شهر رجب من سنة سبع وأربعمائة عمل محمد اهـ- ومنهم من قرأ "تسع" عوض سبع، وليس ذلك بعجيب فإن هذه الكتابة العتيقة طرأ عليها شيء من الطمس والابهام. وسنة 409هـ توافق عام1018م - ويقولون انه أقدم منبر في العالم الاسلامي- كما أنه توجد كتابة أخرى على قطعة رخام بقرب باب المنارة (الصومعة) ملصقة بالجدار وهي هذه الأبيات (من بحر الطويل):

السطر الأول: بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد.

السطر الثاني: لما تمم أمير المسلمين أبو تاشفين أيده الله ونصره منار.

السطر الثالث: الجزائر في مدة أولها يوم الأحد السابع عشر من ذي القعدة.

السطر الرابع: من عام إثنين وعشرين وسبعمائة وكان تمامها وكمالها.

السطر الخامس: في غرة رجب من عام ثلاثة وعشرين وسبعمائة نادي المنار.

السطر السادس: المذكور بلسان حاله الحالي أي منار حاله في الحسن كحالي.

السطر السابع: أقام أمير المؤمنين تفافحا

كساني بها حسنا وتمم بنياني

السطر الثامن: و قـابـلـني بـدر السمـاء و قـال لــي

عليك سلامي أيها القـمـر الثانــي

" التاسع: فلا منظر يسبي النفوس كمـنظـري

ألا فانظروا حسنى وبهجة تيجانـي

" العاشر: فـزاد إلا هــي رفـعـة لـمتـمـمـي

كما زاد في شأني ورفع أركـانـي

" الحادي عشر: ولا زال نصر الله حول لوائه

رفيقا له تال وجيشا لـــه ثـانـــي

فقوله: غرة أي أول شهر- لسان الحال هو ما يدل على حالة الشيء حسب ظاهره فكأن له لسانا ينطق ويقول ،،،،- التفافح جمع تفاحة وهـي كرة (بضم الكاف) من نحاس على شكل تفاحة ،وهي ثلاث في أعلـى المئذنة -التيجان جمع تاج والمراد بها أعالي المنارة، والأركان جمع ركن بضم فسكون هي الجدران والحيطان- التالي اسم فاعل من تلا يتلو تبع يتبع، يتمنى ناظم هذه الأبيات لهذا السلطان أن يكون نصر الله مـع رايته مرافقا له ومساعدا كأن هذا النصر جيش ثان أي آخر مع نفس جيشه، وهذه الأبيات في الرخامة في الجهة اليمنى للصاعد إلى المنارة التـي وقـع تشييدها من يوم الأحد17من ذي القعدة سنة 722 إلى فاتح رجب مـن سنة 723 هـ فدام البناء إذن سبعة أشهر ونصف (نوفمبر 1322 إلـــى جويليـة 1323) وكانت مدينة الجزائر في تلك الآونة من جملة ممتلكات دولـة بـني زيان وقاعدتها تلمسان تلك الحاضرة الأثرية ذات المناظـر الطبيعية الساحرة.

تولى أبو تاشفين بن أبي حمو من سنة 718إلى سنة 737هـ فكان سياسيا ماهرا صاحب حزم ونشاط يحب العلم والأدب ويكرم أهلهما، وأنشأ الدور والقصور والبساتين ولكن يعيبون عليه ميله إلى اللهو والملذات وقساوته المفرطة مع ذويه الأقربين.

ولا شك أن الجامع الكبير كانت له منارة حين بنوه وانهدمت لسبب من الأسباب فجدد بناءها أبو تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو موسى الأول، وفي شأن تاريخ بناء المسجد الأعظم ترد مسألة عويصة بلكين أو بلقين بالقاف المعقودة ولعل ذلك أولى وأفضل هو الذي جدد بناء الجزائر وكان موقعها فيه سكان ولكن كان طرأ عليها خراب وبالخصوص من جراء هجوم الفاندال والفتن على هذه الأقطار وكان استيلاؤهم عليها من سنة 429 إلى سنة 534م، وتجديد بلقين في أواسط القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي ولم نجد ذكر سنة التجديد بالضبط، والمنبر المذكور أعلاه صنعوه في أوائل القرن الخامس الهجري فهل كان ذلك حين تشييد الجامع الأعظم أو مدة بعده فهذا شيء لا نعرفه، وسعة هذا المسجد تدل على أن عاصمتنا كانت بلدة لها أهمية حينذاك لأنه من المعقول أن تكون المساجد حسب عدد السكان أو أن من بناه أراد أن يسع كثيرا من المصلين من أهل البلدة حين يمتد عمرانها ومن أهل الأنحاء المحيط بها والقريبة منها – وأبو عبيد البكري يقول في جغرافيته حين حررها سنة 460 هـ–1067م أن الجزائر لها مسجد جامع من دون أن يزيد شيئا آخر، ونحيل إلى نص البكري الذي أوردناه سالفا في هذه الصفحات – ويقولون أن يوسف بن تاشفين اللمتوني من دولة المرابطين

أوالملثمين الذي عاش نحو قرن من حوالي سنة 400إلى سنة 500هـ-1106م وحكم زهاء خمسين عاما وتلقب بلقب أمير المسلمين هو الذي بنى الجامع الأعظم بمدينة الجزائر ولكن لم نجد تحقيقا ولا قولا قاطعا في هذا الشأن وعلى كل حال لم يطل حكم المرابطين بالمغرب الأوسط (مقاطعة وهران ومقاطعة الجزائر)، ويوسف بن تاشفين الذي كان منافسا للحماديين ملوك بجاية اجتاز سنة472هـ أعمال الجزائر الغربية وأنشأ محلته بتلمسان وهي تاقرارت وبلغ إلى أسوار مدينة الجزائر فردته عنها حصونها فانثنى راجعا إلى عاصمته مراكش ودخلها سنة475هـ-1082م.

وأما أبو تاشفين عبد الرحمن الذي جدد منارة الجامع الأعظم فهو من ملوك تلمسان من بني عبد الواد ولهذا يمكن وقوع الالتباس بين هذين الاسمين: تاشفين وأبو تاشفين.

وهنا ينبغي ايراد خبر رواه المرحوم الحاج أحمد الشريف الزهار في مذكراته وهاهو نصه: جامع السيدة تسمى على اسم التي بنته وهي بنت مولاي الناصري(كذا) ملك بجاية، ولعله كانت هناك قرية ولم يكن بها مسجد فبنته للخطبة وكان مالكيا فلما بنيت البلاد (يريد الجزائر) وجمعت تلك القرى ووضعت دار الامارة بازائه جعلوا له إماما حنفيا اهـ حرفيا، فالناصر هو الذي بنى مدينة بجاية سنة460هـ في الموقع الذي كانت به القبيلة المدعوة بجاية فسماها الناصرية ولكن هذا الاسم لم يبق لها وسماها الناس بعده بجاية باسم القبيلة التي كانت تقطن هناك، ثم ماذا يريد بقوله "قرية" فانها تطلق على الضيعة أي المزرعة وعلى البلدة و على عدة دور متصلة البناء فلعل هذا المعنى الآخر هو المقصود، وقد كان جامع

السيدة الذي جدد بناءه محمد عثمان باشا بعد أن هدمته القنابل كما مرّ في ترجمة هذا الداي من أبدع الفن المعماري.

ويقولون أن سبب هدمه ليجدوا فسحة ومكانا واسعا هو انشاء بطحاء الحكومة (ساحة الشهداء اليوم) وكان محاطا بالبناءات وبازاء دار الامارة وبقرب الجامع الجديد فكان يصلي فيه حاكم الجزائر وأكابر الموظفين وجعلوا رواقا خارج الجامع الأعظم من جهة نهج باب الجزيرة يرتكز على اثنتين وعشرين أسطوانة (عرصة) من الرخام الأبيض مع فوارة، كل ذلك منتزع من جامع السيدة، وكانت وفاة الناصر سنة 481 هـ وهو أشهر ملك للدولة الحمادية الصنهاجية الحميرية، وقبيلة صنهاجة العتيدة كانت تنتمي إلى حمير وهم شعب عربي قديم كان باليمن.

وقال بعض المؤرخين ان منبر الجامع الأعظم صنعوه سنة 490هـ ولا نرى كيف توصل إلى هذه القراءة لأنه منذ مدة طويلة قرأوا هذا التاريخ 409، ويؤيده قول البكري في سنة 460هـ ان الجزائر لها مسجد جامع، وحجة هذا المؤرخ أن بناءه يشبه بناء مساجد بنيت في عهد المرابطين كالجامع الكبير بتلمسان ليست بدليل قاطع، فهذا ما ظهر لنا والله أعلم بالصواب، وقد أطلنا الكلام لأن ما أوردناه له صلة بتاريخ عاصمتنا، والحاصل أنه توالى في الحكم على مدينة الجزائر بنو زيري بن مناد الذين بنوا مدينة أشير في جبل الكاف الأخضر ثم انتقلوا في أواخر القرن الرابع الهجري إلى قلعة بني حماد في جبل معديد الذي تحرف اسمه بعد ذلك إلى جبل المعاضيد، ثم نقل الناصر عاصمتهم إلى بجاية سنة460هـ كما سبق آنفا فازدهرت بها الدولة الحمادية الصنهاجية، وفي سنة474هـ حاصر

الجزائر يوسف بن تاشفين من دون جدوى فانصرف عنها، وبعد سنين أرسل إليها قائده تاشفين بن تينعمر ففتحها بعد قتال شديد ثم عادت إلى بني حماد إلى أن قصدها عبد المؤمن الموحدي فدخلت تحت حكمه سنة546هـ ثم سار منها نحو بجاية ومملكة بني حماد (يعني قلعتهم وأحوازها) فتغلب عليها في سنة547- وأتى إلى الجزائر علي بن غانية ولم يقم بها إلا مدة قصيرة وبعده في سنة623هـ قصدها أخوه يحيآ بن غانية ثم انتقل منها ولقي حتفه شريدا سنة631هـ دامت ثورة بني غانية نحو نصف قرن ولم ينل منها الوطن إلا الخراب وتسبب منها تخريب مدن كثيرة كالخضراء وهي بلدة عين الدفلى في سهول نهر شلف ومتيجة وحمزة (البويرة) ومرسى الدجاج، ومسؤولية علي بن غانية وأخيه يحيى بن غانية (وغانية اسم أمهما وهي من أسرة المرابطين) أمام التاريخ عظيمة فانهما طلبا شيئا مستحيلا أو كاد يكون مستحيلا وهو إعادة سلطنة المرابطين فكانت نتيجة مساعيهما توهين الموحدين والتشويش عليهم ونشوء الاضطراب من جراء عصيانهم-

ولا لزوم للحديث على الولاة الذين حكموا بمدينة الجزائر فكانوا باسم الحفصيين وتارة باسم بني عبد الواد او بني مرين -وعلى كل حال لم تطل مدة هؤلاء لأن أهل الجزائر لم يستطيبوا استيلاء أي حاكم فكانت في غالب أزمانها مستقلة بنفسها متحصنة بأسوارها تدافع عن حريتها بكل شدة وعزيمة، ويقول عنها ابن حوقل حين زارها حول سنة337هـ في أيام زيري بن مناد مايلي: جزائر بني مزغنان مدينة عليها سور في نحر البحر

"أي حافته"- اهـ، فهذا ما تيسر لنا أن نقوله في تاريخ الجامع الأعظم لعاصمتنا فللقراء الكرام -إن شاؤوا- أن يتأملوا ويستنتجوا.

2) الجامع الجديد: وتسميته هذه بالنسبة إلى الجامع الأعظم لأن مدينة الجزائر كان لها قبل تشييد الجامع الجديد مساجد أخرى حنفية بناها الأتراك - ومساحته نحو 1372 ميترا مربعا وهو على شكل مساجد تركيا، وكان في موضعه مدرسة بوعنان أو المدرسة العنانية فهدموها ليتسع لهم المكان، وكان بناء الجامع الجديد بطلب الكشايرة وعلى نفقة منظمة سبل الخيرات في سنة 1070هـ-1660م-

وسبل الخيرات "وربما قالوا سبيل الخيرات" كانت منظمة "أي هيأة وإدارة" لها النظر على مساجد المذهب الحنفي والأملاك المحبسة عليها والاعانات والاسعافات التي كانت تعطى للمعوزين المنتسبين لهذا المذهب وكانت جميع النفقات "المصاريف" من كيس هذه الادارة التي انشئت في أواسط القرن الحادي عشر والسابع عشر الميلادي وبقيت إلى حوالي سنة1841- ومن البديهي أن الأحباس المالكية لأن جل الأهالي من المذهب المالكي فرأت دولة الجزائر أنه من المصلحة أن يكون لكل منهما ما يخصه وهكذا كانت تراعي مقتضيات الأحوال وتسايرها محافظة منها على مميزات المواطنين وهم الجمهور والسواد الأعظم ولذا كان ما يخص المالكية بيد مفتي هذا المذهب فكان له مكتب يتكلف بمساجد المالكية واحباسها وكانت بين يديه دفاتر مقيد فيها جميع الأوقاف وجميع الدخل والخرج فكانوا يسمون ذلك التسجيل بالوقفية، وفي سنة1843 لما بحثوا عنها فلم يجدوها عزلوا مفتي المالكية الشيخ مصطفى بن الكبابطي ونفوه

لأنه تعرض بعنف وشدة لجعل المساجد والأحباس "أو الأوقاف والمعنى واحد" تحت نظر وتصرف حكومة ذلك الوقت، ولكن بعد ذلك فانهم وجدوا نسخة من الوقفية منقوصة غير تامة كانت موضوعة عند قاضي المالكية وفي ادارة الأملاك.

وخلف المفتي المذكور أعلاه الشيخ مصطفى القاديري (بالقاف المعقودة) سنة 1259هـ-1843م، إلى سنة1273هـ-1857م - وتقلد هذا المنصب بعده في تلك السنة1273الشيخ حميدة العمالي إلى سنة1293هـ 1873م، وكان مشهودا له بغزارة المعارف وحسن الأخلاق - وخلفه في منصبه الشيخ بن الحفاف، وقد أثنى عليه الشيخ محمد بيرم في رحلته وقال أنه لقيه فرأى فيه فضائل الأخلاق مع سعة في الفقه والحديث وفنون أخرى، وأخبره عن نفسه بأنه من تلامذة الشيخ إبراهيم الرياحي الذي طالما علم بجامع الزيتونة والمتوفي سنة 1266هـ- وقد أقرأ الشيخ علي بن الشيخ علي بن الحفاف الرسم والتجويد والقراءات وبذل مجهوده في تعليمها للطلبة حرصا منه عليها لكي لا تهمل وتضيع، ودارت المحادثة بينه وبين الشيخ بيرم على الهجرة فصرح هذا الآخر بأن بقاء العالم للناس خير له من انتقاله لنفسه وقال ذلك هو المنصوص عليه في فقهنا اهـ - وقد كان انتقل بعض الناس من مدن جزائرية إلى الخارج في المدة الأولى من الاحتلال لعدة أسباب بل ينبغي أن لا يفارقوا الوطن وأن يتصدوا زيادة على التعليم للموعظة الحسنة والارشاد والنصيحة لأن العلم وحده لا يكفي فلا بد أن يكون مرفوقا بالأخلاق لتستقيم الأحوال - والشيخ محمد بيرم من أسرة تونسية نشأ فيها عدة من رجال العلم، وكان صاحب أفكار

اجتمعاعية وسياسية لم يستحسنها جميع الناس فبارح بلده وجال في أوروبا وفي قطر الجزائر والشرق، وكانت وفاته بالقاهرة سنة 1307هـ-1889م، ولم يبلغ الخمسين من العمر، له عدة رسائل وكتاب صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار- وفيه ملاحظاته على ما شاهده في بلده وفي غيره- ورجوعا للحاج علي بن الحفاف فنقول أنه كان في أوائل حياته الادارية كاتبا عند الأمير عبد القادر، ومدة بعد ذلك شغل منصب الافتاء ومنصب رئاسة المجلس الشرعي الذي كان يعقد جلساته بالجامع الأعظم، وتولى في هذه الرئاسة بعده الحاج قدور الشريف الذي كان قديما أحد ضباط الأمير في جنده، كانت وفاة الشيخ ابن الحفاف سنة 1307هـ-1889م، وعمره تسعون وقبره في ضريح الشيخ عبد الرحمن الثعالبي فرحمة الله على الجميع.

ونعود الآن إلى الجامع الجديد فمنارته علوها خمسة وعشرون ميترا ونصبت الساعة التي كانت في قصر الامارة في أعلى المنارة وتحت المئذنة سنة 1854- ومنبر هذا المسجد من الرخام الأبيض المنقوش وهو من الصنع الرفيع، وكان سابقا في جامع السيدة، وداخل الجامع الجديد -كما هو مشاهد في المساجد الحنفية- مزخرف ملون بألوان مختلفة فمحرابه مزين بالخزف البديع، ولا يرى ذلك عادة في المساجد المالكية، وفي مقصورة الشيخ المفتي مصحف أهداه السلطان العثماني إلى باشا الجزائر في القرن الثاني الهجري والسابع عشر الميلادي فوضعوه في مقصورة جامع كتشاوي وبعد هدمه سنة1845 نقلت هذه النسخة من القرآن العظيم إلى مقصورة الجامع الجديد وهي من أجود ما يكون خطا

وزخرف بالألوان والذهب بحيث أنها لا مثيل لها بشهادة أهل الخبرة والمعرفة.

جامع كتشاوى (أوكتشاوة): مسجد حنفي بنوه في السنين الأولى من القن الحادي عشر الهجري والسابع عشر الميلادي، والداي بابا حسن باشا أعاد بناءه وزاد في توسيعه سنة 1209هـ-1795م، وبعد أن كان كنيسة فهو الآن من مساجد العاصمة بعد بعض الاصلاحات والتغييرات.

جامع سافير: هو من المساجد العتيقة بمدينة الجزائر في حي الجبل، شاده القائد صفر بن عبد الله من ماله الخاص، وكان من أعيان المدينة وكانت له معرفة باللغة العربية، ودام بناؤه من شهر رجب من سنة 940هـ إلى اليوم الثاني من ربيع الأول من سنة941 يعني أنه تم في مدة تسعة أشهر وتوجد كتابة في أعلى الباب الكبير لهذا المسجد وها هو نصها بعد البسملة:

الحمد لله الذي رفع السماء وبسط الأرض وفضل بقاعها بعضا، على بعض وجعل أفضلها بقاعا تؤدى فيها النفل والفرض والصلاة والسلام على محمد الشفيع في يوم العرض وسلم تسليما وبعد فهذا مسجد عظيم ومقام كريم أسس على التقوى بناؤه وارتسمت السعادة والتوفيق أرجاؤه وأركانه أمر ببنائه الفقير إلى مولاه، مملوك مولانا السلطان الكبير المعظم الشهير المجاهد في سبيل رب العالمين مولانا خير الدين أيده الله ونصره، وهو عبد الله سبحانه صفر غفر الله ذنبه وكان ابتداؤه في شهر رجب الفرد من العام الفارط عن عام تاريخه ، والفراغ منه ثاني شهر ربيع الأول عام أحد وأربعين وتسعمائة، جعل الله ذلك خالصا إلى وجهه الكريم، اهـ

فالارتسام المراد به البناء -والارجاء جمع رجا بالتنوين أي الجهة والمراد الحيطان - والأركان المقصود بها الأسطوانات - وعبر بالسلطان عن حاكم الجزائر، وقد تقلب حكامها بألقاب عديدة - والعام الفارط أي الماضي عن تاريخه وهو عام940هـ-1534م، فينتج أن البناء كان عام941هـ-

وقد حبس خير الدين باشا مزرعة مساحتها نحو مائة هكتار بناحية سيدي يخلف بقرب سطاوالي غربي مدينة الجزائر يصرف دخلها على جامع القائد صفر بن عبد الله الكائن بالجهة العليا لمدينة الجزائر(الجبل) وأوصى بأن هذا العقار لا تجري عليه أي ضريبة، وذلك بتاريخ منتصف ربيع الأول من سنة 942هـ- سبتمبر1535- والظاهر أن سيدي يخلف المذكور أعلاه هو الذي يسمى سيدي خلف (بسكون الخاء المعجمة وفتح اللام) بقرب بلدة الشراقة (بالقاف المعقودة) بنحو كيلو ميتر عنها لقاصد الساحل.

والداي حسين باشا أعاد بناء جامع سافير سنة 1242هـ- (1826-1827)، وتوجد كتابة منقوشة في أعلى بابه الكبير من جملة مافيها قوله "جدد الرسوم" سنة 1242- وتجديد الرسوم هو إعادة البناء وذلك بأمر حسين باشا آخر دايات الجزائر- وهذا المسجد الحنفي على طراز مساجد تركيا في الجملة لم يحمل اسمه بل بقي له اسم سافير، وقد تبين مما سبق ذكره أن هذه التسمية هي محض تحريف لصفر منذ زمان بعيد كما جاء في كتاب غزوات عروج وخير الدين الذي يرجع تأليف إلي النصف الثاني من القرن العاشر الهجري، ولا نعرف عن هذه الشخصية إلا النزر القليل مع انه ورد اسمه في قصة حصار شارل كان للجزائر في شهر اكتوبر من سنة1541م- ومن المحتمل أن التسمية بصفر فيها اشارة إلى دخوله في

الإسلام في هذا الشهر، ومن المعلوم أنهم يسمون الاولاد بالشهر الذي يولدون فيه كشعبان ورمضان والمولود والميلود وعاشور.

جامع سيدي محمد الشريف الزهار: ومحمد ينطقون به بفتح الميم الأولى وهو مسجد مالكي ويسمى أيضا زاوية سيدي محمد الشريف بملتقى الطرق في حي الجبل بقرب جامع سافير.

وكان رحمه الله ممن أخذوا عن الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي دفين بلدة مليانة وذكره الصباغ في كتابه في ترجمة هذا الشيخ. وكانت وفاة سيدي محمد الشريف بن أحمد سنة 948هـ-(1542-1543م)، وجعل له قبة سبط سبطه أي ولد ولده كما هو مسطور في الكتابة التي بقرب الضريح ولا زالت أسرته إلى هذه الأيام، والوكيل يختار من بين أعضائها، وكانت هذه الزاوية محل دراسة وتعليم، ويقام فيها درس في التوحيد في ليالي رمضان.

وبمناسبة ذكر كلمة "زاوية" فإنها كانت تدل أحيانا على محل تلقى فيه دروس للطلبة الكبار بخلاف المسيد فهو الكتاب (بضم الكاف وتشديد التاء وهو مفرد) يتعلم فيه التلاميذ القرآن العظيم وقد تكون الزاوية ملجأ للطلبة أوالعلماء الغرباء يجدون فيه المأوى مجانا وما يحتاجون إليه من الماء الشرب والوضوء، وتكون الزاوية في بعض الأحيان ضريح عالم أو رجل صالح ومعه مسجد.

- زاوية الجامع الكبير-كانت بازائه بنهج باب الدزيرة (الجزيرة) مشتملة على مسجد بدون منارة ومدرسة للصغار وطابقين فيهما بيوت للعلماء الغرباء أو الفقراء منهم الذين لا مأوى لهم، وكان في أسفلها الماء اللازم للشرب

وللوضوء وعدة محلات للذين يعملون بالجامع الاعظم، وقد وقف على بناء هذه الزاوية المفتي المالكي الشيخ سعيد بن الحاج ابراهيم مما قبض بيده من دخل أحباس الجامع الكبير بعد طرح جميع المصاريف وذلك سنة1039هـ-1630.

وكان بقرب هذه الزاوية مسجد صغير يقال له جامع سيدي عبد الرحمن الثعالبي، ولا يعرف من الذي بناه ولا تاريخ بنائه وعلى كل حال فإن دار سكنى الشيخ كانت بحذائه - وقد سلف القول بأن معظم الحي المدعو حومة باب الدزيرة ما بقي منه إلا القليل من البناءات، وكان مايلي منها أعيد تشييده منذ زمان على النمط الافرنجي- وفي لهجتنا كلمة جامع أكثر استعمالا من كلمة مسجد.

وقد لاحظوا أن تشييد جامع سافير وتشييد جامع سيدي محمد الشريف بعده بنحو سبع سنوات هما في موقع من الجزائر كان خاليا أوكاد يكون خاليا من السكان حينذاك، ومن المحتمل أن ما كان في الجهة العليا منهما كان فيها منازل وخيام، ولعلهم اختاروا ذلك الموضع لاتساعه عوضا عن الناحية السفلى من البلد القريبة من ضفة البحر ولأنهم كانوا يتوقعون أن البلدة ستمتد على سند الجبل فيتيسر للحنفية والمالكية أن يقضوا صلواتهم ويقيموا دروسهم، ومن العوائد القديمة المأثورة في الإسلام أن المساجد للديانة والتعليم.

- مسجد سيدي رمضان: مسجد جامع وهو من أقدم مساجد مدينة الجزائر، ولم توجد فيه كتابة تدل على تاريخه ولم يذكر المؤرخون شيئا عنه في هذا الشأن، ولعل الجامع الكبير أسبق منه في الوجود، وهو بقرب

الموضع الذي كانت فيه القصبة القديمة بمرتفع من الأرض وتقابل البحر ولم يبق منها الآن إلا شيء ضئيل من الأثر، (والقصبة بمعنى الحصن والقلعة والمعقل ألفاظ مترادفة) - واستغنى الأتراك عن القصبة القديمة وشيدوا قصبة أخرى في مكان أعلى منها وغير بعيد عنها- ومن خاصية هذا المسجد المالكي أنه مغطى بالقرميد (القرمود) الاحمر الموضوع على صقوف تسعة ذات جانبين متقابلين كما يشاهد ذلك ويرى في الجامع الاعظم، وقالوا ان هذا الوضع يدل على انه من تشييد أهالي بلادنا في العصور الغابرة لانهم كانوا هكذا يصنعون، وفي داخله سدة من خشب مرتكزة على ثمانية عشر أسطوانة من رخام على صفين وهي سدة مخصصة للنساء - وهذا المسجد بسيط جدا ليس فيه أدنى زخرفة ولا نقش، وله منارة قليلة الارتفاع وله مصلى وبيت صغير فيه قبر الشيخ سيدي رمضان- وكانت تلقى فيه دروس منها درس في التوحيد ودرس في الحساب والتوقيت.

- جامع القصبة البراني: (بتشديد الراء) يعني خارج القصبة وهي القصبة الجديدة التي شرع في تشييدها عروج بعد استقراره بمدينة الجزائر وأقامت بها طائفة من الجند إلى أن انتقل إليها الداي علي خوجة (1233-1234هـ) و1817-1818م، وهو مسجد صغير مقابل لباب القصبة وله منارة قليلة الارتفاع، وكان في حالة بالية وقدم فجدده حسين داي ووسعه في سنة1233هـ-و1817-1818م، وكان يصلي فيه موظفوا القصبة وغيرهم.

- مسجد داخل القصبة: هو جامع خطبة واسع وأنيق متقن البناء لـه

أسطوانات من رخام وقبة وقد بناه الداي حسين باشا المذكور آنفا سنة 1234هـ (1818-1819م).

- جامع سيدي بوقدور :(بالقاف المعقودة)، مسجد صغير للصلاة وهو مدرسة قرآنية من قديم الزمان وبناؤه يرجع إلى أواسط القرن العاشر الهجري، وموقعه بنهج كوشة الخندق في حومة الجبل.

- جامع سيدي عبد الله بالنهج المسمى باسمه حوانت سيدي عبد الله الذي لا يعرف عنه شيء محقق وهو مسجد صغير، وكان قديما يدعى بجامع سيدي شعيب، ولعل عبد الله هذا كان وكيلا أو ملاكا هناك.

- جامع سيدي بن علي: هو الشيخ محمد بن محمد بن علي، وضريحه في مقبرة صغيرة، وهو بنهج نفيسة وهي بنت الداي حسين باشا دفنوها خارج الضريح، والمسجد يصعد اليه بدرج من زنقة نفيسة وليست له منارة وجعلوا منه مدرسة قرآنية منذ زمان بعيد، واما الشيخ محمد بن علي فهو عالم جزائري شهير تولى الافتاء الحنفي من سنة 1150الى سنة 1169هـ.

- جامع ابن رقيسة - (وينطقون به بالرقيسة بفتح الباء وسكون الراء وكسر القاف) وهو مسجد صغير ومدرسة قرآنية.

- ونذكر من الزوايا "الزوي" التي كانت بمدينة الجزائر زاويتين للأهمية التي كانت لهما: زاوية سيدي أحمد بن عبد الله الزواوي الجزائري فالزواوي نسبة الى قومه قبيلة زواوة في جرجرة والجزائري نسبة إلى مدينة الجزائر لأنه ولد بها أو لسكناه بها مدة طويلة وكانت هذه عادة الأسلاف، وهذه الزاوية كانت تشتمل على مسجد وبيوت للعلماء بالنهج المسمى بسوق الجمعة ف:ي دار طرأ عليها تغيير كبير وتبديل فزال

عنها شكلها الاصلي، والشيخ أحمد بن عبد الله من أبناء القرن العاشر الهجري وتوفي سنة 884هـ- فكان معاصرا للشيخ عبد الرحمن الثعالبي المتوفى سنة 875هـ- وقد نقل أحد الجزائريين رفات الشيخ أحمد بن عبد الله منذ زمان من رمسه إلى بستان له في حومة بير الطريرية "العين الباردة" ثم نقل بسعي المرحوم يحيى الاكحل سنوات بعد ذلك إلى مقبرة مدينة الأبيار بقرب مقبرة سيدي مرزوق "بالقاف المعقودة"، تعظيما لهذا العالم واعترافا بفضله، وسيأتي باقي ترجمته فيما بعد.

- زاوية الأندلس: لما التجأ الأندلسيون الذين بارحوا بلادهم وبالخصوص إلى افريقية الشمالية وإلى مدينة الجزائر فإنهم أحسوا بضرورة انضمامهم لبعضهم بعضا ومعاضدتهم ليكون ذلك عونا لهم على تقلبات الزمان ونوائبه لتكون بينهم رابطة تجمعهم في أرض غربة ولو هم مع أبناء جنسهم ودينهم ومن المعقول أنهم كانوا يمتازون عن مواطنيهم الجدد بعوائدهم الخاصة وأخلاقهم وسيرتهم.

وفي سنة 1033هـ- 1623م اجتمع عدة أندلسيين من أهل صناعات مختلفة واشتروا دارا من مالهم الخاص مع اعانة بعض أندلسيين آخرين بقصد هدمها وبناء زاوية في موضعها للدروس العلمية للكبار وتعليم القرآن العظيم والمبادي للصغار مع اضافة مسجد فيها لأداء الصلوات وما يلزم لذلك، وحسبوا كل ذلك لجماعة الأندلسيين النازحين وإذا شئت قلت لجاليتهم بالعاصمة، وعينوا واحدا منهم وضعوا فيه أمانتهم وثقتهم واسمه محمد الآبلي (بكسر الباء وهي نسبة لبلدة آبلة بالأندلس) وفوضوا له العناية بهذا الوقف في جميع شؤونه وما يتعلق به من دخل وخرج وقبض التبرعات

واسعاف المعوزين من الأندلسيين، ودامت هذه الزاوية قائمة بمهمتها الى سنة 1843 فبيعت وكانت بسوق السمن في الجهة السفلى من نهج باب الجديد ولعلها هي الدار التي تحمل الآن رقم8 في النهج المذكور ولكن ليس عندنا تحقيق ولا حجة قاطعة.

وقد سلف القول قريبا بأن في نفس تلك السنة 1843 صار التصرف على جميع البناءات الدينية من مساجد وغيرها والأوقاف عليها بيد ادارة الأملاك عوضا عن الوكلاء ومن كان لهم التفويض عليها وانتقل كل ذلك إلى الميزانية العامة للوطن الجزائري وانخرط في حسابها، وهذا بالأمر الوزاري بتاريخ27 مارس1843ثم تم التطبيق في شأن المعاهد الدينية والأوقاف المختلفة من دور ودكاكين للتجارة ومزارع بالأمر الصادر من الوالي العام للجزائر بتاريخ 3أكتوبر 1848.

– زاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي –دفنوا الشيخ عبد الرحمن الثعالبي خارج باب الواد في مكان مرتفع، والظاهر أنهم جعلوا على رمسه قبة صغيرة ولكن مدة بعد ذلك رفعوا البناء وزادوا فيه، والزاوية كما نشاهدها اليوم أمر ببنائها الأمير الحاج أحمد بن الحاج المصلي سنة 1108هـ – 1696م، حسبما هو مسطور فوق باب الضريح، والمراد بالأمير هو حاكم الجزائر، وكان من سياسة دولة الجزائر أن يعظموا شخصية كالشيخ عبد الرحمن الثعالبي الذي اشتهر في الاوساط الافريقية والشرقية وكانت اقامته بمدينة الجزائر مع ما كان متحليا به من الاخلاق وبذل معارفه مما زاد في ترقيتها وتشهيرها وقد قصده جملة من الطلبة أبقوا اسما مذكورا بعدهم كما سيأتي في ترجمته.

وتشتمل زاوية الشيخ الثعالبي على مسجد صغير له منارة أنيقة مربعة الشكل وقبة قبر الشيخ عليه تابوت كما هي العادة وعدة بيوت ومرافق وسكنى للوكيل متصلة بالمسجد، وفي الضريح قبور لعمر باشا ومصطفى باشا والحاج علي بن الحفاف - وفي الخارج قبور أخرى كثيرة في أرض كبستان منها قبور شيخنا الفقيه محمد السعيد ابن زكري وشيخنا عبد الحليم بن سماية وشيخنا اللغوي محمد بن شنب وصديقنا الرسام عمر رسيم، وفي حظيرة لها باب مغلق قبر أحمد باي قسنطينة المتوفي بالجزائر سنة 1850.

ترجمة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي: اذا ذكرنا عهد الجزائر القديم فانه يجب ذكر الشيخ الثعالبي فان هذا العالم الورع النزيه كان من جهة الأخلاق في أعلى مقام ونحن إذا كنا نحتاج الى كثير من العلم فاننا نحتاج أيضا كثير من الأخلاق وبها تكمل قيمة المرء، ويروى عن الامام علي أنه قال لا قرين كحسن الخلق ولا تجارة كالعمل الصالح (أي النافع المفيد) يقول الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في كتابه الجامع الذي ذيل به شرحه لمختصر ابن الحاجب الفرعي ما نصه: وينبغي لمن ألف أن يعرف بزمانه وبمن لقيه من أشياخه فيكون من يقف على تأليفه على بصيرة من أمره ويسلم من الجهل، وقد قل الاعتناء بهذا المعنى في هذا الزمان وكم من فاضل انتشرت عنه فضائل جهل حاله بعد موته لعدم الاعتناء بهذا الشأن اهـ، ويقول في موضع آخر في نفس هذا التأليف ما يلي: وقد اشرت الى تعريف رحلتي في طلب العلم في كتابنا الجواهر الحسان المنظمة في تفسير القرآن عند ختمي لتفسير سورة الشورى ولنعد ذكره الآن لتشوف النفوس الى معرفة المؤلفين فأقول مستعينا بالله سبحانه: رحلت في طلب

العلم من ناحية الجزائر من موضع يقال له يسر وهو واد مشهور هنالك وذلك في أواخر القرن الثامن ثم تناهت بي الرحلة الى بجاية فدخلتها عام اثنين وثمانمائة (802)فلقيت بها الأئمة المقتدى بهم في علمهم ودينهم وورعهم أصحاب الشيخ الفقيه الزاهد الورع أبي زيد عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي وأصحاب أبي العباس أحمد بن إدريس وهم يومئذ متوافرون أهل ورع ووقوف مع الحدود وسلك أتباعهم وطلبتهم مسلكهم منهم شيخنا الامام الحافظ أبو الحسن علي بن عثمان المانجلاتي وعليه كانت عمدة قراءتي ومنهم الفقيه المحقق أبو الربيع سليمان بن الحسن وعليه كانت عمدة تجويدي للقرآن ومنهم شيخنا أبو الحسن علي بن محمد البليلتني وشيخنا علي بن موسى وشيخنا المشدالي وشيخنا أبو العباس أحمد النقاوسي حضرت مجالسهم ثم دخلت تونس عام تسعة أو عشرة وأصحاب ابن عرفة متوافرون فأخذت عنهم كشيخنا أبي مهدي عيسى الغبريني وحيد زمانه علما ودينا وورعا وإليه كانت الرحلة في زمانه وشيخنا أبي القاسم البرزلي (بضم الباء وسكون الراء وضم الزاي) وغيرهم وأكثر عمدتي على الابي (بضم الهمزة وتشديد الباء مع كسرها وتشديد الياء) ثم رحلت الى المشرق ودخلت مصر فسمعت البخاري على البلالي وكثيرا من اختصار الحياء (للغزالي) له وحضرت مجلس شيخ المالكية بها ابي عبد الله البساطي (بكسر الباء وتخفيف السين) وحضرت كثيرا عند شيخ المحدثين بها ولي الدين العراقي وأخذت عنه علوما جمة معظمها علم الحديث ثم رجعت لتونس فاذا في موضع الغبريني الشيخ أبو عبد الله القلشاني خلفه فيه عند موته فلازمته، وأخذت البخاري الا يسيرا عن

البرزلي وحضرت أيضا شيخنا الابي ثم قدم تونس شيخنا ابن مرزوق عام 819 فأقام بها نحو سنة فاخذت عنه كثيرا وسمعت عليه الموطا وأخذت عن غيرهم اهـ- وتآليفه فكثيرة كتفسيره الجواهر الحسان في غاية الحسن اختصر فيه تفسير ابن عطية الأندلسي وهو عبد الحق بن عطية الغرناطي، وفي مقدمة عبد الرحمن بن خلدون في كلامه عن التفسير يعد القول عن الأساطير والأخبار الواهية قال مايلي: وجاء (يعني بعد المفسرين الذين أوردوا هذه الأقاصيص) جاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب فلخص تلك التفاسير كلها وتحرى ماهو أقرب الى الصحة منها (يريد أنه اختار وفضل) ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى اهـ، وزاد الشيخ الثعالبي في تفسيره المذكور أعلاه زوائد وفوائد كثيرة، وله روضة الأنوار ونزهة الأخبار وهو قدر المدونة فيه لباب من نحو ستين من الأمهات المعتمدة وهو خزانة كتب لمن حصله (بتشديد الصاد أي اكتسبه) قال وجمعته سنين كثيرة فيه بساتين وروضات اهـ- والعلوم الفاخرة في أحوال الآخرة في مجلد كبير وشرح مختصر ابن الحاجب الفرعي (يعني في الفروع وهي المسائل الفقهية كمختصر خليل) في سفرين جمع فيه نخب كلام ابن راشد وابن عبد السلام وابن هارون وخليل وغرر ابن عرفة مع جواهر المدونة وعيون مسائلها وفي آخره جامع كبير نحو عشرة كراريس فيه فوائد، وجامع الأمهات في احكام العبادات -وتحفة الاخوان في اعراب بعض آي القرآن- والذهب الابريز في غرائب القرآن، فمصنفاته ليست بالقليلة وذكر جميعها في فهرسته وهي المجموع الذي يقيد فيه صاحبه ترجمته ويذكر دراساته

واسماء مشيخته مع شيء عن حياتهم وصفاتهم واسماء مصنفاتهم، وفي بعض الفهارس توجد أخبار تاريخية - وتوفي الشيخ عبد الرحمن الثعالبي سنة875 فعمره نحو تسعين سنة كما ذكره السخاوي من أبناء القرن التاسع وأحمد زروق (بفتح الزاي وتشديد الراء مع ضمها) المتوفى سنة899 ببلدة مسراتة بليبيا - وذكر الشيخ عن نفسه أنه في عام841 ابن55 أو56 سنة - وأخذ عنه جماعة منهم محمد بن محمد ابن مرزوق الكفيف و محمد بن يوسف السنوسي وأخوه لأمه علي التالوتي "بضم اللام"و محمد بن عبد الكريم المغيلي- وهؤلاء الأربعة من أبناء تلمسان فمحمد ابن المرزوق الكفيف من أسرة المرازقة وعرفوا بفضلهم وعلمهم وتوفي سنة 901هـ- ومحمد بن يوسف السنوسي له التصانيف المشهورة في العقائد "التوحيد" المتداولة وتوفي في جمادى الثانية سنة 895هـ- وأخوه لأمه علي بن محمد التالوتي الأنصاري قرأ عليه اخوه محمد السنوسي في صغره رسالة ابن ابي زيد القيرواني كان عالما نقيا شريفا في نسبه واخلاقه وتوفي في صفر من سنة 895 - ومحمد بن عبد الكريم المغيلي كان عالما جدليا نظارا له التصانيف الكثيرة وتوفي بتوات سنة 909هـ- ونسبته الى مغيلة وهي قبيلة.

وهنا لابد من الإلمام بمسألة تاريخية وقع فيها خلاف وهي مسألة أصل الثعالبة الذين ينتسب اليهم الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، يقول الشيخ محمد بوراس في تاريخه مايلي مع بعض التصرف والاختصار ولكن مع المحافظة على المعنى المقصود : ومن العرب الذين هاجموا هذه الأوطان الافريقية عرب معقل وهم يزعمون أنهم من ولد جعفر بن أبي طالب و ليس

ذلك بصحيح لأن أهل البيت لم يكونوا أهل بادية ونجعة والصحيح والله أعلم أنهم من اليمن من معقل بن كعب بن عليم (بصيغة التصغير) بن جناب (بفتح الجيم وتخفيف النون) من بني قضاعة (بضم القاف) أو من معقل بني ربيعة من مذحج (بفتح الميم وسكون الذال المعجمة وكسر الحاء المهملة) وهو الأنسب قاله ابن خلدون، ومن معقل الثعالبة الذين هم بمتيجة وكانوا ملوكا عليها واستمر ملكهم بها الى آخر المائة الثامنة فحاربهم أبو حمو من بني عبد الواد ملوك تلمسان وسباهم فاندثروا، قال الشيخ بوراس: ومنهم الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الى آخر ما ذكر من أجداده حتى انتهى بنسبه الى جعفر بن أبي طالب، هذا نسب الشيخ رضي الله عنه المنقول عنه كثيرا وقد علمت عن قريب ما يخالفه والله أعلم، ثم بعد ذكر تاريخ وفاته قال: ودفن سيدي عبد الرحمن فوق طريق باب الواد

وقبره في غاية التعظيم والتنويه من ملوك الجزائر اهـ- المنقول من كلام الشيخ بوراس- وقوله من ملوك الجزائر يريد بهم الدولة التركية بها - هذا ويقول الشيخ محمد بن الحسن الحجوي في كتابه الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ما نصه: ونسب الشيخ عبد الرحمن الثعالبي الى الثعالبة بوطن الجزائر وهي قبيلة شهيرة من عرب معقل، والجعفري الى جعفر بن أبي طالب، وينسب أيضا زينبي نسبة الى زينب بنت علي بن أبي طالب وفاطمة البتول "بفتح الباء وضم التاء العفيفة"، وزينب كانت زوجة عبد الله بن جعفر رضي الله عنهم اجمعين اهـ- وأبو طالب عم رسول الله عليه السلام، وتزوج عبد الله بن جعفر بن ابي طالب بنتي عمه علي بن ابي طالب:

زينب ثم فاطمة اختي الحسن والحسين- قال ابن حزم في كتابه جمهرة النسب ان بمتيجة وسوق حمزة بالجزائر جعافرة من ابناء جعفر بن الحسن المثنى "بضم الميم وفتح الثاء المثلثة وتشديد النون مع فتحها" بن علي بن ابي طالب اهـ- وحمزة بلدة البويرة الحالية.

ونقول ان الشيخ عبد الرحمن الثعالبي سواء كان من نسل الإمام عليام لا فان اخلاقه وعلمه واعماله الصالحة وخدمته الخالصة لمواطنيه تكفيه شرفا وتعظيما هو به جدير، ويقولون انه تولى القضاء بالجزائر ومشيختها ولكنه تخلى عنهما وفضل القيام بالتعليم وهذا من حسن الاختيار فالقضاء والمشيخة راى انه موجود من يقوم بهما ولكن بقي في وسعه ان يصلح بين الناس ويرشدهم لما فيه الخير والفلاح.

ولد الشيخ الثعالبي بمحل سكنى والديه بواد يسر "بفتح الياء وتشديد السين مع فتحها" وبعد غيبته الطويلة في طلب العلم استوطن عاصمتنا، والظاهر انه قرأ اولا على اشياخ ناحيته ثم رغب في الزيادة فارتحل بقصد التحصيل كما كانت العادة في تلك العصور، ويروى انه بعدما دخل الى الجزائر مر بزقاق فسمع ولدا في مكتب "مسيد" يقرأ هذه الآية "بلدة طيبة ورب غفور" فقال هذا فأل حسن فأقام بالجزائر ولم يتحول منها – ولا شك انه كان من الرجال النبهاء العظام، قصده الى الدراسة والقراءة عليه طلبة العلم وصار بعض منهم من اشهر علماء قطر الجزائر ولا شك انهم وجدوا فيه في آن واحد المعلم الماهر والمربي الكبير المجرب، ذكره السخاوي في كتابه الضوء اللامع في في تراجم علماء القرن التاسع واثنى عليه، قال عنه مايلي: كان إماما علامة مصنفا اختصر تفسير ابن عطية في جزئين

وشرح ابن الحاجب الفرعي في جزأين وعمل في الوعظ والرقائق وغيرها اهـ وقوله الرقائق هي المواعظ والكلام اللين الذي ترق له النفوس وتميل- وترجم له الشيخ احمد بابا التنبكتي في كتابه نيل الابتهاج بتطريز الديباج الذي فرغ من جمعه في جمادى الأولى من عام خمسة والف"1005" بمدينة مراكش قال: وهو ممن اتفق الناس على صلاحه وإمامته اثنى عليه جماعة من شيوخه بالعلم والدين والصلاح كالامام الابي والولي العراقي والامام الحفيد ابن مرزوق وقد عرف هو بنفسه في مواضع من كتبه اهـ- وابراهيم ابن فرحون اليعمري "بفتح الياء وسكون العين وفتح الميم"، لـه كتاب الديباج المذهب في اعيان المذهب "المذهب المالكي" فيه نيف وثلاثون وستمائة ترجمة، وهو اندلسي الأصل وتوفي بالمدينة المنورة سنة493هـ- واكمله احمد بابا.

ويقولون انه كان إماما خطيبا بالجامع الأعظم ولا زال المنبر وعصا الخطبة موجودين الى الآن، وكان يسكن في دار قرب هذا المسجد وبازائه ومعها مسجد صغير باسمه كلاهما هدما مع ما هدم من البناءات الأخرى.

طالت أسفاره زمانا في الأقطار النائية وبالخصوص بالنسبة الى تلك الأزمان لصعوبة المواصلات فيها ثم عاد الى وطنه واستقر بجزائر بني مزغنى قاعدة مملكة عشيرته الثعالبة حينذاك واعظا ومعلما وهو ذلك الرجل الرفيع الاخلاق العالي الهمة، قلنا آنفا ان تصانيفه كثيرة ولم يطبع منها الا أقل القليل ككتاب العلوم الفاخرة والجواهر الحسان في تفسير القرآن المطبوع بالجزائر في أربعة أجزاء، وتراه يقول في فاتحة تفسيره

مـايلي: فاني جمعت لنفسي ولك في هذا المختصر ما أرجو أن يقر الله به عيني وعينك في الدارين فقد ضمنته بحمد الله المهم مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية وزدته فوائد جمة من غيره من كتب الأئمة وثقات أعلام تاليف وما منها تأليف الا وهو منسوب لإمام مشهور بالدين ومعدود من المحققين، وكل من نقلت عنه من المفسرين شيئا فمن تأليفه نقلت وعلى لفظ صاحبه عولت، ولم أنقل شيئا من ذلك بالمعنى خوفا من الوقوع في الزلل وانما هي عبارات وألفاظ لمن أعزوها اليه،،، الى أن قال: ومن أشكل عليه لفظ من هذا المختصر يعني الجواهر الحسان فليراجع الأمهات المنقول منها فليصلح منها ولا يصلحه برأيه وبديهة عقله فيقع في الزلل من حيث لايشعر، وجعلت علامة التاء لنفسي ومن شاء كتبها (قلت) اهـ ثم انه ذكر بعد ذلك الحروف التي يرمز بها الى المؤلفين كالعين مثلا لابن عطية الخ- ويقول الشيخ في خاتمة تفسيره: وكان الفراغ من تأليفه (أي جمع مواده) في الخامس عشر من ربيع الأول من عام ثلاثة وثلاثين وثمانمائة (833).

وقد ذيل تفسيره بقاموس للألفاظ الواردة فيه فكان صنيعه من أجل ما يعين الطالب المستقي منه، وعن هذا المعجم المختصر كما سماه يقول الشيخ الثعالبي: لما يسر الله على اكمال هذا المختصر (يعني الجواهر الحسان) وفرغت من تصحيحه وكثر الراغبون بحمد الله في تحصيله سألني بعض اخواني ان ألحق به شرح ما وقع فيه من الغريب ليتم بذلك مقصودالكتاب والله الموفق بفضله للصواب فأجبته الى ذلك وزدت فيه بيان ألفاظ وقعت في غيره يكثر في اللسان دورانها ويفتقر الطالب الى معرفتها وجلها مما وقع في الموطإ والبخاري ومسلم وغيرها من الكتب

الستة اهـ المنقول- وقد طبع هذا المعجم على حدة ليسهل تناوله، واعتنى بتصحيح طبعة التفسير والمعجم مع ضبط مفرداته اللغوية والتعليق في أسفل الصفحات الأديب المرحوم محمد بن مصطفى ابن الخوجة المتوفى سنة1917 الدفين بروضة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، وكان طبع الجواهر الحسان من سنة 1323 الى سنة1327 والمعجم سنة 1328 بالجزائر.

ونقول زيادة للفائدة ان القاضي ابا محمد عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي (بضم الميم وكسر الراء وهي نسبة الى محارب قبيلة عربية) الغرناطي توفي بلورقة (بضم اللام) بين غرناطة ومرسية سنة 546هـ، كان قائما بفنون عديدة وتوخى الحق وعدل في الحكم وأعز الخطة ونال تفسيره صيتا هو به جدير، وكان يقرأ ويدرس ببجاية في القرن السابع على ما في عنوان الدراية للقاضي الغبريني المطبوع بالجزائر بعناية شيخنا المرحوم محمد بن شنب - ومن تآليفه المختار من الجوامع في محاذاة الدرر اللوامع في اصل مقرإ الإمام نافع وهو شرح له على منظومة عبد الله بن بري النحوي اللغوي الثقة المتوفى سنة 582هـ.

وقد طبع هذا الشرح أيضا بالجزائر الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الجعفري الثعالبي المتوفي سنة 875هـ خلافا لما هو مكتوب على ضريحه (873) كان رجلا ثقة متعمقا في علوم الدين كثير الاطلاع على اشهر الكتب مع حسن الاختيار، كان صادقا في قوله وعمله فتراه دائما يذكر المؤلفين الذين ينقل عنهم مع قلة تلك السجية في بعض الأناس يبدي رأيه مشيرا الى ذلك بكلمة قلت.

ونقول آخرا ان الرحالة عبد الباسط بن خليل تحدث عن الشيخ عبد الرحمن

الثعالبي حين اجتاز بمدينة الجزائر في شهر ذي القعدة 868هـ1464م، قال: ثم رحلنا من بجاية فدخلنا الجزائر وتبركت بسيدنا الشيخ الولي العالم العلامة الشهير الخطير الكبير سيدي عبد الرحمن الثعلبي (كذا) وسمعنا شيئا من فوائده وسألته بعض أسئلة كانت تشكل علي فأفادنيها على أحسن وجه وأتمه ورأيت تفسيره وقرأت عليه من أوائله بعض سطور وأجازني رحمه الله تعالى ثم رحلنا من الجزائر،

قوله الثعلبي هو في الحقيقة الثعالبي - والمراد بالفوائد هي المسائل العلمية أو الدروس، وكان عبد الباسط قبل دخوله الى الجزائر قد مر ببجاية ولقي بها الشيخ ابا القاسم محمد المشدالي وأخبر أنه سمع الكثير من فوائده، والمشدالي (بفتح الميم والشين مع تشديد الدال المهملة) هي نسبة الى مشدالة قبيلة بدائرة بني منصور في الناحية الشرقية من قطر الجزائر.

وهناك يناسب ايراد بعض جمل من رحلة عبد الباسط لها تعلق ببعض أحوال بلادنا في تلك العصور- قال: وفيه (أي في شهر صفر من سنة871هـ) في يوم تاسع عشرينه ورد الى ساحل مدينة وهران شونية عظيمة من مراكب الفرنج الجنويين برسم الاتجار في الجوخ وكانت وردت من المحيط الأطلسي من بلاد أفلندة ونحوها من بلاد الفرنج بالمحيط وتجهز كثير من تجار وهران وتلمسان للسفر فيها الى جهة بلاد تونس وتجهزت أنا أيضا لذلك وعزمت على العود لهذه البلاد بعد دخول تونس وغيرها من البلاد، وفيه (أي في شهر ربيع الأول) في حادي عشره، ركبت في بحر الملح في الشونية الماضي ذكرها وأقلعنا الى جهة تونس

وفيه في يوم السبت رابع عشره غلن علينا الريح وسكنت فمنعنا فيه من السفر فعملت النواتية البحارة فيه بالمقاديف وكانت المركب مثقلة فقل سيرها النهار كله فلما كان عند العصر دخلنا الى ساحل البر بالقرب من بجاية ونزلنا من المركب فوجدنا طائفة من بربر تلك النواحي والجبال فلما رأونا فروا عنا وظنوا أن هذه المركب لقرصان الفرنج وانهم غيروا هيئاتهم حيلة لأخذ المسلمين فصرنا نصيح عليهم من البعد ونكلمهم بالعربي ونقر بالشهادتين وهم لا يلتفتون الينا ولا يعرجون علينا لكونهم لا يعلمون باللغة العربية بل البربرية فلا يفرقون بين لغة الفرنج والعرب فعجبت أنا من هؤلاء ثم لما دخلنا بجاية في ثاني هذا اليوم وجدنا الخبر عندهم بأن مركبا من مراكب الفرنج قد تزايا فيها أهلها بزي المسلمين حيلة لأخذ المسلمين وظهر الحال لأهل بجاية بأننا هم أولئك ثم طابت رياحنا فسرنا من بجاية.

قوله تاسع عشرينه هو يوم التاسع والعشرين من الشهر المذكور- واهران بالاف بعد الواو وهذا دليل على دليل على أن الواو ينطقون به مفتوحا لا مكسورا - برسم أي بقصد- شونية: نوع من المراكب كبيرة، وترى عبد الباسط يستعمل المركب اسما مؤنثا لآنه بمعنى السفينة، ويستعمل في الغالب مذكرا- والشونية وكذلك الشونة والشيني والشاني وجمعها الشواني بتخفيف الياء وتشديدها- تزايا: على وزن تفاعل، والمستعمل المأنوس هو تزيا بفتح التاء والزاي وتشديد الياء على وزن تفعل أي لبس- طابت الريح أي تحسنت.

اشار عبد الباسط الى تجارة الجوخ (بضم الجيم وهو الملف) الذي

كان أهل البندقية وبالخصوص أهل جنوة يجلبونه من افلندة (بلجيكا) ويقصدون بعض مراسي افريقية الشمالية كوهران وبجاية وتونس لبيعه ودامت هذه المعاملات التجارية عدة قرون ولم تمنع القرصنة منها وكان المسلمون يسافرون في المراكب الافرنجية ويذهبون الى الشرق وبالخصوص الى الأسكندرية ولم يروا في ذلك أي مانع.

والأسطر التي أوردناها من كلام الرحالة عبد الباسط هي من كتابه "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم" في تاريخ الدول الاسلامية وخصوصا مصر وسورية ولم يبق منه الا بعض الأجزاء.

والكاتب حينما يقص التاريخ يدون أخبار رحلته للمدن التي زراها وتعبيره حلو وهو سهل يحاذي في كثير من الأحيان اللغة الدارجة، وعلى كل حال فالمعلومات التي يأتي بها مفيدة لمعرفة كثير من أحوال حياة تلك الفترة من الزمان في هذه الأقطار.

وعبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطي الحنفي ولد بملطية "بلدة على نهر الفرات التركية" سنة 844هـ-1440م، وكان أبوه خليل بن شاهين الظاهري من أكابر موظفي دولة المماليك الحاكمة بمصر حينذاك وله كتاب "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" وهو عرض للوظائف السياسية والإدارية لتلك الدولة في القرنين السابع والثامن بعد الهجرة "13 و14م، وولده عبد الباسط اشتغل بالتجارة مع الاعتناء بدراسة العلوم الدينية والأدب والطب وكان صاحب وقار ورزانة وكانت وفاته بالقاهرة سنة 920هـ -1514م، وسافر زمان شبيبته الى افريقية الشمالية والأندلس، وبارح الأسكندرية في شهر شوال 866هـ في مركب بندقي وبعد نحو

خمس سنوات من التطواف عاد الى وطنه فبلغ الى الأسكندرية في شوال 871- ونشر هذه الرحلة التي مر الحديث عنها معهد الدراسات الشرقية بكلية الآداب الجزائرية- الجزء 7 سنة 1936.

ولما كان للشيخ عبد الرحمن الثعالبي المنزلة السامية التي نالها بأخلاقه ومآثره الخالدة فانه تصدى طول حياته لنفع مواطنيه ونصيحتهم فيجدر بنا ايراد أبيات من مرثيته لتلميذه الشيخ أحمد بن عبد الله، والقصيدة - من الطويل - فيها تسعة وثلاثون بيتا ومطلعها:

لقد جزعت نفسي لفقد أحبتي وحق لها من مثل ذلك تجزع

الى أن قال:

لقد بان أهل العلم عنا و أقفرت منازلهم إنا الى الله نرجع
كما بان عنا شهمنا العالم الذي سناه بأنوار الحقيقة يسطع
أبو زيد المشهور بالعلم والتقى له العلم فينا والمقام المرفع
صبور كريم النفس يكسى مهابة فما ان يراه المرء الا ويخضع
إذا ما بدا كالبدر بين صحابه وهم هالة دارت به حين يطلع
بمجلسه نور ورائق لفظه ضياء نفيس الدر بل هو أرفع
فوائده تترى عليهم وكلها لها عند أهل العلم والفهم موقع
مجالس علم قد مضت فلو أنها تعود ولكن ما مضى ليس يرجع
نتيجة ا خلاص و صدق كأنها سهام بها ترمي القلوب فتخشع
ويلمع في أثنائها بمواعظ تنفر عن فعل القبيح و تردع
أعزي أبا عبد الإله محمدا ومن بجميل الصبر نرجو سيجمع
ونحن وان كنا جميعا نحبه فقلبك أشجى للفراق وأوجع

أصبنا به فالله يعظم أجرنـــا ويلهمنا الصبر الجميل ويوســـع
فيا سيدي أني رثوتك راجيـا سلو قليب من فراقك مـوجــع
ولي فيك حب زائد متمكــن حوته سويداء الفؤاد و أضلــع
لئن كان حظ العين منك فقدته فأني برؤيا الروح في النوم أقنع

شرح ألفاظ وعبارات: اقفرت أي خلت، واقفر فعل لازم وفي الغالب وزن افعل يكون متعديا -أبو زيد هو الشيخ عبد الرحمن الثعالبي- يكسى فعل مبني للمجهول ومن الأفعال التي تتعدى الى مفعولين ليس أصلهما بمبتدأ وخبر -اذا ما فما زائدة- فوائده تترى بفتح التاء الأولى وسكون الثانية أي متتابعة وجاؤوا تترى يعني وترا (بكسر الواو وسكون التاء) بعد وتر أي فردا بعد فرد وواحدا بعد واحد - لها موقع أي تأثير- فلو أنها ابدلت همزة القطع بهمزة الوصل لأجل الوزن - يلمع من ألمع أي اشار وقال- أبو عبد الله محمد هو ابن الشيخ الثعالبي وقد دفنوه بزاوية الشيخ أحمد بن عبد الله الجزائري - رثوتك لغة في رثيتك - لئن فاللام للقسم -قليب بصغة التصغير وفيه معنى أقوى من الاسم المكبر.

- زاوية سيدي محمد بن عبد الرحمن -"محمد بفتح الميم الأولى" وهو الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن يوسف بن بالقاسم "ينطقون بلقاسم" الملقب بالأزهري مجاورة "أي سكنى ودراسة في الجامع الأزهر" الزواوي اقليما القشطولي قبيلة السماعيلي عرشا، حسبما هو منقوش على رخامين- ووقع البناء في سنة1206هـ- "1791-1792" وذلك في عهد الداي حسن باشا ويدعونه ايضا بابا حسن، قيل انه ولد بين سنتي 1126 و1133 هـ في بني اسماعيل، وله هناك زاوية انيقة البناء

في أرض جميلة بنحو عشرين كيلو ميترا عن بلدة ذراع الميزان -وساقته المقادير صغيرا الى الأزهر ولازم الشيخ محمد بن سالم الحفني وهي نسبة الى قرية حفنة بأرض مصر ويدعونه احيانا بالحفناوي وأخذ عليه الطريقة الخلوتية ، وكان للشيخ الحفني شهرة وله التصانيف المفيدة كحاشيته على شرح الهمزية لابن حجر الهيتمي التي قال في ختامها انه فرغ من تعليقها في شعبان من سنة1170- ووجهه شيخه الى السودان لنشر العلم والوعظ وتربية المريدين ثم امره بالرجوع وصرفه بعد حين الى وطنه فشرع يعلم ويعظ ويربي فوجد فيه الناس الرجل العظيم النزيه العالى الهمة ودخلوا في طريقته الخلوتية التي تسمت من طرف اخوانه بالطريقة الرحمانية فكثر اخوانه واتباعه في بلاد جرجرة وغيرها واشتهر في انحاء البلاد وسارت اليه الركبان فاستدعاه حاكم الجزائر فدخل اليها واحتفلوا به وعقد مجالس الذكر والموعظة بالجامع الأعظم وكثر التردد اليه فتكلم مفتي المالكية اذ ذاك وهو المرحوم الحاج علي بن عبد القادر بن الامين مع الداي في هذا الشأن فتبرع على الشيخ محمد بن عبد الرحمن بارض واسعة بالحامة في ضواحي الجزائر فشيد فيها زاويته ومعها روضة وبناءات وبئر والكل محاط بسور له بابان، وبداخل القبة خلواته (بيوت صغير) بابها عند التابوت، وما قصصناه باختصار عن بناء هذه الزواية هو ما سمعناه من صديق لنا رواه من أحد اعقاب المفتي المذكور أعلاه.

وكان للشيخ زاوية في مدشرة أيت اسماعيل يقيم بها من حين الى آخر وأدركه أجله حينما كان هناك سنة 1208هـ-(1793-1794) ونقله أهل الجزائر خفية (قيل بأمر حاكم الجزائر) ذات ليلة الى زاويته بالحامة فقطن

أهله واستعدوا للجري وراء من نقلوه ولكن النازلة انفصلت بوجوده بقبره، ومن ذلك جاءته تسمية "بوقبرين".

وكان قد أجازه الشيخ الشيخ الحنفي سنة 1168 قائلا في الاجازة مـن جملة ما قال: قد أجزت المولى الفاضل الحسيب النسيب السيد مجمد بن عبد الرحمن الزواوي بأوراد طريقتنا طريق السادات الخلوتية وأن يجيزها من طلب منه اهـ- وللشيخ رسائل كثيرة في تعليم الخلق وارشادهم الى طريق الخير، وقد أورد له صاحب تعريف الخلف جملا فـي هذا المعنى، أحسن الله اليه.

وبعد فهذه ترجمة وجيزة مختصرة لسيدي محمد بن عبد الرحمن، فكان من أهل التصوف النقي الصفي وهو عبارة عن الأخلاق الإسلامية لم يترك ولدا من صلبه ولم يسع وراء المال فأولاده هم تلاميذه وأتباعه – وقد نبغ فـي هذا الوطن رجال كفاة في مجالات مختلفة من أقدم العصور، وقيض الله لـه عالما كالشيخ عبد الرحمن الثعالبي بذل جهده في التدريس وبالخصوص فـي علوم الديـن والشريعـة لم يشتغل بشيء آخر، ومربيا بارعا كالـشيـخ محمـد بن عبـد الرحمن تصدى لاصلاح الأخلاق وتهذيبها مخاطبا تلاميذه بما يناسبهم وبما يفهمونه فنجح في سعيه لنزاهته وزهده واخلاصه فهو وان قرأ الفنون وأخذ التصوف في الشرق كانت له شخصية ممتازة مع اعترافه بالجميل لمشايخه فـلا غرابة اذن أن يأخذ الأمير عبد القادر الاجازة فـي الطريقة الرحمانية وهـو ذلك العالم الذي تربى تربية دينية صحيحة مع شغفه في التصوف الأصيل وأكابر رجاله منذ شبيبته فرحمة الله على الجميع.

رجال الافتاء المالكي في العهد التركي

الشيخ محمد بن بلقاسم بن اسماعيل سنة1012هـ- وهذه سنة توليته وهكذا،

الشيخ سيدي عمار سنة1022هـ

الشيخ سيدي سعيد قدورة بن الحاج ابراهيم1030هـ

الشيخ محمد سيدي سعيد قدورة، وهو ولد من قبله1066هـ

الشيخ أحمد بن سيدي سعيد ،وهو ولد من قبله1107

الشيخ عبد الرحمن بن أحمد المرتضى1118

الشيخ الحاج سعيد بن أحمد بن سعيد 1122

الشيخ أخوه عبد الرحمن بن أحمد 1124

الشيخ الحاج أحمد بن أحمد (ثانيا) 1125

الشيخ المهدي بن صالح 1127

الشيخ عبد الرحمن بن أحمد المرتضى (ثانيا) 1128

الشيخ عمر بن عبد الرحمن 1135

الشيخ عبد الرحمن بن أحمد المرتضى (ثالثا) 1135

الشيخ عمر بن عبد الرحمن (ثانيا) 1135

الشيخ محمد بن مبارك 1147

الشيخ محمد بن ابراهيم 1101

الشيخ الحاج أحمد الزروق بن محيي الدين بن عبد اللطيف 1153

الشيخ عبد القادر بن محمد البراملي 1169

الشيخ مصطفى بن أحمد المسيسني 1170

الشيخ الطاهر بن محمد 1175

الشيخ عبد الرحمن بن أحمد المرتضى (رابعا) 1176

الشيخ مصطفى بن أحمد المسيسني (ثانيا) 1176

الشيخ أحمد بن محمد1179

الشيخ الحاج أحمد بن عمار1180

الشيخ عبد الرحمن بن أحمد بن جعدون 1185

الشيخ محمد بن الشاهد1192

الشيخ الحاج علي بن عبد القادر بن الأمين1206

الشيخ محمد بن الشاهد (ثانيا)1206

الشيخ محمد بن محمد الخوجة1207

الشيخ الحاج علي بن عبد القادر بن الأمين(ثانيا)1207

الشيخ محمد بن محمد بن علي1208

الشيخ الحاج علي بن عبد القادر بن الامين(ثالثا)

الشيخ الحاج محمد بن احمد بن مالك 1210

الشيخ الحاج علي بن القادر بن الامين (رابعا)1214

الشيخ محمد بن محمد بن علي1226

الشيخ الحاج علي بن عبد القادر بن الامين (خامسا)1230

الشيخ احمد بن علي بن جعدون1233

الشيخ الحاج علي بن عبد القادر بن الامين (سادسا)1233

الشيخ محمد بن الحاج ابراهيم بن موسى1235

الشيخ علي بن محمد المانقلاتي1239

الشيخ مصطفى بن الكبابطي، كان مضطلعا بالحديث وتنسب اليه قصيدة حسنة الحنين الى الجزائر بعث بها من دار الغربة (الأسكندرية)

الشيخ مصطفى القاديري (بالقاف المعقودة) 1259

الشيخ حميدة بن العمالي1273- ويقولون بالجزائر: حميدة العمالي وباختصار الشيخ العمالي

الشيخ الحاج علي بن الحفاف 1290

مفاتي مدينة الجزائر من الحنفية في العصر التركي

الشيخ محمد بن يوسف عام 1022

الشيخ محمد بن حسين 1029

الشيخ مصطفى بن محمد 1037

الشيخ محمد بن رمضان 1040

الشيخ حسين بن مصطفى بن رمضان 1069

الشيخ مسلم بن علي 1090

الشيخ محمد بن مسلم 1090

الشيخ محمد بن حسين 1101

الشيخ محمد بن مسلم (ثانيا) 1101

الشيخ حسين بن رجب 1102

الشيخ محمد بن مصطفى المدعو ابن المستي 1110 - (المستي بفتح الميم وسكون السين وكسر التاء)

الشيخ حسين بن محمد 1118

الشيخ محمد بن مصطفى (ثانيا) 1122

الشيخ حسين بن محمد (ثانيا) 1122

الشيخ محمد بن مصطفى (ثالثا) 1122

الشيخ حسين بن محمد (ثالثا) 1125

الشيخ محمد بن مصطفى (ثالثا) 1128

الشيخ الحاج علي بن مصلي1136-(مصلي بفتح الميم وسكون الصاد وكسر اللام)

الشيخ حسين بن محمد بن العنابي 1148

الشيخ محمد بن محمد بن سيدي ابن علي 1150

الشيخ حسين بن مصطفى 1169

الشيخ حسن بن فضلي 1170

الشيخ محمد بن مصطفى الواني 1171

الشيخ حسن بن أحمد التفاحي 1173

الشيخ مصطفى بن عبد الله 1180

الشيخ محمد بن مصطفى 1180

الشيخ الحاج مصطفى بن عبد الله 1180

الشيخ حسن بن أحمد 1191

الشيخ محمد بن اسماعيل 1200

الشيخ محمد بن عبد الرحمن 1204

الشيخ احمد بن ابراهيم بن احمد 1224

الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن حسين 1224

الشيخ أحمد بن ابرهيم البابوجي 1226

الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن راسيل 1232

الشيخ أحمد بن حسين 1233

الشيخ محمد بن محمود بن محمد بن حسين العنابي 1234

الشيخ أحمد بن ابراهيم 1235

الشيخ محمد بن عبد الرحمن 1244

الشيخ الحاج أحمد بن الحاج عمر بن مصطفى 1244

الشيخ الحاج محمد بن محمود

الشيخ الحاج مصطفى افاندي

الشيخ محمد بن شعبان 1250

الشيخ أحمد بن محمد بن رجب 1260

الشيخ الحاج محمد بن مصطفى غرناوط 1236

الشيخ الحاج أحمد بن الحاج مصطفى عرف العلج 1265

وبمناسبة ذكر المفتي الحنفي الشيخ غرناوط فانه في الجند النظامي الجزائر (الانكشايرية وقالوا أيضا الكشايرية لتخفيف الاسم) أفراد كثيرون لا نعرف عددهم من الأرناؤط، وفي لهجة حاضرتنا يدعونهم غرناوط (بفتح الغين المعجمة والواو وسكون الراء) وهم اتراك من بلاد ألبانيا وهي في هذه الأيام جمهورية من دول البلقان بين يوغسلافيا واليونان وبحر الأدرياتيك، عاصمتها تيرانا ومن مدنها سكوتاري ودورازو- والنسبة الى سكوتاري عندنا بالجزائر سكودارلي (بسكون السين وضم الكاف وسكون الراء وكسر اللام).

علماء مدينة الجزائر في العهد التركي

- الشيخ أحمد بن عبد الله الزواوي الجزائري صاحب العقيدة المنظومة في علم التوحيد التي تزيد على أربعمائة بيت وهي لامية وتسمى بالجزائرية، وشرحها محمد بن يوسف السنوسي بطلب ناظمها فأجاد في شرحها كل الاجادة، وقال الشيخ أحمد زروق وكان قد أخذ (قرأ) على الشيخ عبد الرحمن الثعالبي مايلي: كان شيخنا أبو العباس أحمد الجزائري من أعظم العلماء اتباعا للسنة وأكبرهم حالا في الورع اهـ- وكان للشيخ أحمد بن عبد الله براعة في القريض فمرثيته في شيخه عبد الرحمن الثعالبي تدل على علو درجته في الشعر وفي الانسجام والتعبير والمعنى، وكانت وفاته على القول الصحيح سنة 884هـ- وقد مر لنا شيء من ترجمته عند الكلام على زاويته التي كانت بالنهج (زنقة) سوق الجمعة.

- الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي صاحب التصانيف العديدة ولد سنة 785 أو786 وتوفي سنة 875- ومرت ترجمته مع نوع من التطويل والتفصيل.

- الشيخ أبو جمعة (وينطقون به بوجمعة) كان مشهورا بالعلم والتقى ويعدونه من أشياخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي.

ذكرنا هؤلاء العلماء مع أنهم لم يدركوا العهد التركي وانما عاشوا في زمان قريب منه اذ كان نزول الأخوين بعاصمتنا عروج وحده في أول الأمر سنة916هـ -1510م على أصح الأقوال.

- سيدي ابراهيم البحري وأصله من الشرق، وضريحه بميناء الجزائر

وكانت وفاته عند حصار البينيون (القلعة) في شهر رمضان سنة 936هـ ماي1530 وقد سلف الحديث عنه.

- الشيخ سيدي محمد (بفتح الميم الأولى) الشريف الزهار (بتشديد الهاء بترقيق النطق) كان رجلا عالما صالحا تقيا. توفي سنة948 هـ-1542 وضريحه معروف بسند الجبل،

- الشيخ محمد بن علي الخروبي الطرابلسي نزيل الجزائر (يعني أنه سكن بها وطالت فيها اقامته)- كان خطيبا فصيحا له الكتب العديدة واعتنى اعتناء مثمرا بالتفسير والتصوف وغيرهما فله تفسير جليل القدر على القرآن العظيم وشرح على حكم ابن عطاء الله الأسكندري.

- أبو حفص سيدي عمار التنسي (بفتح التاء وسكون النون نسبة الى بلدة تنس "كان حيا في اواخر القرن العاشر الهجري،كان ضريحه خارج باب الواد في الجهة العليا منه وبازاء ضريح الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، وكان مسجد صغير بزنقة الحمام المالح حومة باب الدزيرة يدعى باسمه.

- الشيخ سيدي علي بن مبارك الرجل العالم الصالح، توفي سنة1040هـ-1631 وضريحه بمدينة القليعة معروف مشهور، وأنجاله لازالوا إلى هذه الأيام، وقد سلف القول عنه.

- أبو الحسن علي بن عبد الواحد بن محمد الأنصاري نشأ بسجلماسة ثم ارتحل الى فاس وأخذ عن بعض مشايخها البخارى والشفاء للقاضي عياض والموطا ورسالة القشيري والتنوير وحكم ابن عطاء الله ورسالة ابن أبي زيد القيرواني ومختصر ابن الحاجب ومختصر خليل وغير ذلك، ثم سافر الى الحجاز بعد الأربعين من العمر ودخل مصر سنة 1043 وقرأ

بها فكان من جملة أشياخه بها سيدي علي الأجهوري ثم عاد الى المغرب واستقر بمدينة الجزائر وتصدى لافادة الطلبة، وتآليفه كثيرة غالبها نظم في فنون مختلفة وله شرح على الجرومية وتحفة ابن عاصم وشرح الدرر الوامع لابن بري وكتاب اليواقيت الثمينة في الفقه وكانت وفاته سنة 1057هـ-1647م بالجزائر.

- سيدي محيي الدين بن سيدي علي بن مبارك وهو رجل عالم صالح توفي سنة 1057هـ-1648.

- أبو عثمان سيدي سعيد بن الحاج ابراهيم قدورة التنوسي الأصل الجزائري المولد والمنشأ، وينطقون "سعيد" بسكون السين وكسر العين، وقدورة بفتح القاف وتشديد الدال المهملة مع ضمها وهي اسم قرية بالايالة التونسية، تفقه بالجزائر بأستاذه الشيخ محمد بن أبي القاسم بن اسماعيل المطماطي وغيره ثم رحل الى تلمسان وقرأ على أبي عثمان سعيد المقري (بفتح الميم وتشديد القاف مع فتحها وكسر الراء وتشديد الياء) وغيره ثم عاد الى الجزائر وتولى الفتوى بها وأقرأ وعلم بالجامع الأعظم وانتفع به جم غفير من الناس الى ان توفي سنة 1066هـ-1656 ودفن بزاوية الشيخ أحمد بن عبد الله الجزائري، وكان عالما متفننا ورعا موصوفا بالثقة، له شرح على متن السلم لعبد الرحمن الأخضري بالغ فيه ببسط العبارة فكان ذلك مما انفرد به وحاشية على شرح العقيدة الصغرى للسنوسي- أخذ عنه ولده أبو عبد الله محمد وأبو مهدي عيسى الثعالبي وهي نسبة الى وطن الثعالبة من عمالة الجزائر، نشأ في وطنه المذكور وتاقت نفسه للرحلة في طلب العلم بعد ان حصل ما عند أهل وطنه فدخل الجزائر

فأخذ بها عن أشياخها فصادف أيام دخوله الشيخ علي بن عبد الواحد الأنصاري فلازمه وكان هذا الأستاذ لما استقر بالجزائر تصدى للتعليم فهرع الناس اليه وحصلت لهة وجاهة عظيمة في كل الأوساط وبعد وفاة شيخه ارتحل الى الحجاز وجاور بالحرمين (مكة والمدينة) سنين وأقرأ ونال إقبالا بحسن تعليمه وهنالك تجددت له رغبة في علم الحديثفأخذ عن الشيوخ الخبيرين ثم انصرف الى مصر وأخذ عن الاجهوري (بفتح الهمزة وسكون الجيم وضم الهاء) وشهاب الدين الخفاجي وغيرهما ثم عاد الى الحجاز وألقى عصا التسيار بالحرمين والقى هناك ما تحمل من أشياخه وتعلم، ولـه فهرسة سماها كنز الرواة ن وسلك في ترتيبها مسلكا غريبا وهو أنه رتبها على أسماء شيوخه فيبدأ بالتعريف بشيخه وذكر مؤلفاته ومقروءاته وأسماء شيوخه ثم يذكر كل كتاب قرأه عليه فيذكر سنده الى مؤلف الكتاب فيعرف بهذا المؤلف ويذكر طرفا "بفتح الطاء والراء أي شيئا" من أول الكتاب اهـ، ونقول إن هذه طريقة حسنة مختارة تدل على فطانة صاحبها وتنبهه- وكـان ينشد في عد أحاديث البخاري "من الطويل":

وعد أحاديث البخاري خالصا   من العود والتكرار ألفان مع نصف
وزد عشرة من بعدها ثلاثـــة   أضفها اليها تنج من شبه الخلــف

العد مصدر عد- مع بتسكين الميم وهو كثير في الشعر-شبه بفتح الشين والباء -الخلف بضم فسكون- وقال المحبي "بضم الميم وكسر الحاء وتشديد الباء مع كسرها" في خلاصة الأثر في تراجم الحادي عشر عـن كيفية أبي الحسن علي بن عبد الواحد الأنصاري من علماء الجزائر "كمـا قلنا آنفا" في شرح الحديث على وجه من الدراية بديع التزم الكلام فيـه

على اسناده بتعريف رجاله من ذكر سيرهم ومناقبهم ومواليدهم ووفياتهم وما في الأسناد من اللطائف من كونه مكيا أومدنيا وفيه رواية الأكابر عن الأصاغر والصحابي ونحو ذلك وعلى متنه بتفسير غريبه وبيان محل الاستدلال منه ومطابقته للترجمة وما يحتاج اليه من اعراب وتصريف وما فيه من القواعد الأصولية وما ينبى عليها من الفروع والألماع بما فيه من الاشارات الصوفية وغير ذلك اهـ- وتوفي الشيخ أبو مهدي عيسى الثعالبي سنة 1080 بمكة- والشيخ أبو عثمان سعيد المقري من أسرة المقريين الشهيرة، قرأ بفاس وأقام ببلدة تلمسان ستين سنة مفتيا ومن تلامذه أحمد بن القاضي وسيدي سعيد قدورة وابن أخيه أحمد المقري صاحب نفح الطيب، ولد قبل سنة 930 وتوفي ببلده سنة 1010هـ.

الشيخ محمد المهدي، كان عالما فقيها وتوفي سنة 1072هـ- 1662 .

الشيخ الطيب الحصار، كان من الأخيار، وفاته سنة 1076هـ-1662.

الشيخ علي بن حسون (بفتح الحاء وتشديد السين وضمها) ذوا المناقب والفنون، توفي سنة 1076هـ-1662.

الشيخ محمد بن القوجيل صاحب الأخلاق والفضل، توفي سنة 1088هـ - 1668- ويقولون القوجيلي وابن أقوجيل بفتح الهمزة وضم القاف المعقودة.

الشيخ علي بن عبد الرحمن العالم الفقيه قاضي المالكية، توفي سنة1081هـ -1671.

الشيخ محمد المغربي صاحب علم ومكارم أخلاق، توفي سنة 088هـ -1677.

الشيخ محمد بن عبد الله بن يطو بفتح الياء وتشديد الطاء مع ضمها)

الجرومي كان من العلماء توفي سنة 1092هـ-1681م.
الشيخ محمد بن محمد المهدي ويعرف بسيدي ابن علي، كان ممن جمع بين العلم والصلاح- ارتحل الى الشرق وقرأ هناك عل أكابر العلماء وأجازوه ثم عاد الى مدينة الجزائر، وكانت وفاته سنة1093هـ-1682.
الشيخ محمد الفراصدي- كان عالما فقيها- توفي سنة 095هـ 1684.
الشيخ محمد بن عبد المومن العالم الفقيه قاضي المالكية بالجزائر، توفي سنة 101هـ 690.
الشيخ عمر المنقلاتي عالم فقيه واستاذ ماهر توفي سنة1104هـ 1693
الشيخ أبو عبد الله محمد بن الشيخ سيدي سعيد قدورة الذي سلف ذكره والتنويه اليه بما يستحقه، ولد ليلة الاثنين27 من شهر رجب من سنة 1034هـ -5ماي 1625- كان من أكابر الرجال زكي الأخلاق والأفعال ولي وظيفة الفتوى بالجامع الأعظم سنة1104هـ-1693.
الشيخ أبو العباس احمد بن سيدي سعيد قدورة، كان من العلماء الأعيان ومحاسن الزمان، تولى وظيفة الافتاء بالجامع الأعظم في أواسط جمادى الثانية سنة 1037هـ-1628.
الشيخ يحيى بن عبد الرحمن بن ابراهيم، من علماء مدينة الجزائر توفي سنة 1106 هـ-1695.
الشيخ عبد الرزاق بن محمد بن احمدوش (بفتح الهمزة وسكون الحاء وفتح الميم وضم الدال) ولد في شهر رجب من سنة1107 هـ-1695، وله تصانيف منها القاموس المشهور في حل اسماء الأعشاب وكفاه هذا التأليف فخرا.

الشيخ محمد بن الهادي، العالم الفقيه قاضي المالكية، توفي سنة 1108هـ -1697.

الشيخ سيدي السعدي بن محمد، كان في قيد الحياة نحو سنة 1119هـ -1707.

الشيخ أبو زيد محمد بن عبد الرحمن البوسعيدي،كان من العلماء توفي سنة 1126 هـ -1714.

الشيخ محمد المصطفى، كان من العلماء توفي سنة 1136 هـ-1723.

الشيخ محمد بن القاضي كان من العلماء المحققين توفي بالمدرسة الحسينية سنة 1142هـ -1730 ودفن خارج باب الواد بمقبرة الطلبة.

الشيخ محمد بن جعدون صاحب العلوم والفنون مفتي المالكية دفن بمقبرة سيدي ابن النور (ينطقون به بنور بفتح الباء وتشديد النون مع ضمها) بجبل بوزريعة، وكان في قيد الحياة عام1159 هـ-1742

الشيخ محمد بن مالك الفقيه المعتبر،كان معاصرا مع من قبله

الشيخ الحاج علي بن عبد القادر بن الأمين مفتي المالكية بالجزائر، وله معاصرة مع من قبله.

الشيخ محمد بن محمد ابن علي من أشهر أدباء الجزائر- تولى افتاء الحنفية من1150هـ- الى1169.

الشيخ أحمد بن عمار من أكابر العلماء، أديب وشاعر مجيد، من أبناء القرن الثاني عشر الهجري.

الشيخ محمد بن الشاهد، فقيه وأديب بارع، صاحب القصائد.

الشيخ محمد بن الحفاف، كان جميل الأفعال والأوصاف من العلماء

الفقهاء، له معاصرة مع من قبله.

الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن صاحب الطريق الرحمانية، توفي سنة1209هـ-1795.

الشيخ أحمد الحنفي الخطيب له تأليف سماه السلوك اعتنى بجمعه سنة1220هـ-1806.

- وها هي تراجم وجيزة لعدة علماء من مدينة الجزائر (أفردناها) لهم لمزيد الفائدة.

الشيخ محمد بن محمد بن سيدي ابن علي

نشأ هذا العالم الأديب الشاعر بعاصمة الجزائر وحفظ القرآن العظيم وتعلم الفنون وبرع فيها وعاصر أدباء من بلده كانوا في ذلك الزمان كالشيخ أحمد بن عمار وكانت بينهما مودة خالصة.

وقد اثنى عليه هذا الآخر جزيل الثناء بل اطنب فيه واورد له في رحلته التي سيأتي ذكرها عن قريب كثيرا من موشحاته - وقال فيه الشيخ أحمد بن عمار مايلي: هذا الامام هو خاتمة الشعراء العظام بهذا الصقع ليس لغليل الأدب بعده نقع، وكثيرا ما كنت ارتاح اليه رحمه الله تعالى كما يرتاح الي ويا طالما كان بفرغ من سجال آدابه علي ومضت لي معه مجالس كقطع الرياض تكسي النفس والطبع منها مطارف ارتياح وارتياض، وشعره كثير وهو على كثرته يفوق الدر النظيم والزهر النثير، ونثره على جودته قليل وسيفه فيه غير فليل، وله ديوان اشعار تغلو في عكاظ الآداب اذا رخصت الأسعار، وكان رحمه الله في نظمه متين الجد لطيف الهزل محكم النسيج رقيق الغزل، وقد ترجمته في تأليفي لواء النصر في فضلاء

العصر- وباسمه صدرت في الكتاب وافتتحت، وبطل أدبه رقرقت زهرة وفتحت، وقد عن لي ان انقل هنا نبذة من ترجمته وان كان فيها طول ليعلم ان هذا الرجل ممن كان يصول بالادب ويطول ويفاخر به المغرب وحق له بمثله ان يفاخر وليتحقق صدق قول القائل كم ترك الاول للآخر فأقول وقع لي في ترجمته من الكتاب المذكور بعد كلام ما نصه: وتنزهنا مرة ببعض بساتين محروسة بلدنا الجزائر التي هي ريحانة القاطن وسلوانة الزائر في حدود سنة الثلاث والستين بعد المائة والألف(1163) وقطفنا زهرات الأنس أيما قطف وكان قطب رحى سرورنا الذي عيله المدار ومغناطيس حبورنا الذي لا يأتي الدهر بمثله ولا تساعد به الأقدار شيخنا البارع الناهل من حياض السؤدد والكارع الذي تقلدت بعلومه كاعب الدنيا وتحلت وألقت اليه أرض الآداب ما فيها وتخلت أبا عبد الله محمد بن الشهير بابن علي أطال الله بقاءه وكان له خير ناصر وولي ، فمضت لنا أيام أنس ما مضت للنعمان بالشقيقة ولا قضتها غسان بروضة شامهم الانيقة ولا نادم حسان في مثلها عصابته بجلق ولا جال في وصف شبهها لسانه المتذلق ولا مرت لأهل العراق بالرصافة ودجلة ولا أجرى ابن عباد بنهر اشبيلية في مثلها للهو خيله ورجله، ثم صدرنا ولا بد بعد الورد من صدر، وأيام الأنس بعدما تحلو يختلسها القدر، اهـ المنقول، ثم أورد الشيخ أحمد بن عمار في رحلته بعد صفحات كثيرة من السطور التي أتينا بها ما هذا نصه: وقد ذكره الأديب الكاتب أبو زيد عبد الرحمن الجامعي الفاسي في رحلته فقال عند ما ذكر الجزائر ما نصه: وأما مدينة الجزائر فأول بلد لقيت بها مثل من فارقته من أدباء بلدي وبها تذكرت بعض ما كان مسيه خلدي

لاجتماعي فيها بالاديب الماهر الدال وجوده على صحة القول بوجود الجوهر الفرد في سائر الجواهر أديب العلماء وعالم الأدباء محيي طريقة لسان الدين ابن الخطيب الامام الخطيب ابن الامام الخطيب بن الامام الخطيب ذي القدر العلي أبي عبد الله محمد بن محمد المعروف بابن علي أبقى الله وجوده بالالطاف محفوفا وبالنفحات الادبية منفوحا متحوفا، رأيته أول ما لقيته وأنا لا أعرف مسماه فرأيت صورة تدل على حقيقة الادب ومعناه. فبادرني بسلام يؤذن بعرفان سابق ويشهد بحب لاحق، فشاهدت منه لطافة لو تجسدت لكانت ماء زلالا وعاينت فيه ظرافة لو تعللت لود النسيم أن يكون لها اعتلالا، فتصافحنا مصافحة الأغصان والأنهار، ثم افترقنا،،، اهـ المنقول.

وقال أيضا الشيخ الجامعي عن مدينة الجزائر مايلي: فهي والحمد لله إلى الآن دار الجوهر الفرد في الأدب وعلم العقل والنقل وتنبت العلماء والصالحين كما تنبت السماء البقل، ولقد رأيت على ظهر الجواهر الحسان في تفسير القرآن للإمام الثعالبي خطوط علماء عاملين وصلحاء كاملين كانوا في عصره وهم العلامة سيدي احمد بن عبد الله الزواوي وعبد الجليل بن عيسى بن عمران وعيسى بن محمد الجعفري وعيسى بن عبد الله الزركوطي وقاسم بن محمد بن محمد ابن علي وأبو جمعة بن حسين المكناسي شيخ الثعالبي وعبد الرحمن بن المقداد ومحمد بن موسى بن اعمر كما رأيت خط الثعالبي بنفسه في مبيضته بتمامها في سفر ضخم وعلى ظهره أشهد على نفسه أنه حبسها (أي نسخة الجواهر الحسان) على طلبة العلم وكتب ذلك بخط يده سنة خمس وثلاثين وثمانمائة و أنزلوا

(كذا) هؤلاء الأشياخ خطوط أيديهم،

وأولياؤهم المشهورون بها هم: سيدي سليمان الشريف وسيدي عبد اللطيف وأبو يعلى الشريف وأبو حفص عمر بن منصور و والي دادة و أبو النور ورجال ساحة المدارج والرجال السبعة و سيدي هلال و أبو العباس أحمد الجودي وابن منصور الحلبي صاحب المدرستين تلميذ الثعالبي والحمزي وسيدي فليح وسيدي علي الفاسي وأبو شريحة وسيدي محمد الشريف دفين زاويته بالجبل وسيدي رمضان وأبو نحلة وسيدي ابراهيم التكروري سيدي بوقدور والامام الخروبي وسيدي احمد بن علي وأبو التقى بباب عزون وسيدي علي الزواوي وسيدي أحمد بن عبد الله صاحب القصيد رحمه الله الجميع - اهـ بحذف يسير- وقال أيضا عن الجزائر:

وهذه المدينة لا تخلو من قراء نجباء وعلماء أدباء وأعلام خطباء مساجدهم بالتدريس معمورة ومكاتب أطفالهم بالقراءة مشحونة ومشهورة- وقد ذكرت ما فيه غنيمة من علمائها الأخيار وكلهم متحلون بأحسن الصفات متضلعون بعلم النحو والفقه والحديث وأحياء ليلة المولد النبوي مثل ما في القديم والحديث اهـ،

سيدي هلال- بقرب باب الواد الذي كان أحد أبواب الجزائر وضريحه في بيت فيه عدة قبور، وفوق هذا البيت مسجد صغير كانت له منارة، ولا يعرف عنه شيء غير أنه عاش قبل نزول الأتراك بمدينة الجزائر وقيل بل في ذلك العصر، وكانت تلك الناحية تسمى حارة الجنان ولعل سبب تلك التسمية لأجل بستان كان هناك.

وفي الجهة المقابلة كان ضريح سيدي علي الفاسي بقرب عين مراد

قورصو، وكانت له شهرة في قديم الزمان، والشيخ عبد العزيز بونحلة كان له ضريح في مسجد صغير فوق زنقة بير الجباح في أول النهج المسمى بفرن الجمال (جمع جمل)، والجباح بتشديد الباء كلمة من الدارجة وهو من يشور العسل أي يجنيه ويقطعه.

والشيخ إبراهيم التكروري (بفتح التاء وسكون الكاف وضم الراء الأولى) وهي نسبة الى التكرور وهم طائفة من الزنوج (السود) يسكنون بالسينيغال وهم مسلمون، ولعل إبراهيم البحري هو التكروري.

سيدي فليح كان ضريحه في مسجد صغير بلا منارة بحومة باب الدزيرة بقرب دار المقرئين التي كانت ثكنة، ثم نقلوا رفاته حوالي1842م الى جوار الشيخ الثعالبي، ولا لزوم للقول بأن المشائخ الذين وردت أسماؤهم في النبذة من رحلة الجامعي منهم من طرأ عليهم النسيان واندثرت قبورهم ومنهم من بقيت ضرائحهم معروفة الى الآن.

وقبل ختام ترجمة الشيخ محمد بن علي المعروف الى هذه الايام عندنا بسيدي ابن علي فانه يوجد بعض النص التام لغزوات عروج وخير الدين من الطبعة التي قامت بها المطبعة الثعالبية بالجزائر مايلي:

قال من كتبت هذه الغزوات من خطه وهو محمد بن رمضان الدلسي هذه الغزوات أصلها مكتوبة على اللسان التركي والقلم التركي فعبرها بعض خوجات الترك لمفتي الحنفية بالجزائر بلسان العرب لأن المفتي المذكور لا يحسن اللسان التركي وهو العالم الصالح النحوي المفسر الماهر في العلوم الأستاذ في علم القراءات الشاعر المفلق الشيخ سيدي محمد بن علي القلغلي الجزائري رحمه الله تعالى ورضي عنه بمنه

آمين، وكتبه بهذا المحل الفقير الى الله تعالى محمد بن احمد بن قاسم غفر الله تعالى ذنبه وستر بفضله عيبه، وكان الفراغ منه ليلة الأحد السابعة من ربيع الثاني من عام سبعة وسبعين ومائة وألف1177 من هجرتـه صلـى الله عليه وسلم اهـ، وهذا الكلام فيه بعض الخفاء والغموض: محمد بـن رمضان الدلسي هو الناسخ لكتاب الغزوات ومحمد بن احمد بن قاسم هو الذي نقل هذه النسخة - وهي التي كان عليها الاعتماد في الطبع- من النسخة المخطوطة بيد محمد ابن رمضان وهذا هو الذي يقول انها مترجمة من اللغة التركية بطلب سيدي ابن علي.

والظاهر ان الشيخ سيدي ابن علي توفي سنة1169هـ كما قلناه آنفا، وله مشهد (بناء فيه ضريح) معروف باسمه في حي القصبة بنهج نفيسة دعوه بمقبرة الأميرات وفي الحقيقة هما اثنتان فقط نفيسة وفاطمة، فالأولى لهـا شاهدان من الرخام والكتابة عليهما تقرأ بصعوبة لأنها كادت تنطمس والثانية شقيقتها فاطمة ولها شاهدان من الحجر الأسود الكتابة عليهما كادت لا تظهر، وهما بنتا حسين باشا وهو آخر داي للجزائر ،وقد ترك بنتيه غريبتين هاهنا ليس لهما الا رحمة الله ومغفرته -ولما بارح مدينة الجزائر في الحادي عشر من شهر جويلية 1830 كان معه زوجته وهي مسنة وبناته الثلاث منهما اثنتان متزوجتان احداهما زوجها ابراهيم آغا والأخرى زوجها وزيره كان للبحرية (وكيل الحرج) وأخوه وجماعة من ضباطه وحشمه وخدامه، وركب الكل في باخرة وصلت الى مرسى نابلي (بضم الباء) بايطاليا في الثالث من شهر أوت من تلك السنة 1830 ثم كان بعد ذلك استقراره بالأسكندرية التي توفي بها سنة 1838 وعمره يناهز السبعين.

ويحيط بالمشهد- وفيه بعض الاتساع- روضة صغيرة أنيقة فيها أشجار ونحو العشرين قبرا ولا نعرف اسماء اصحابها- ونلاحظ أنه كان داخل المدينة عدة مقابر صغيرة كلها اندثرت، فرحمة الله على الجميع.

وتباعا لترجمة سيدي ابن علي نضيف ما يلي: تحدث الجامامعي علـى الحالة العلمية بمدينة الجزائر باختصار مفيد وتحدث على المكاتب القرآنيـة وأخبر عن كثرة قرائها - أطفالها كما يقول- وقد كان بهذه الحاضرة نحـو مائة مكتب ملآى بالأولاد حيث أن المحل الذي لا يسـع التلاميذ يجعلون فيه سدة يصعدون اليها بالدرج يتعلمون القراءة والكتابة ويحفظون القرآن العظيم وحفاظه كانوا كثيرين، والدروس العليا تلقى فـي المساجد والزوايا العديدة وبالخصوص في الجامع الاعظم فكان فيه تسعة عشر استاذا، وفي الصفحات التي أوردنا فيها ملخص ما قال ابن زاكور تصوير صادق لما شاهده ورآه فانه ورد من مدينة فاس الى الجزائر ليقرأ على مشايخها وكان حينذاك صاحب معرفة فقهية وادبية وكانت له سجية في النثر والقريض، ومن البديهي انه لم يغادر بلده ليرتحل ويتعب نفسه بـلا جدوى وقال انه زيادة على المشايخ الذين حضر في حلقاتهم هناك آخرون، ونظن ان ما سقناه في هذه الأوراق يكفي دليلا على المستوى العلمي ببلدنا فلم تكن الأمية فيه شائعة ولله الحمد، وبعد فالشيخ ابن زاكـور ليس من الفريق الذين يزعمون ان المعارف هي رهـن عند فرد أو اسـرة او جماعة دون غيرها كما يفهم من كلام العبدري فـي رحلته، فالعلم مقسوم بين الناس ولكل نصيب وافر اويسير، والاخلاق تزينه وتكمله.

وكل ذلك يناقض قول العبدري في رحلته المغربية التي نشرتها كلية

الآداب الجزائرية فانه لما دخل الى الجزائر اعجبه موقعها الطبيعي وما فيها من البناء ولكنها على قوله:

قد اقفرت من المعنى المطلوب كما اقفر من اهله ملحوب فلم يبق (وفي نسخة لم أر) بها من هو من أهل العلم محسوب ولا شخص الى فن من فنون المعارف منسوب،،، ونحيل الى نصه عنها في الرحلة ص23 أو الى ما اوردناه سابقا في هذه الاوراق، والرجل من عادته هذا النوع من الانتقاد فانه لا يرى في مراحله المستعجلة الا الجهل، ومما يستغرب منه ما قال عن بلد بجاية: غير انه اعتراه من الغير ما شمل في هذا الأوان البدو والحضر قد غاض بحر العلم الذي كان به حتى عاد وشالا وعفا رسمه حتى عاد طلا،،، ويخبرنا مع ذلك انه ما كانت مدة اقامته ببجاية الا يومين ولم تمنعه هذه الفترة مع كثرة الشواغل وتسلط الهموم التي تخل بعقل العاقل حسب تعبيره من الاخذ عن احد شيوخها فسرد ما قرأ في هذه المدة القصيرة على الشيخ أبي عبد الله محمد بن صالح بن أحمد الكناني الشاطبي الذي كان بارح الأندلس واستوطن بجاية - وترجم له أبو العباس أحمد الغبريني فقال عنه: هو أحد من كثرت القراءة عليه ببجاية، تولى القضاء أحيانا وتولى الخطبة بجامعها الأعظم ما ينيف على ثلاثين عاما وهو الى هذا الوقت وهو عام التسعة والتسعين وستمائة(699) امام مبارك أبقاه الله ووقاه، (وولد بشاطبة عام 614) وكان يقرئى الطلبة كتب العربية كالمفصل للزمخشري ودووابن الاشعار كشعر حبيب (أي أبي تمام) والمتنبي والمعري والأشعار الستة (وهي دووابن من الشعر الجاهلي) وكل ذلك باتقان، وأثنى الغبريني على خلقه

الحسن ونيته الصالحة وطويته السالمة- وكانت رحلة العبدري سنة 688هـ، ونحيل الى طبعتها-المذكورة أعلاه- بعناية الأستاذ أحمد بن جدو.

وعنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية يشهد شهادة عادلة بأن هذه الحاضرة كانت دار علم والعنوان فيه أيضا تراجم لعلماء عاشو بها في أعقاب المائة السادسة، وتوفي القاضي الغبريني ببلده سنة714هـ، مغتالا ظلما وعدوانا، فالثناء الجميل لناشره المرحوم شيخنا محمد بن شنب سنة1321-1910 (المطبعة الثعالبية بالجزائر).

وختاما فمدينة الجزائر ليست كما يدعي العبدري في رحلته فالرجل لايوثق بحكمه ذلك الحكم الجائر لا انصاف فيه ولا تبصر فكان عابر سبيل مسرعا في رحيله، ومره مر السحاب كان لا يسمح له بالاطلاع عليها ولم تكن له دراية لا بماضيها ولا بحاضرها ولا ينسينا سجعه ولاشقشقته شخصيات جزائرية كأبي زيد عبد الرحمن الثعالبي وأحمد بن عبد الله الزواوي الجزائري ومحمد بن علي الخروبي وأبي عثمان محمد بن سيدي سعيد قدورة وعمر بن محمد المانقلاتي واضرابهم وهم كثيرون-

فأين العبدري من هؤلاء الأفاضل في تواضعهم ورصانتهم وعلو همتهم فقد كان علماء حاضرة الجزائر معتنين بعلوم الدين والشريعة وبالخصوص بالحديث رواية ودراية مع الحظ الوافر من علوم اللغة علوم الآلة كما يسمونها ايضا اذ هي المفتاح لغيرها لا يضيعون وقتهم في المناقشات الجافة العقيمة لايبالون الاباللب ويتركون القشور فهم لخلفهم احسن قدوة واسنى مثال.

وعلى كل حال فرحلة العبدري لها قيمتها فهي مرجع مفيد لمعرفة بعض احوال ذلك العصر، ومن المعلوم أن التآليف يكمل بعضها بعضا فهي

صفحة من تاريخ وطننا مع ما فيها من المحاسن والأضداد - وليتنا توفرنا على كثير من الرحلات، وقد احسنت صنعا كلية الآداب الجزائرية بنشرها لرحلة العبدري وابرازها للوجود.

- ترجمة الشيخ عبد الرحمن الأخضري - نرى من المستحسن ان نقول هنا كلمات وجيزة عن هذا العالم لأنه ولو لم يكن من مواليد مدينة الجزائر ولم يقم بها الا انه من أبناء وطن الجزائر الأبرار- وكتابان بالخصوص كانا موضوع دراسة وحفظ بمدينة الجزائر وهما السلم ارجوزة في المنطق والدرة البيضاء ارجوزة في الحساب والفرائض-

- عبد الرحمن بن محمد الصغير أو الصغير بصيغة التصغير- ولقب الأسرة الأخضري، قيل هو نسبة الى الجبل الأخضر بطرابلس لأن اسلافه أقاموا مدة به وقيل بل هو نسبة الى فرع من قبيلة رياح اسمه الاخضر ولد الشيخ بقرية بنطيوس وهي تبعد بنحو ثلاثين كيلو ميترا في الجنوب الغربي من مدينة بسكرة حوالي سنة 920هـ-1524م في السنين الأولى من حكم الأتراك بالجزائر، ويثبت تاريخ ولادته قوله في السلم انه ابن احدى وعشرين سنة في عام941- ويلتمس العذر في هذا المتن قائلا:

وقل لمن لم ينتصف لمقصدي، العذر حق واجب للمبتدي -ولابن إحدى وعشرين سنة، معذرة مقبولة مستحسنة- اهـ وقد وهب الله له علما غزيرا وسهولة في التأليف فيذكرون له تصانيف كثيرة أكثرها نظم ومن أشهرها الجوهر المكنون في فنون البلاغة الثلاثة وهي المعاني والبيان والبديع -وكان من عادته أن يشرح متونه بشروح مختصرة مفيدة لخلوها من الحشو والاطناب يتوصل بها طالب العلم الى غيرها من المطولات فهي

كالسلم يصعد به الى الأعلى- ويقول في شرحه للسلم ان الأخضري تعريف لنسبنا على ما اشتهر في ألسنة الناس وليس كذلك بل المتواتر عن أعالي اسلافنا وأسلافهم أن نسبنا للعباس بن مرداس السلمي (بضم السين وفتح اللام) الصحابي- وكان ينتقل في فصل الصيف وزمان القيظ الى الجبال فكان يقيم احيانا في تيفتفل (بكسر التاء وفتح الفاء الاولى والثانية) في جبل الاحمر خدو (بفتح الخاء وضم الدال وتشديدها) واحيانا بسهول التل وتوفي بقيجل (بكسر القاف المعقودة) بقرب مدينة سطيف ودفنوه بزاويتهم في بنطيوس حذاء قبور أبيه وأمه حدة (بتشديد الدال) وأخيه أكبر منه سنا، وكانت وفاته سنة 953هـ- 1546م وفي عمره 32 سنة، وفضله عظيم ولم يقرأ الا على والده حسب ما يخبرنا، ومتونه أفادت و لا تزال تفيد رحمه الله.

- الحاج أحمد بن عمار:

هو مفتي المالكية بمدينة الجزائر في عصره وهو القرن الثاني عشر من الهجرة،كان من نبغاء الناس وافاضلهم صاحب القلم السيال وطلاقة اللسان على منوال لسان الدين بن الخطيب والفتح بن خاقان، وزاحم الحريري والهمذاني في المعاني والبيان، ولا نعرف له ترجمة الا ما أخبر به هو عن نفسه وحياته في رحلته، وهذا ما اعتمد عليه صاحب كتاب تعريف الخلف الذي ذكرناه عدة مرات فيما سلف من الصفحات فاستخرج من رحلته شيئا مفيدا مع قلته عن ترجمته ولا لوم عليه إذ الجود من الحاضر الموجود.

وقد طبعت هذه الرحلة بالجزائر سنة1320هـ-1902 منقوصة فانهم لم يجدوا منها الا نبذة ولهذا نقرأ في آخر القسم المطبوع ص254 ما يلي:

- قال مصحح هذه النبذة التي هي خزانة أدب هذا آخر ما وقفت عليه من مقدمة هذا الكتاب النفيس والنسخة التي نقل منها هذا المطبوع هي بقلم أحد تلامذة صاحبه الأديب البارع وعلى بعض المواضع من هوامشها خط المؤلف ولعله قد أتمه لأنه رحمه الله تعالى عاش بعد ما شرع في تحريره أكثر من ثلاثين سنة وأظن أن نسخة توجد كاملة بالحرمين الشريفين والقاهرة وتونس لأن مؤلفه أقام في كل منها عدة سنين والله أعلم اهـ-

- قوله الأديب البارع المراد به الشيخ أحمد بن عمار- ويقول المصحح عنه أن عمره طال الى أواخر القرن الثاني عشر لأنه بدأ تحرير كتابه سنة 1166 كما سنراه عن قريب، ولم يذكر لنا على أي شيء اعتمد في هذا التقدير هذا المصحح.

ومن جملة ما في ديباجة الرحلة قوله:

- اعلم وفقني الله واياك لمرضاته وعصم كلامنا عن الخطأ والخطل والزلل في حركاته وسكناته ولحظاته أني عزمت على الرحلة الى الحجاز عزما نسخت حقيقته المجاز أوائل سنة 1166ست وستين ومائة وألف- هذا وقد جرت عادة أهل بلادنا الجزائر حرسها الله من الفتن وحاطها من الدوائر أنه اذا ادخل شهر ربيع الأول انبرى من أدبائها وشعرائها من اليه الاشارة وعليه المعول الى نظم القصائد المديحيات والموشحات النبويات ويلحنونها على طريق الموسيقى بالألحان المعجبة ويقرأونها بالأصوات المطربة ويصدعون بها في المحافل العظيمة والمجامع المحفوفة بالفضلاء والرؤساء النظيمة من المساجد والمكاتب والمزارات وهم في أكمل زينة وأجمل زي وأحسن شارات تعظيما لهذا الموسم الذي شرف به الاسلام

واحتفالا بمولده عليه الصلاة والسلام اهـ المنقول، وبعد أسطر من النثر أورد قصائد ثم قال:

- ولي من هذا النمط وغيره من التوشيح والقريض قصائد شتى في مدحه صلى الله عليه وسلم ضمنتها بطن ديوان... الى أن ذكر امام هذه الصناعة وكان معاصرا له وهو الشيخ أبو العباس أحمد المانقلاتي - وقد أثبت له من مولدياته ما يطرب ويروق... وقال:

- وهذا الرجل الصالح من عشاق الشمائل المحمدية المشرقة العاطرة الندية وله ديوان قصائد مولدية، ثم أورد اسم الشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد ابن علي أمطر الله عليه سحائب الرحمة والرضوان بكل وسمي وولي، وأثبت له قصائد كثيرة- ويتلخص مما سبق أن الشيخ محمد بن محمد الشهير بسيدي ابن علي كان قد توفي وقت تحرير هذه الرحلة واذا كنا لانعرف تاريخ وفاته على وجه التحقيق فاننا نعرف من جهة أخرى أنه تولى الافتاء الحنفي من سنة 1150 الى سنة 1169 هـ (1737-1755) ولعلها هي سنة وفاته- ووجدنا في جريدة مفاتي المالكية لمدينة الجزائر ما يلي:

- الحاج أحمد بن عمرو مفتي المالكية سنة1180هـ عدة أشهر ثم من نفس هذه السنة 1180 هـ الى سنة 1185 (1766الى1771) وغالب الظن أو بالتحقيق أنه هو الحاج أحمد بن عمار.

- الشيخ محمد بن الشاهد من علماء الجزائر في القرن الثاني عشر من الهجرة ولانعرف له ترجمة فيها بعض الكفاية، وهو من تلاميذ ذلك الرجل النبيل محمد بن محمد بن علي، وابن الشاهد أندلسي الأصل جزائري النشأة عاش في عصر استنارت فيه العقول وبفضل مواهبه ترقى

في المعارف والفنون، وتولى افتاء المالكية سنة1192 هـ الى1200 ثم من 1206الى1207هـ-1792م، ولعله توفي في تلك السنة1207- وقد خلف كثيرا من التلاميذ، ومع كونه أديبا وشاعرا مجيدا فإنه كان فقيها ماهرا وتقليده للافتاء دليل على معرفته لعلوم الدين والشريعة اذ كان عصره عصر أدب وعلم لا ينال هذا المنصب الا من فيه الكفاءة، كان معروفا بصلاحه وورعه وتقواه، ومما امتاز به براعته في الشعر والموسيقى وذلك لأن الوسط الجزائري كان لحسن ظن الناس ونزاهتهم لا يعاب منيجمع بين الثقافة الفقهية الشرعية والثقافة الفنية والتوقيع على آلات الطرب فأنشأ قصائد وموشحات ومولديات توارثها جيل بعد جيل وكان لايكتفي بنظم الموشحة أو المولدية بل كان يتبعها أيضا بتلحينها حسب التوقيع الفني الأندلسي، كان أهل العلم والأدب في ذلك الزمان يجتمعون من حين الى آخر في فصل اعتدال الجو وانتعاش الطبيعة وازدهارها يذهبون الى بساتينهم في ضاحية من ضواحي العاصمة الكائنة في حي الجناح الأخضر الذي يخترقه اليوم شارع الشهداء أو في الأبيار أوغيرهما يتساجلون الأشعار ويقضون وقتا طيبا في الفكاهات وسماع الأوتار وانشاد الأشعارعلى عادة الأندلسيين في متنزهاتهم بأدب واحترام -والشيخ أحمد بن عبد الله هو- على ما قيل- أول من سن طريقة الموشحات بالجزائر في المولد النبوي واقتدى به من جاء بعده.

- استدراك - الشيخ حمودة المقايسي.

هو حمودة (بفتح الحاء وتشديد الميم مع ضمها) بن محمد بن حمودة بن عيسى الشريف الجزائري المعروف بالمقايسي، قرأ بالأزهر على الشيخ

محمد الدسوقي المالكي صاحب الحاشية على شرح مختصر خليل للدردير، وقرأ الشمسية في المنطق بحاشية عبد الحكيم السيالكوتي الهندي المتوفي سنة1097هـ والمطول (بصيغة اسم المفعول) وهو شرح لمختصر القزويني في البلاغة، والعقائد النسفية في توحيد الماتوردية وهما للتفتازني كما أنه قرأ الحكم لابن عطاء الله الأسكندري والموطا للامام مالك والشفاء للقاضي عياض وسنن أبي داوود وجامع الترمذي وسنن ابن ماجة وسنن النسائي ومن أشياخه بالأزهر حسن العطار والصبان ومحمد الأمير وأذنوا لـه بالاقراء، ثم ارتحل فمر بتونس فطلبوا منه الجلوس للتدريس ويقومون بما يحتاج اليه ولكنه أراد أن ينصرف الى الجزائر فوجد فيها علماء ولم يشأ أن يتوظف فكان يتعيش من صنعة يديه واكل كتبه كما قال يعني انه باعها وانفق ثمنها على نفسه، ومن صنعته جاءه لقب المقايسي، والمقايس أسورة تصنع من قرون الجاموس تتحلى بها النساء وقد كانت شائعة فيما مضى، والمفرد مقياسة وهي المسياسة وهما كلمتان من اللهجة الدارجة ويقابلهما السوار في اللغة الفصحة- ونفهم من ترجمة هذا العالم في تعريف الخلف انه كان لا يرتاح لأمر آمر فغاب عنه أو تناسى رحمه الله ان المرء كما لـه حقوق أيضا واجبات وربما تحكمت الطبيعة احيانا في الانسان وتغلبت عليه ومهما كان الامر ففي وسعه وطاقته بالعزيمة والارادة أن يتخلص منهـا، وتوفي سنة 1245هـ ولازالت اعقابه بمدينة الجزائر الى الآن.

- الحاج حمد الشريف الزهار بن الحاج علي يرتفع نسبه الـى الحسـن بن الامام علي بن ابي طالب وفاطمة الزهـراء، ولـد حوالـي سنة 1781 بمدينة الجزائر وأخذ عن مشايخها وخلف والده الحاج علـي

في نقابة الاشراف وباشر الكتابة في ديوان الدولة، وبعد الاحتلال ابعدته السلطة الفرنسية سنة 1832 فارتحل الى تونس واقام فيها عدة سنوات وحضر دروس الشيخ ابراهيم الرياحي والشيخ الحاج الطيب بن عيسى الجزائري واضرابهما من شيوخ جامع الزيتونة، ثم اتصل بالحاج أحمد باي قسنطينة وتولى خطبة الكتابة عنده الى انتهاء دولة الأتراك من الناحية الشرقية ثم التحلق باخوانه وبني عمومته بزاوية سيدي الحبشي (بفتح الحاء وسكون الباء) بقرب بلدة بوفاريك، ثم بارحها الى مليانة، ثم الى محلة الأمير عبد القادر وتولى كتابة سره وصحبه في سرائه وضرائه، وانصرف بعد كارثة الزمالة في 14 ماي سنة 1843 بطاقين الى المغرب الاقصى وكانت الزمالة عبارة عن أسرة الأمير عبد القادر وحشمه وكتابه وجنده وما يتبع من الخيول والحيوانات الاخرى كالغنم والاثاث والخيام والزاد – طاقين (بقاف معقودة مع التشديد والكسر) وهي قرية بجنوب بلدة شلالة (بتشديد اللام الأولى) تبعد بأربعين كيلو ميترا عنها- واستقر المرحوم الحاج أحمد بمدينة تطوان مدة ثلاثة أعوام، ثم بعد انتهاء المقاومة بالقطر الجزائري عاد الى بلده مع ولديه الحاج قدور ومحمد، وتوفي سنة 1872– ودفن بزاوية جده وكان مولعا بعلم التاريخ مغرما بتدوين الحوادث التي جرت في عهده والتي حدثه عنها أبوه وجده فألف من كل ذلك كتابا نفيسا ابتداه من دولة الداي علي باشا وختمه بانتهاء الدولة التركية بالجزائر، وله كتاب آخر ضمنه حوادث أحمد باي قسنطينة والأمير عبد القادر، وبعد وفاة المؤلف ورث السيد محمد الكتاب الأول واحتفظ به وورثه منه ولده السيد محمود الشريف الذي تولى فيما بعد وكالة ضريح سيدي

محمد بـن عبد الرحمن بالحامة وهو الذي تفضل بتسليم هذا المخطوط الى الأستاذ أحمد توفيق المدني فاستفاد منه في تأليفه بعنوان "محمـد عثمان باشا" الجزائر1356- ومنه لخصنا هذه الترجمة الموجزة - وأمـا الكتاب الثاني فقد ضاع فخسر تاريخ الجزائر خسارة عظمى- ويقول الناشر عن المرحوم الحاج أحمد الشريف الزهار أنه رغم البيئة التي عاش فيها والوسط الذي نشأ فيه لم يكن خرافيا أومتعصبا للطرقية بل كان معتدل الفكر نير البصيرة منكرا على المبتدعين.

وهذه التقاييد في تاريخ فترة من العهد التركي التي سماها بحق ناشرها الفاضل بالمذكرات هي في اسلوب بسيط لذيذ فيه حياة نجد فيهـا احيانا كلمات او عبارات من اللهجة الدارجة الشعبية، ولعل المقصود منهـا التبيين لما يريد الكاتب أن يكون كالصورة لما يقصه علينا فمذكراته كتاب فـي التاريخ قبل كل شيء لا كتاب أدب منمق الإنشاء، والمعلومات المحتوى عليها هي التي تهمنا بالخصوص ونستفيد منها، وقد سمعنا منذ زمان مديد أنه كان ببلدنا مجموعات من الأخبار لانعرف ما طرأ عليها هـل هي تلفت بتمامها أم لا زال بعضها موجودا فلو اعتنى مقتنوها بطبعها وتبرعوا بابرازها للقراء لزادت ثروتنا التاريخية وكانوا من المحسنين.

- صالح باي:

ان كان محمد عثمان باشا من أظهر الشخصيات الجزائرية وابرزها فـي عصره فانه وجد أيضا حاكمان بقي ذكرهما الى هذه الأيام وهما الباي محمد الكبير على رأس الولاية الغربية أي القطاع الوهراني وصالح باي في الولاية الشرقية أي القطاع القسنطيني، وقد سلف الحديث عن الأول

وبقيت لنا كلمات عن الثاني وعن أعماله النافعة ومجهوداته المستمرة المتوالية واهتم بنشر العلم فذكرناه هنا.

ولد صالح بن مصطفى رحمه الله في مدينة أزمير سنة 1725 وفي السادسة عشرة من عمره بارح وطنه وتوجه الى الجزائر وانخرط في سلك الكشايرية فعرفوا فيه الرجل النشيط صاحب الرأي الأصيل مع المهارة والصدق والنصيحة في الأعمال، فكان من جملة الذين أرسلهم الديوان الى الناحية الشرقية للخدمة هناك، فلما اتصل بالباي أحمد القلي (بضم القاف وتشديد اللام مع كسرها) اختاره لقيادة الحراكتة وهي عشيرة معروفة في تلك النواحي وزوجه بنته ثم رقاه الى منصب خليفة الباي واستمر في هذه الخطة الى وفاة أحمد القلي، فعينه محمد عثمان بايا على قسنطينة سنة1771-

واشتهر صالح باي وذاع صيته في انحاء البلاد بفضل مساعيه وكان عصره عصر رخاء وسعة عيش ونهضة وازدهار، وكان يدير أمور ولايته بمعرفة وتبصر كأنه ملك مستقل ولكن لم تحدثه نفسه بالانفصال عن السلطة المركزية بالجزائر وبقي ممتثلا لها يدفع ما يجب عليه من الإتاوات بنظام وبلا تأخير، فكان صاحب وفاء وأمانة.

وقد شارك في أيام محمد عثمان باشا في إقصاء الاسبان حين أتوا الى جون الجزائر بأسطول فيه نحو خمسمائة مركب بين سفن حربية وسفن نقل ونحو خمسة وعشرين ألف جندي، ونزلوا بقرب الحامة وواد خنيس بين بلدة حسين داي الحالية وواد الحراش سنة 1184هـ، وورد صالح باي مع قومه وهم يسوقون نحو خمسمائة جمل جعلوها أمامهم

وتقدموا الى المعركة فكانت لهم كالدريئة والسياج يتحصنون بها، ويقول نقيب الاشراف انها كانت ألوفا من الابل- ويذكرون ذلك ما كتبه ابن خلدون في القرن الثامن الهجري في مقدمته عن أعراب بوادينا في جعلهم الابل بتصفيفها على هيئة حلقة والنساء والأولاد والمتاع في وسطها والمقاتلة يدافعون عنها، وأسفرت المعركة التي شارك فيها صالح باي وانتهت بخيبة المهاجمين وعودتهم الى مراكبهم تاركين عتادهم وزادهم في غاية الكثرة وكان انصرافهم في تاريخ 8 حويلية سنة1775.

واعتنى صالح باي بتجميل مدينة قسنطينة فأنشأ مدرسة سيدي الأخضر الملاصقة بالمسجد المسمى بهذا الاسم وتم بناؤها في ذي الحجة من سنة1193هـ وأما المسجد فيرجع بناؤه الى سنة1156هـ، وشيد مسجد سيدي الكتاني سنة1190هـ، ومدرسة سيدي الكتاني يعلمون فيها فنونا مختلفة، وفيها ضريحه وبقربه قبور أعضاء أسرته، وبنى دارا بديعة لسكناه بقرب المسجد المذكور ولا زالت موجودة الى اليوم، وجعل لمدرسة سيدي الأخضر نظاما خاصا محكما واشترط في الطالب أن يكون حافظا للقرآن العظيم وعلم بها الشيخ عبد القادر الراشدي مفتي الحنفية والشيخ شعبان بن جلول قاضي الحنفية والشيخ العباسي قاضي المالكية وامتازت قسنطينة باشتهار عدة عائلات في علوم الدين والشريعة واللغة كأسرة ابن باديس وابن الفقون (بفتح الفاء وتشديد القاف المعقودة مع ضمها) وأسرة ابن عبد الجليل وعرفت باسم ابن جلول (بفتح الجيم وتشديد اللام مع ضمها) واستمر فيها العلم زمانا مديدا -وأقطع لليهود الجهة التي بين سيدي الكتاني وباب القنطرة التي تصل البلد بالخارج وهي على واد

الرمل وكانت تلك الجهة في ذلك الوقت فارغة من السكان فبنوا فيها دورهم ليكونوا على حدة غير مختلطين بغيرهم فسميت حارتهم بالشارع - وجدد بناء القنطرة المذكورة وجلب لها مهندسين من ايطاليا وكان يعرف اللغة الايطالية وأنفق عليها مالا جزيلا، وغرس البساتين ومن مآثره الأخرى أنه أقطع لعائلات قبيلة الزمول أراضي في بسائط بلدة باتنة (بسكون التاء) فاستقر أهلها واشتغلوا بالزراعة وتربية المواشي فأيسروا، وهؤلاء الزمول كانوا فرسان باي قسنطينة قاطنين بسهول عين مليلة- وبعد أن دامت ولايته اثنتين وعشرين سنة قتلوه شنقا بقصبة قسنطينة في أوائل سنة 1207هـ 1792 بأمر الداي حسن باشا والذي يظهر من أقوال المؤرخين أن السبب في ذلك هو تخوف حاكم الجزائر من نفوذ صالح باي والصيت العظيم الذي أحرز عليه في أنحاء البلاد بحسن ادارته وعدله فداخله الشك بأنه سيثور عليه يوما من الأيام ويستقل وينفصل عن السلطة المركزية ولا غرابة أن تكون أقاويل الحساد قد أثرت فيه- وهكذا خسرت الجزائر بوفاة صالح باي حاكما خبيرا في شتى المجالات بل قال بعض المؤرخين انه لو قدر له أن يعيش لعل تاريخ الجزائر كان يأخذ وجها آخر وخاصة برفع الانتاج ومستوى الحياة وقد زار مدينة قسنطينة العالم الطبيعي ديفونتان وقص رحلته بقطر الجزائر والايالة التونسية من سنة 1783 الى سنة 1786 ميلادية وأثنى عليه.

وبعد فهذه باختصار ترجمة صالح باي فهو من الذين يبقى اسمهم مذكورا أبد الدهر لخدمتهم واخلاصهم في منفعة مواطنيهم، يقول الحاج أحمد:

- طالت مدة هذا الباي(22سنة) وساعدته الأيام وكان يرفق بالرعية ويحسن للفقراء، كان محبا للعلم والعلماء، كان له حرث كثير وأنعام كثيرة يستعين بها على شؤونه المخزنية ليحصل الرفق بالرعية اهـ، فماذا نطلب منه وبالخصوص بالنسبة الى عصره، ومن المعلوم ان القضايا التاريخية الحكم فيها باعتبار زمان وقوعها ومقتضيات أحواله، وقد أسس أهل مدينة قسنطينة ناديا سموه نادي صالح باي، ونظمت منذ زمان مديد مرثية فيها قصة اغتياله فرحمه الله رحمة واسعة.

الطبيب عبد الرزاق محمد بن أحمدوش الجزائري

من جملة المؤلفين الجزائريين الذين خلفوا آثارا نافعة لمواطنيهم هو الطبيب عبد الرزاق بن محمد بن محمد بن أحمدوش الجزائري، وهو عالم لا نعرف عنه شيئا كثيرا، ولعل تلقيبه بالجزائري بسبب أنه عاش زمانا طويلا في أرض غربة، وعلى كل حال فمما لاشك فيه أنه عاش في القرن الثاني عشر الهجري والثامن عشر الميلادي اذ أنه يقول في مادة (باذزهر أو بازهر بفتح الزاي وسكون الهاء كلمة فارسية بمعنى نافي السم) في كتابه كشف الرموز الذي سيأتي الحديث عنه قريبا ما يلي:

ولي صنعة فيه (يريد في الباذزهر) أخذتها في مصر سنة ثلاثين ومائة وألف (1130) من الهجرة عام حججت اهـ- وهذا العام موافق لسنتي 1717 و1718 من الميلاد، والظاهر انه ارتحل الى الشرق عدة مرات فله تأليف آخر عنوانه تعديل المزاج بسبب تكوين العلاج مشتمل على نحو الأربعين صفحة حرره سنة 1161 هجرية الموافقة لسنة 1748 ميلادية ببلدة رشيد (بفتح الراء وكسر الشين) بدلتا النيل، ونستنتج من كل ذلك أنه ولد في

أواخر القرن الحادي عشر الهجري فيكون عمر عمرا طويلا نحو الثمانين سنة، ويقولون أن الشيخ عبد الرزاق بن أحمدوش له عدة تآليف ولكن الكتاب الوحيد المعروف هـو كتابه في العقاقير والأعشاب ولم يجدوا منـه الا القسم الرابع فيظهر من ذلك أنه كان يشتمل على أربعة أجزاء، وصدرت ثلاث طبعات منه بالمطبعة الثعالبية بالجزائر.

وقد بدأ الشيخ ابن أحمدوش هذا القسم الذي عنونه بقوله:

- الكتاب الرابع في الأدوية المفردة وشرح أسمائها بالمقالة الرابعة مـن الكتاب الثاني من القانون لابن سينا في تعرف أفعال قوى الأدوية المفردة، وهذه المقالة فيها تسع صفحات زثم أنه اتبعها بكلام من انشائه، وقد ختم ما نقل من قانـون ابن سينا بقوله:

- انتهى منه بحروفه، ثم قال: اتخاذ الأدوية إذا فتح الله عليك بمعرفة الأدوية اما بوقوف عليها أوبكتاب فتح الله عليك فيه وحققتها فاذا كانت في الاماكن المعتدلة فيكون أخذها في وسط الربيع ولا تجمعها الا بعد استحكام نضجها في مكانها وكمال ادراكها فان الكاملة الادراك في مكانها مفيدة والفجاجة قليلة الافادة، وفـي البلاد الحرة في آخر الشتاء، وفـي البلاد الباردة في أول الصيف، والاقليم الرابع الذي فيه الجزائر هـو المعتدل، واذا أخذت شيئا من المعادن فاختر منه ما كان سالما مما خالطه من تراب أو مما يشابهه وليس هو(الى آخر ما قال)، وهكذا كان أهل بلدنا يفعلون فانهم كانوا يعرفون اتخاذ الأعشاب في أوقاتها المناسبة ليذخروها الى وقت الاحتياج اليها.

والاسم التام لكتاب ابن أحمدوش هو: كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب، وفي بعض النسخ اسمه: كشف الرموز في بيان الأعشاب، ولعل التسمية الأولى هي الانسب لما في هذا المجموع فقد ذكر فيه مصنفه الادوية التي تتخذ من بعض النباتات وهي الاعشاب والتي تتخذ من بعض المعادن والحيوانات وهي العقاقير جمع عقار بفتح العين وتشديد القاف، ويستعمل العقار بمعنى الدواء من أي جنس كان- وينبغي التنبيه هنا على أننا نتأسف على ضياع الأجزاء الثلاثة التي فقدت كما سبقت الاشارة الى ذلك لأن الكتاب لا يكمل الا بها ولوكان هذا الجزء الرابع مستقلا بنفسه، والظاهر أن الأقسام الأخرى المفقودة كان فيها- على ما نتخيله- بيان الأمراض وعلاماتها وكيفية علاجها كما هي العادة في كتب الطب في سالف الأزمان.

واعتمد في جمع مواد كتابه من مؤلفات الشيخ داوود الأنطاكي ومفردات ابن البيطار والقانون لابن سينا ولكن اعتماده على تذكرة الأنطاكي أكثر، وهو الطبيب المشهور الذي يحكى عنه أمور عجيبة في عمق النظر والعلاج، وولد هذا العالم بمدينة انطاكية بالديار الشامية سنة 95هـ وبلغ السنة السابعة من عمره وهو لايقدر على النهوض والوقوف على رجليه لما اصابه في الأعصاب، فمر رجل من العجم بمنزل أبيه فصنع له دهنا مسحه به في الشمس ولفه باللفائف حتى دبت في جسمه الحرارة وسارت في اعضائه ثم فصده فلم تمض الا أيام قليلة حتى قام ومشى وتعافى أي شفي من مرضه، وكان هذا الرجل من الافاضل ومن ذوي المعارف فقرأ عليه داوود الانطاكي المنطق ثم الرياضيات ثم الطبيعيات

وحتى اللغة اليونانية، وبعد وفاة والده دخل الى مصر وكان حسن العشرة لطيف الحديث لا يجلس اليه احد الا استفاد منه، وكانت وفاته بمكة سنة 1008هـ وفي عمره ست وستون سنة.

وابن البيطار هو أبو محمد ضياء الدين بن البيطار الأندلسي الطبيب النباتي الشهير نزل القاهرة.

كان رجلا ثقة في النقل واليه انتهت معرفة النبات وتحقيقه واسماؤه مع معرفة أماكنه، وقد سافر الى كثير من البلدان للاطلاع، وأخذ فن النبات عن الذين يعرفونه في عصره وكان في مصر رئيسا على سائر العشابين، وله عدة تآليف منها كتاب الأدوية المفردة وهو المعروف بمفردات ابن البيطار، والبيطار في اللغة هو طبيب الحيوان، وتوفي بدمشق سنة 646 هـ.

وأما ابن سينا فانه عاش من سنة 370هـ-428 هـ وشهرته عالمية.

وما أخذه ابن أحمدوش من حكماء اليونان فإنما أخذه بواسطة ابن سينا من كتابه القانون وهو كما هو معلوم نوع دائرة معارف في الطب في الزمان القديم - والأدوية التي أورد ذكرها ابن أحمدوش هي التي كانت مستعملة في وطننا في عصره وهو كما سلف القرن الثاني عشر من الهجرة، والكثير منها ان لم نقل أغلبها لازال معروفا مستعملا في أيامنا ويباع عند العشابين وفي دكاكين بعض التجار، وهذه خاصية لكتابه كشف الرموز- ولعل المراد بالرموز هي مجرد أسماء ما يتداوى به وما قاله عنها هو شرح وبيان لها، وهي مرتبة على حسب الحروف الهجائية ولا يألوا من ايراد أسمائها في اللهجة الدارجة الشعبية أو المحلية، وهذه خاصية لكتابه

كشف الرموز لا توجد في غيره، وذكر فيه أدوية لا تعرف الآن في وطننا ولا يجدها المحتاج اليها ولعل الناس تركوا استعمالها لسبب من الأسباب اما لقلتها أوغلاء ثمنها أو غير ذلك، ومن العجيب أنه أخبر بأنه كان يداوي المصابين بالحمى بالكنكينة، ذكر ذلك في كلمة دار صيني، وفي كلمة سليخة قال عنها هي قشر شجرة الكنكينة، واذا شربها صاحب الحمى النافض وهي الباردة مع السخونة في حال أخذها بردتها في الحين، وكيفية ذلك أن يدق درهم (يعني وزن درهم ويساوي 3 غرامات125) فاذا ابتدأته الحمى شربه بالقهوة ثم بعد ساعة يشرب درهما كذلك وبعد ساعة أخرى يشرب الثالث فإنها تنقطع من وقتها باذن الله تعالى، وقد جربتها مرارا ولا تعرف عندنا (أي بالجزائر) بالسليخة بل كنكينة اهـ- والسليخة (بفتح السين وكسر اللام) قشور يجلبونها من الهند، وكانت معروفة عند الأطباء المسلمين في القرون الوسطى، ونجلب هذه القشور وهي مرة من بلدان أخرى: أمريكا الجنوبية وجزيرة جاوة وسيلان، وأشجارها باسقة وبدأوا يستخرجون منها مادة لقطع الحمى سنة1820م وسميت بالكينا بكسر الكاف.

ويمتاز كتاب كشف الرموز بأنه صنع عالم تجنب الخرفات وجرب الأدوية وشاهد أحوال المرضى وتمهر في العلاجات فهو من صنف نطاسي القرون الغابرة المشهود لهم بالدراية وعمق النظر، وقام بتصحيحه المرحوم عبد الرزاق الأشرف ذلك الأديب اللطيف الذي عرف الناس فيه الثقة والأمانة واتقان ما يقوم به من الأعمال فإنه استعان بعدة نسخ وقابل بينها وراجع الأصول الطبية التي استقى منها ابن أحمدوش كما أنه راجع

قواميس مختلفة وقال: وإن وقع في هذا الكتاب خلل فمن فوق طاقتنا اهـ- وزاد في آخره فهرستين لتسهيل الاستفادة منه مع الاحالة الى الصفحات.

ولنا أن نتساءل: ماهي فائدة التداوي بالعقاقير والأعشاب؟.

فالجواب أنه أمر بلا شك مستحسن بشرط معرفة ما ينبغي أن يعالج به العليل من هذه المواد بالمقدار الملائم المناسب وليس ذلك بالخطب اليسير.

وقد سمعنا ان للشيخ ابن أحمدوش رحلة الى الاقطار الشرقية، وتنسب له تقاييد في تاريخ مدينة الجزائر.

وفي جريدة اسماء علماء مدينة الجزائر التي اوردناها آنفا- ولا ندعي انها استقصائية- انه ولد في رجب من سنة1107هـ-1695م وليس لدينا ما يحقق هذا التاريخ ويثبته، والمحقق هو ما اخبر به هو بنفسه في كشف الرموز وتقدم الحديث عنه اعلاه.

- ترجمة لعدة علماء بمدينة الجزائر في القرن الحادي عشر الهجري (17م).

ازدهرت مدينة الجزائر في القرن الحادي عشر الهجري بأهل العلم والأدب- ذكر الشيخ محمد زاكور عدة أفراد منهم- وهو أبو عبد الله محمد بن قاسم ابن زاكور الفاسي كان عالما فقيها متواضعا صاحب باع في التفسير والحديث والأصول وفنون البلاغة واللغة والتاريخ، وقرأ بفاس على عدة مشايخ مشهورين، وخلف تآليف عديدة منها شرح جليل على حماسة أبي تمام وشرح قلائد العقيان للفتح بن خاقان وشرح على لامية العرب للشنفري وشرح على الخزرجية وهي منظومة في العروض والقوافي

والمعرب المبين عما تضمنه الأنيس المطرب وروضة النسرين وهو مختصر صغير في تاريخ المغرب الأقصى وديوان شعر عنوانه الروض الاريض وغير ذلك، ونخص بالذكر رحلته التي سماها نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان، وتوفي بفاس سنة 1120هـ وطبعت بمدينة الجزائر سنة 1319 هـ 1902م.

وقد ذكر في رحلته الشيوخ الذين قرأ عليهم في حلقات دروسهم بالجامع الأعظم بمدينة الجزائر، قال ابن زاكور بعد ديباجة رحلته ما يلي:

- وبعد فإن الرحلة منة من الله ونحلة، تكسب الغليظ الطباع غاية الرقة والانطباع وتعقب من كابد لها نصبا علما غزيرا وأدبا، وإنه لما من علي المولى الكريم بدخول مدينة الجزائر ذات الجمال الباهر وحلول مغانيها النواضر أبرأني من غليلي ووجدي ما عاينته من روائها العسجدي وبحرها اللازوردي اهـ، بحذف كقير- وأثنى بعد ذلك على أهل المعارف الذين كانوا حينذاك بحاضرة الجزائر وقال:

- فاهتديت بأنوارهم السنية الى قطف مارق من انوارهم الجنية ورتعت في رياض آدابهم فتمتعت ونهلت من حياض علومهم حتى تضلعت وكرعت في أنهار بلاغتهم حتى رويت وهصرت من أفنان براعتهم ما هويت ونسيت ببشرهم وتأنيسهم وما اقتبسته من المعارف في تدريسهم ما عانيته مـن رهج القفار وقاسيته في لجج البحار، الى أن قال: فممن أقبسني بكلتا يديه وأجازني رواية ما لديه العلم أبوحفص عمر بن محمد بن عبد الرحمن المانجلاتي وهو بقية السلف وبركة الخلف، ثم أخبر أنه عليه المدار في السير والأخبار وإليه المرجع في قواعد الدين مع فصاحة المنطق وله

شمائل وهمة وفصاحة رائقة وبلاغة فائقة إذا حدث أو أملى فما أبـدع ومــا أحلى، على أنه دنا من أرذل العمر واقترب وبات من ورد الثمانين على قرب ،فما ظنك به إذ برد عمره نضير وبدر شبابه مستدير وروض فتائه مورق ونور ذكائه مونق اهـ، ثم أخبر أنه يوم ختم كتاب جمع الجوامع عليه وهو يوم السبت الرابع من جمادى الأولى من شهورسنة أربع وتسعين وألف (1094 هـ) أنشد بين يديه قصيدة في مدحه والثناء عليه – وقال بعد ذلك ما يلي: وكنت أيام قراءتي هذا الكتاب (أي الجوامع) كثير الكلف باختتامه شديد الشغف باخراج نوره من كمامه خوف أن يعوق السفر عــن ذلك الوطر، وكان الشيخ كثيرا ما يتأخر عـن المجلس لغرض عرض مــن حفظ صحة أو دفع ما يتوقع من مرض، فتأخر لأجل ذلك أياما لم أذق فيها من الوجد مناما اهـ، فكتب اليه ابن زاكور في هذا الشأن رسالة، وقــال الكاتب بعد ذلك مايلي:

– فكان رضي الله عنه بعد ذلك إذا أراد التأخر لعذر واضح من الاعذار مــن نزول جليد أو هطل مدرار بعث الي ولده يعلمني انه لا يستطيع ان يحضر مشهده – ولما عزمت على الترحال ونويت ان أعمل فيه الوخد والإرقال طلبت منه الاجازة فيما أقبسني من أنواره وأودعني من أسراره، ثم قال أن الشيخ المانجلاتي كتب له بعد الامتناع اجازة من جملة ما قال فيها ما يلي:

– وبعد فقد اجتمعت بالشاب الأديب السيد محمد ابن قاسم ابن زاكور مفتتح عام أربعة وتسعين وألف وقرأ علي جمع الجوامع للامام السبكي من حفظه مع جماعة من الطلبة فمكثنا في قراءته من أوله الى آخره نحو أربعة

أشهر فرأيت من حرصه واعتنائه واشتغاله بما يعنيه ما اعجبني وفيه قابلية لمـا يلقي اليه مع ذهن ثاقب وفهم صائب ومشاركة في فنون من العلوم، وكانت قراءتنا لجمع الجوامع باحضار شراحه كالمحلي وكنا نقرأ كثيرا منـه باللقط وولي الدين العراقي والكوراني وحواشي مع بعض شراح مختصر ابن الحاجب اهـ، ولما طلب منه تلميذه ابن زاكور أن يجيزه فإنـه امتنع ولكنه ألح عليه المرة بعد المرة فأسعف طلبته حرصا على جبر خاطره، وقد ذكر الشيخ المانجلاتي ما درس من الفنون وكان قد قرأ على مشايخ جلة، ومن أجلهم الشيخ أبوالحسن علي ابن عبد الواحد السجلماسي الأنصاري فيقول عنه أنه لازمه أربع عشرة سنة وذلك بمدينة الجزائر، وقرأ عليه مع جماعة من الطلبة الأخيار والنجباء الأبرار فأخذ عنه فن الأصول والبيان والمنطق ومصطلح الحديث والفقه والحديث والسير والتصوف ففـي الأصول قرأوا جمع الجوامع مرارا ومختصر ابن الحاجب نصفه وفـي البيان تلخيص المفتاح مرارا وفي المنطق الجمل للخونجي مرارا ومختصر السنوسي ونظم عبد الرحمن الأخضري (وهو السلم) وفـي المصطلح ألفية العراقي مراراوجملة ما كتب السير وفي الحديث صحيح البخاري ومختصر خليل في الفقه ونظم ابن عاصم في الأحكام وكتاب الشفاء للقاضي عياض وقصيدة البردة للبصيري فـي مدح النبـي وعقائـد السنوسي، وأخبر المانـجـلاتي أنه كان أخذ قبل قـدوم هـذا الشيـخ (أي أبـي الحسن علي الأنصاري) الى مدينة الجزائر عن غيره مـن المشايخ من أعظمهم شيخ الاسلام سيدي سعيد قدورة بن ابراهيم الجزائري امام الجامع الأعظم أخذ عنه الحديث والفقه والنحو وشيئا مـن

التصوف كالحكم لابن عطاء الله الأسكندري والتنوير، وعن غيره الحساب والفرائض وشيئا من علم التوقيت الى غير ذلك، وأخذ أيضا عن غيره الخزرجية في العروض بشرحها للشريف الغرناطي وقال أنه اقرأها للطلبة مـا ينيف على أربعين ختمة كما أنه أخذ لامية الأفعال لابن مالك فـي التصريف، الى أن قال:

– وها أنا أكملت غرضه وأذنت له أن يروي ذلك عني، ووالله ما ظننت أنـي في هذه الطبقة ولكن (خلت الديار فسدت غير مسود)، وأنهى حديثه قائلا:

– وكتب عن عجل والقلب في وجل صبيحة الأربعاء المكمل عشرين مـن شهر جمادى الأخرى من عام أربعة وتسعين بعد الألف (1094) عبد الله وأصغر عبيده عمر بن محمد بن عبد الرحمن بن يوسف الجزائري الدار والمنشا المانجلاتي نسبا (المانقلاتي بالقاف المعقودة)،

(أحمد بن اسماعيل الكوراني المتوفي سنة 893 هـ، له شرح علـى جمع الجوامع) .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد المومن الحسني الجزائري، رحل الى المشرق مرارا وانتجع للمعارف قطارا وحظي بصحبة شيوخ جلة انهله كل واحد منهم وعله وقد أربى على أهل زمانه وطاول أحبار أوانه وتوغل في الأدب، وأخبر الكاتب(أي ابن زاكور) أنه مدحه بقصيدة أوردها في رحلته، وذلك يوم ختم نظم أبي اسحاق التلمساني في الفرائض يوم الثلاثاء آخر ربيع الثاني من عام أربعة وتسعين وألف – وأجازه باجازة قال فيها ما يلي:

- قرأ معنا صدرا من كتاب جمع الجوامع للتاج السبكي وبعضا من تلخيص المفتاح من باب الفصل والوصل وأرجوزة ابن التلمساني في الفرائض ووقعت المشاركة بيننا وبينه في المسائل العلمية والنوادر الأدبية فألفيته سابق الحلبة ودراك المسائل الصعبة اهـ المنقول، وقال ابن زاكور في أثناء ترجمة الشيخ محمد بن عبد المومن ما يلي: وقد اخبرني في هذه الأيام غير واحد ممن قدم من تلك البلاد من أهل الانتجاع والارتياد أنه تولى قضاءها ورد عليها بعدله رونقها الذي فقدته وبهاءها اهـ، وتاريخ الاجازة يوم الجمعة الثالث والعشرين من جمادى الأخرى عام أربعة وتسعين وألـف (1094هـ).

(قوله: خلت الديار فسدت غين مسود، وتمامه: ومن الشقاء تفردي بالسدد، من بحر الكامل) .

ومنهم الامام العلامة المفتي أبو عبد الله محمد بن أبي عثمان سيدي سعيد بن ابراهيم عرف بقدورة (بفتح القاف وتشديد الدال مع ضمها) شيخ الفقه والحديث ووارث الشرف القديم والحديث تفرع من شجرة علم وتدرع برود وقار وحلم فمحله من الجزائر محل السواد من الناظر، انتهت اليـه خطابتها وفتياها، وأخبر أنه سمع من املائه في مجلسه الخطير جملة وافيـة من الجامع الصغير وأبوابا من صحيح البخاري واجازه باجازة قال فـي آخرها: وكتب العبد الفقير الى الله محمد بن سعيد بن ابراهيم بن حمودة الجزائري وفقه الله لما يحبه ويرضاه أوائل رجب سـنة أربـع وتسعيـن بعـد الألف اهـ.

ثم قال ابن زاكور بعد ذلك ما يلي: هذا آخر ما اجازني بمدينة الجزائر من ولاة الأحكام ورقاة المنابر، وممن لقيته بها ووجهت خطابي اليه الا انه اخترته المنية أثر سقوطي عليه وقبل أن يجيزني فيما لديه الشيخ المسن الحائز قصب السبق في فنون مشتركة الشيخ أبو عبد الله بن خليفة وقد قال عنه انه كان - وان شرست اخلاقه- فاضلا علامة رحالة مجذامه (عالم فاصل للامور) قد كابد في اسفاره الأتعاب ودخل مصر وهو غلان "عطشان " فكرع في غدير الغلوم حتى تضلع في الفنون فآب الى الجزائر وتصدى للتدريس والتصنيف، وقال عنه بعد ذلك: اجتمعت به مرارا والتقطت من فوائده دررا كبارا وأخبرني أنه لقي بمصر الشيخ المحقق يس الحمصي وأخذ عنه في المعاني والبديع والبيان وقرأ عليه مختصر سعد الدين على التلخيص قراءة تحقيق وبحث وتمحيص فاشرأب عزمي الى قراءة ذلك الكتاب عليه اهـ باختصار- وطلب منه أن يقرأه عليه فوعده بالاسعاد في رغبته والاسعاف في طلبته حتى يختم تفسير القرآن المجيد وكان من ذلك الغرض غير بعيد، فلما أورده امله منهله حضره أجله وما أمهله فاقتطفته المنية بأثر بلوغ تلك الأمنية يوم الأربعاء في عقب ربيع الثاني من شهور سنة أربع وتسعين وألف "1094 هـ"- فكان لوفاته وقع كبير عند أهل مدينة الجزائر لفضله وديانته، وقال عن بعض أحواله مايلي:

- وحدثني بعض الاخوان الملازمين له في غالب الأزمان أنه فجع بموت ولده وخيف من ذلك تصديع كبده فلم يجزع لمماته ولم يضجر لفواته واستعان على رزينته بالصبر ابتغاء الثواب وحصول الاجر ما كان الاقدار ما ادرجه في كفنه واضجعه في مدفنه حتى اقبل الى حلقته وما حبسه

عنها أوار حرقته فقيل له في ذلك تعجبا من فرط صبره على ذلك الهالك فقال رضي الله عنه:

- لا أصطلي نار حرقتين ولا اجمع بين مصيبتين اهـ، يريد الشيخ ابن خليفة أنه لا يجمع بين الجزع من فقدان ولده مع ترك حلقة التعليم فهو يعتبر ذلك مصيبتين - وقال الشيخ ابن زاكور بعد حديثه عن هؤلاء المشايخ ما يلي:

- وليكن هذا المولى "يعني أبا عبد الله ابن خليفة" خاتمة من اردنا ذكره من أعلام هذه البلاد من حاضر وباد وإنما لم أحفل بسواهم ممن تبوأ ذراهم اكتفاء بالبحار عن الجداول والأنهار اهـ، ومراده أنه لم يتعرض الا لذكر المشاهير ولكنه نبه ان غيرهم لهم محاسن وفضل، وبعد ان اقام عدة أشهر بالجزائر ارتحل منها قاصدا بلاد المغرب الأقصى ذاهبا الى تطوان بأرض الريف وركب البحر ولذا قال: ثم امتطيت للنوى عن ذلك المأوى ثبج ذلك البحر البعيد الى أخر ما قال.

وأخبر في خاتمة رحلته بأنه فرغ من تحريرها يوم الخميس سابع عشر جمادى الثانية من سنة خمس وتسعين وألف "1095 هـ" بمنزله من المولى إدريس بفاس.

تعليق موجز

حماسة أبي تمام (بتشديد الميم الأولى): تسمى ديوان الحماسة، أبو تمام الطائي المولود سنة 188 والمتوفي سنة 231هـ، هو حبيب بن أوس من أكابر شعراء الاسلام، له مصنفات حسنة منها كتاب الحماسة الذي دل على فضله ومعرفته وحسن اختياره، والحماسة هي الشجاعة وسمي هذا المجموع بالحماسة لأن الباب الأول منها بهذا الاسم، وله مجموع آخر عنوانه فحول الشعراء وكتاب الاختيارات من شعر الشعراء.

قوله شرح قلائد العقيان للفتح بن خاقان الذي عاش من سنة 480 الى سنة535 هـ، وهو من اشبيلية ومات مغتالا في مدينة مراكش، له قلائد العقيان (أي الذهب) في عبارة أنيقة رائعة مع كثرة الصعوبات تستحق الشرح والبيان، -لامية العرب: قصيدة للشاعر الجاهلي الشنفري المتوفي سنة 510م و112 قبل الهجرة، وهي من أشهر القصائد، ومن أقدم شروحها شرح الزمخشري الذي اعتنى فيه خصوصا بالنحو، ولنا قصيدة أخرى لامية وهي لامية العجم للطغرائي المتوفي سنة 513 هـ، وصاحبها عجمي "فارسي" -ديباجة: مقدمة كتاب - وقبس النار يقبسها قبسا من باب ضرب اخذ من معظمها، وفي المعنى المجازي قبس العلم واقتبسه تعلمه، واقبسه علما علمه - حتى رويت: روي "بكسر الواو" من الماء يروى شرب وشبع منه والمصدوريا "بكسر الراء وتشديد الياء" وروى الحديث يرويه رواية اذا نقله العلم أبو حفص، العلم "بفتح العين والام" بمعنى العالم وجمعه اعلام - فما أبدع وما أحلى: ما اسم تعجب أي فما ابدع كلامه وما احلاه،،-

السير: جمع سيرة "بكسر السين" وهي الطريقة، والحياة أي الترجمة ومنها سيرة الرسول عليه السلام، والسير هي ايضا المغازي -على قرب "بفتح القاف والراء": القرب - جمع الجوامع: هو تأليف في الأصول لتاج الدين عبد الوهاب السبكي "بضم السين وسكون الباء" المتوفي سنة 771هـ، وشرحه جلال الدين المحلي "بكسر اللام مع تشديدها" المتوفي سنة 864 هـ محمد الخونجي "بضم الخاء وفتح النون" توفي سنة 649 - ابن عطاء الله الاسكندري: نسبة الى مدينة الاسكندرية، له كتاب الحكم "بكسر الحاء وفتح الكاف" في التصوف، وله ايضا التنوير في اسقاط التدبير - ابن الحاجب: ولد بأسنا "بفتح الهمزة وسكون السين" بأرض مصر سنة570وتوفي بالاسكندرية سنة646 هـ وكني بابن الحاجب لان أباه كان حاجبا لبعض الأمراء، نشأ فقيها في مذهب مالك وغلب عليه النحو والف الكافية في الاعراب والشافية في الصرف وهما منثوران، وله مختصر في الأصول ومختصر في الفقه وكان الناس يقرأون هذا المختصر الفرعي قبل ما يبرز مختصر خليل للوجود وتوفي خليل بن اسحاق سنة 776هـ - مفتاح العلوم للسكاكي طبتشديد الكاف الأولى "ولد سنة 849 وتوفي سنة 911هـ، وهي السنة التي توفي فيها جلال الدين السيوطي وللسكاكي مفتاح العلوم على ثلاثة أقسام الصرف والنحو والبلاغة وختمه بالمنطق - وتوفي محمد الخطيب القزويني سنة 666 هـ، وهو صاحب تلخيص المفتاح الذي شرحه سعد الدين التفتزاني المتوفي سنة 792هـ.

- جامع بن فارس- كان هذا المسجد يدعى فيما مضى من الزمان جامع سيدي الحربي، كان فيه ضريحه، ولا نعرف عنه شيئا غير أنه من

المعقول ومن المحتمل انهم شادوه بعد نزول الاتراك بمدينة الجزائر لأن البناءات أنشئت في الجهة العليا تدريجيا بعد استقرارهم، ولا نعيد القول في أن المدينة القديمة كانت عبارة عن حومة باب الدزيرة منذ زمان طويل كما يتبين من الأخبار والنصوص التي أوردناها آنفا - وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر من الهجرة تملك أندلسي اسمه الحاج علي بن فارس دارا هناك فتناسى الناس اسم سيدي الحربي وصاروا يدعون هذا المسجد باسم جامع بن فارس وسموا ايضا النهج بزنقة بن فارس - وطرأ على هذا المسجد البلى فهجره الناس ولم يرمموه فوقع عليه البيع في شهر ديسمبر1842 وبنيت دار في موضعه، ومدة بعد ذلك اشتراها اليهود وهدموها وبنوا بيعتهم، وكان كثير منهم يسكنون آنذاك بتلك الناحية و بالمناهج القريبة منها كنهج بن عاشير ومسيد الدالية، والظاهر انه لهذا السبب اختاروا ذلك الموقع.

ماذا تحت ساحة الشهداء (بطحاء الحكومة سابقا)؟

ما تحت هذه الساحة كان موضعا منخفضا فرفعوا الارض بانقاض الهدم ووطأوها ومهدوها ولهذا نقص علو منارة الجامع الجديد بنحو خمسة ميترات بالنسبة الى مستوى الارض كما كان سابقا بنهج باب الدزيرة - وساحة الشهداء مرتكزة على أقواس ضخمة من الحجر الصلب وهي متقنة الصنع ،ويرى المتجول هناك يعني تحت الساحة المذكورة برج البحر الذي شاده الأتراك بعد سنة1816 عقب هجمة الانكليز على مدينة الجزائر ورمي القنابل عليها ولم يغيروا هذا البرج بل بقي في الجملة على اصله - ويرى دار الصناعة البحرية لانشاء السفن واصلاحها، والاصطوانات (العرص)

التي تحمل هي ايضا الساحة ولها ضخامة وغلظ، ولم يبق من المسجد الذي كان هناك الا أساسه وأسفله وكان يدعى مسجد الصباغين ومسجد المقايسية ولم يكن له منارة وهاتان التسميتان لمجاورة أهل صناعة الصباغة والمقايس وكان لكل صنف من الصناع زقاق خاص بهم ،وكان موجودا مسيد القيسارية وهو مكتب قرآني للاولاد ،والقيسارية هو النهج التجاري فيه أنواع البضائع - وهذان البناءان هدما في الأيام الأولى من الاحتلال فنشاء الدور الجديدة على شكل أوروبي.

وفي أقصى كل ما ذكرنا عيون ماء عذب (عناصر) تنبع من الأرض وكنا اسلفنا القول عن العيون التي كانت بمرسى مدينة الجزائر في الزمان القديم،وجاء ذكرها في مؤلفي القرون الوسطى - وقد وجدوا عن نحو عشر ميترات تحت مسجد كتشاوة عند هدمه عدة حياض بناها الرومان غالب الظن في القرن الثاني من الميلاد وكان عصر سعادة للبلاد ورفاهية نسبية فأنشئت فيه البناءات ومرافق الحياة، وكانوا وضعوا هذه الحياض (السوارج) اثنين اثنين متسلسلة متتابعة فيثبت من ذلك أن الأرض في ذلك العصر البعيد كانت منخفضة بكثير عما هي عليه اليوم، وهذه الحياض كانت تمتلئ من الماء المجلوب من ناحية برج مولاي حسن (ابن خير الدين) بقنطرة يسيل عليها الماء في قناة الى أن يصل اليها، ثم يوزع الى الجهة السفلى من البلد - ولم نر أحدا ذكر سبب هذا الحفر العميق لبناء أساس الكنيسة ولكنه يتبادر الى الذهن أن الأرض هناك كانت أكداسا من تراب متراكم متراص من الردم يعني غير أرض صحيحة تحتمل ثقل البناء الضخم فما كان على أهل الخبرة بالفن المعماري الا أن يصلوا الى

الأرض الصلبة أو الحجر.

وقد وجدوا مدة بعد بعد ذلك عدة حياض أخرى في حومة باب الدزيرة في زقاق كان مقابلا للجامع الأعظم وهو اليوم حديقة يانعة فـي تراب جيد أحمر ينبت ما شئت من أزهار وأشجار، ولكن هذه الحياض أقل عمقا من التي ذكرناها أعلاه لأن موقعها منسفل على الموضع الذي شادوا فيه جامع كتشاوة (بالهاء الساكنة في اللغة التركية وبكسر الواو) وقالوا ان هذا الاسم المركب معناه ربوة المعز والظاهر أنه إشارة الى الحالة الـتي كان عليها هذا المكان من قبل ترعى فيه الأعنز.

- خارج باب الواد - كانت في خارج باب الواد مقبرة في غاية الاتساع وفيها كان يدفن المسلمون وغير المسلمين من نصارى ويهود - وكان موضع منخفض تحت الحديقة العمومية الحالية (جاردان مارنقو سابقا ولم تكن موجودة في ذلك العصر) يدعونه رجال الحفرة فيه قبور ممن يستشهدون ولم تكن أي كتابة على الشواهد كما أنه كانت جهة مخصصة لقبور ولاة الجزائر متقنة البناء وليس فـي الامكان اليوم معرفة أسمائهم فـإن القبور والقباب التي كانت هناك بكثرة والشواهد ذهبت ولم يبق منها الا أقل القليل أوكاد لم يبق منها شيء - وكان في يسار من يخرج مـن باب الواد وفي أسفل العقبة التي كانت توصل الى زاوية الشيخ عبـد الرحمن الثعالبي (وكانت خارج سور البلد ولكن بغاية القرب منه) ومقابل قبة سيدي سالم مسجد له قبتان كبيرتان ومنارة وكلها قليلة الارتفاع يدعى هذا المسجد: جامع المصلى (بضم الميم وتشديد اللام مع فتحها)، وكانوا يقولون باختصار: المصلى لأن بساحة المسجد كانت أرض يصلى فيها علـى

الأموات – وكانت من عادتهم أن من توفي خارج المدينة لا يدخلونه إليها فأهله وغيرهم يذهبون اليه ويكون تجهيزه في محل وفاته.

وشيد الدولاتلي الحاج محمد بن محمود مسجدا هناك سنة 1086هـ 1675م وحبس عليه عدة دكاكين مستخرجة منه ليصرف كراؤها عليه،

وفي داخل المدينة فالصلاة على الجنائز كانت تقام في مساجد الخطبة بمكان ملاصق لها لا سقف له في الغالب.

وقد هدموا مسجد المصلى سنة 1862 لإنشاء المدرسة الثانوية التي هي الآن ثانوية الأمير عبد القادر.

وفي الحقيقة كانت المقابر محيطة بالمدينة وكالحزام لها، وكان من عادة كثير من الاهالي أن يدفنوا في بساتينهم اذا كانت المقبرة بعيدة منهم شيئا ما وأحيانا ولو اذا كانت قريبة منهم، وأما اهل القرى فكانت في الغالب المقابر قريبة منهم والأرض متيسرة موفورة فلا اشكال.

وجعلوا أكبر مقبرة خارج باب الواد لأن الأرض هناك واسعة وأكثر المواصلات البرية مع بقية انحاء القطر كانت تبدأ من باب عزون فالموقع الجغرافي ألزمهم بذلك، وبقيت الحالة هكذا الى هذه الأيام فالسكة الحديدية للقطاع الوهراني والناحية الغربية كما أن السكة الحديدية للقطاع القسنطيني والناحية الشرقية وكذا للنواحي الجنوبية جعلوا مبدأها من هذه الجهة.

وكان القطار (وهو الآن مقبرة) كان فيما مضى من الزمان بستانا فيه الاشجار المتنوعة والازهار ويسقى من عين ماء عذب لا زالت تسيل الى اليوم، ولعل التسمية بالقطار منها والمقصود ان كلمة قطارقد تستعمل بمعنى

عين الماء فتوجد قرية بجنوب مدينة سوق اهراس وتبعد عنها بما يزيد عـن العشرين كيلو ميتراتسمى عين قطار فيخطر ببالنا ان اسمها من عين عناك ، والقطار فهو ايضا من يقطر الزهر والاعشاب التي يتداوى بها، وقـد سمعنا من بعض الناس أنه كان يوجد بهذا المكان رجل قطار وهذا هـو المعنى المشهور المتداول.

وعلى كل حال كانت هناك نوع غابة دولية كحديقة عمومية يقصدونها لشم النسيم والهواء الطلق والشرب من مائها العذب الزلال، وكان يوجد مقهى في قديم الزمان بقرب تلك العين - ولما ابطلوا الدفن في مقبرة خارج باب الواد فإنهم نقلوها الى القطار وذلك حوالي سنة1838 وأضافوا اليها أرضا أخرى كانت بستانا واسعا وفيه عدة مبان سنة1935.

وفي خارج باب عزون فإن المقابر والقباب كانت قليلة، وفي سور هـذا الباب وعلى جهتيه كانت خطاطيف حديد تقابل من يريد الدخول الـى المدينة وهي تسمى بالافرنجية قاش "بقاف معقودة وسكون النون ما نسميه بلهجتنا شنقال بقاف معقودة والجمع شناقل".

وكانوا يرمون عليها بعض المجرمين ويبقون هناك معلقين وهم فـي عذاب أليم الى مماتهم، وهذا النوع من التعذيب الذي لا انسانية فيه لعلهم كانوا يريدون به الزجر والتخويف ليرعوي أصحاب الشرور عـن مساعيهم السيئة ويكفوا عنها، والحق أن ذلك التمثيل والتنكيل أو غيره مـن العقاب لم يكن من خصوصيات هذه الدولة بل كان شائعا في تلك العصور في الدول الأخرى.

البيئة الجزائرية

كان بمدينة الجزائر بيئة راقية تتألف من العرب وأهالي الوطن والأندلسيين والأتراك من المملكة العثمانية أكثرهم من آسيا وأقلهم من أوروبا كالبوشناق والأرنوط، واندمج في وسط هذه الحاضرة أفراد من دول حوض البحر المتوسط لجأوا الى مدينة الجزائر واستطابوا بها الحياة وصاروا كابنائها فكونت كل هذه الطوائف حضارة فيها التأم فيها أحسن ما في حضارتهم فنشأت حياة جماعية لها مميزات مصبوغة بصبغة اسلامية ونشأ نوع من الجمال البديع من هذه الفئات، وكانت الصناعة اليدوية رائجة، والنساء اشتهرن بصناعة الطرز على الحرير والجلد، ولا زال بالمتحف الوطني بحي مصطفى مجموعات ثمينة أسلاكها الذهبية والفضية على الحرير لم تتغير وكأنها صنعت في يومها مع أنه مضى عليها دهر طويل، كانت الحياة المنزلية يضرب بها المثل في عفة النساء، وكن يسهرن على تربية الأولاد على الأخلاق المحمودة والسيرة المُرضية، ولباس النساء بالخصوص كان في غاية الاتقان في ألوان مختلفة مشرقة، وأثاث البيوت كان فيه ما يلفت الأنظار من وطاء وغطاء وأواني النحاس المحكمة الصنع والخزف الأنيق البراق وأواني البلور والمرايا في بيوت أبوابها ومنافذها من الخشب النفيس، تميس في الدور نساء وعذارى نقيات البشرة ناعمات الأبدان يظهر عليهن سمة العيش الهني وهن في الثياب الفاخرة والزي الخلاب - ولم يبق في الجملة من لباس الجنسين إلا الأسماء كالغليلة والفريملة والجابا دولي والصارمة والقفطان والصدرية - وأخذت رسوم

مــن نساء بمدينة الجزائر سنة 1832 في لباسهن الفاخر الملون زاد فــي جمالهن الباهر وفي وجوههن سمة الحياء والاحتشام والبال الهادي، ففي رسم زيتي لأوجان دي لاكرووا وشهرته عالمية - بمتحف اللوفر بباريس - صورت ثلاث نسوة من أسرتي طبجي وابن سلطان و"خادم" امرأة سمراء واقفة بقرب المرأة الثالثة في جهة اليمين وكن يسكن دار بنهج في حومة باب الدزيرة، وطبجي هذا كان سابقا من رياس البحر، وكانت في العائلات الموسرة خادم أوأكثر يعشن معها طول حياتهن ويأبين فراقهن لحسن المعاملة، ما يدل على أخلاق مواليهن، هذه هي مدينة الجزائر في سالف الأيام: العفاف والكفاف وسمو الأخلاق (من كتاب الجزائر بتصرف وزيادة) .

كان للعبيد بمدينة الجزائر ما يدعى قائد العبيد بمثابة الأمين للطوائف الأخرى من السكان، وكانوا يأتون بهم من بلادهم، فكان له النظر علــى الأحرار منهم والمعتقين وكلهم كانوا يعيشون في أمن وأمان.

وكانت توجد في دار الامارة آلة الطرب باللغة التركية وباللغة العربية وكانوا يسمونها الآلة الجزائرية وهي الموسيقى الأندلسية الباقية الى اليوم - ولا ينبغي أن تهمل وتنسى لأنها شعار هذا الوطن كالغناء الشعبي والغناء الصحراوي، وكانت نساء "المسامع" يضربن الدفوف كما يخبرنا الحاج أحمد الشريف الزهار، ونزيد هنا ذكر الغايطة وهي آلة طرب معروفة والمطرب بها يدعى الزرناجي والجمع زرناجية وقد سلف القول أن البيئة الجزائرية كان أدباؤها وأهل الظرف يحسنون التوقيع على آلات الطرب كالعود (الكويترا) والكامانجا والرباب لمجرد التسلي وترويح النفس مــع مراعاة الأدب والاحترام وشرب الحلال.

وعلى ذكر اللغة التركية أعلاه فاننا نقول أنها لم يكن لها مكاتب يعلمون فيها ولم تحدث أي مدرسة لهذا المعنى طيلة حكم الدولة التركية، ولعلها لم تر فائدة في انشاءها والجمهور الأكبر والسواد الأعظم لا يتحدث بها وأيضا لتري - وان كانت مرتبطة بالخلافة الاسلامية في تلك الأزمنة - أنها تصون كل ما لهذه البلاد من الخصائص من لغة وغناء وغيرهما فكانت الجزائر مستقلة بنفسها حرة في شؤونها.

وكان من يردون من المملكة العثمانية يعرفون التركية ولكن ذريتهم ينسونها مع طول المدة ويصيرون لا يتكلمون بها.

وذلك لأنهم كانوا يعيشون في وسط كاد لا يستعملها - وكانت التركية هي اللغة الرسمية المستعملة في المراسلات مع دولة آل عثمان ودول أوروبا - والمكاتب القرآنية كانت منتشرة في أنحاء المدينة يتعلم فيها الأطفال القراءة والكتابة في الألواح ويسعون في حفظ القرآن ومنهم من يحفظونه وقد أدركنا عصرا كان فيه حملته متوافرين فالدولة التركية كانت كعادتها تحترم مميزات الأهالي وتحافظ عليها للرابطة الدينية التي بينها وبينهم، ومن يزعم أنها لم تساعد على تعليم العربية ولم تعتن بها فهو على خطأ، فالمذهب المالكي كانت له معاهدة كما أن المذهب الحنفي كانت له معاهدة لأداء الصلوات وللدروس العلمية للكبار وسلف القول على الزوايا، والمساجد الصغيرة في أزقة البلد - واغلبها بدون منارة (صومعة) - كان يصلى فيها جميع الأوقات ما عدا الجمعة فلها جوامعها، وكانت تلك المساجد بمثابة مكاتب قرآنية زيادة على الدكاكين المعدة للتعليم، فماذا نطلب علاوة على ذلك بالنسبة الى ذلك الزمان وبالخصوص أنه لم يكن

فيه التعليم رسميا بل رغبة القوم كانت تحفز بهم لنيل المعارف والصنائع، ومن المعلوم أن المساجد من أقدم العصور الإسلامية للصلوات وللتعليم، وما أحسنها طريقة.

اللغة العامية الجزائرية

اللغة العامية الجزائرية من أقرب اللهجات إلى العربية الفصحى، ونقول ذلك من دون تحكيم للعاطفة ومن دون غرض وانحياز، ولو جعلنا لها علامات الاعراب لصارت عربية فصيحة، والنطق عندنا بالحروف حسب أصلها في الجملة، هذا هو الواقع والمشاهد المسموع، ولا غرابة في ذلك لأنه ليس من اللازم أن تكون لهجة التخاطب تحاذي اللغة الفصحى فبمرور الزمان تتغير اللهجة لأسباب فمن المقبول عقلا أن يكون المتكلمون بلهجة قريبة من الفصيح غير عارفين للفصحى أوبعيدين عنها ويكون غيرهم بالعكس من ذلك، وعندنا النطق بالحروف كاد يكون كما في فصيح اللغة فالجيم مثلا هي الجيم لا القاف والقاف هي القاف لا الهمزة، والظاء المعجمة هي الظاء لا الزاي، ولا يلحق التراكيب والتعبيرات كبير تغيير كما جاء في "كتاب الجزائر" ومسألة النطق بالحروف تنبه اليها ابن خلدون في مقدمته وتعرض لها ببعض القول،وكان أعراب البوادي ولا يزالون ينطقون بالقافمعقودة، ومنهم من يرسمها كافا عليها ثلاث نقط ولذا يصح أن نكتب بلقين بالقاف المعقودة وذلك يظهر في النطق، ويعتبرون القاف وعليها ثلاث نقط من فوق كالفاء في الفرنسية - وبعض الناس في بلادنا يمزجون كلامهم بمفردات افرنجية فيقولون مثلا ترانبيت عوض غلطت وترانجيت عوض اتفقت، وغير ذلك ليس بالقليل، وقصدنا غير هؤلاء، ولما ورد الأندلسيون الى الجزائر فانهم وجدوا لهجة عامية تقرب من لهجاتهم، ويكفي تدليلا على ذلك الأبيات التي ساقها ابن خلدون في الصفحات الآخرة من

مقدمته وكذا ديوان أبي بكر محمـد بن قزمان من أبناء القرن السادس الهجري في عهد الدولة اللمتونية التي حكمت من سنة 454 الى سنة541 هـ ثم خلفتها دولة الموحدين، كان ابـن قزمان قرطبي الدار ينظم الموشحات والازجال ويطوف في الآفاق ويغني في مجامع الناس والأسواق وينتقل من قرطبة الى اشبيلية وغيرها من البلدان كغرناطة - والأدب الشعبي يسمع أحسن مما يقرأ (أحمد أمين) لأن الغناء له قواعد وتحسينات بالنغمات كتمديد الصوت وتطويله في كثير من الأحيان، ومن فوائد الأدب الشعبي أنـه أكثر دلالة على الحالة الاجتماعية في عصره وأوانه وعلى الحياة الشعبية فـي مجالاتها المختلفة من الشعر الفصيح الكلاسيكي وتدل أشعار ابن قزمان على فقره ومشقة حياته من جهة وعلى هزله ومجونه المفرط من جهة أخرى - وأزجاله وموشحاته اشتهرت في قرطبة وفي غيرها من البلدان الأندلسية وحتى في الشرق فكانت مروية ببغداد ويتغنى بها الناس والنسخة الوحيدة التي بقيت من ديوانه وانتسخها أديب من مدينة صفد (بفتح الصاد المهملة والفاء بلدة بأرض القدس) في أثناء القرن السابع من الهجرة - الثالث عشر الميلادي - وجدها المستشرق روسو (من مدينة جيناف بسويسرا) بسوريا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي وباعها مع كتب كثيرة أخرى خطية الى حكومة روسيا وطبعت مدة طويلة بعد ذلك بتصوير المخطوطة وهي صعبة القراءة - كان لابن قزمان ثقافة أدبية واسعة ساعدته على أن يتقدم الزجل والتوشيح على يده - والزجل بفتح الزاي والجيم رفع الصوت مع الغناء يقال زجل يزجل من باب فرح يفرح - ومن شعره باللغة الفصيحة قوله:

يمسك الفارس رمحا بيــده   أنا أمسك فيها قصبـــة

فكـلانا بطـل في حربــه   إن الأقلام رماح الكتبه

قوله قصبه والكتبه بتسكين الآخر،والكتبة جمع كاتب - وطلب منه صديق الحضور في مجلس مؤانسة فقال في هذا الشأن:

أتى من المجد أمر لامــرد لـه   نمشي على الرأس فيه لا على قدم

رقز ورقص وما احببت من ملـح   عندي وأكثر ما تدريه من شيـمـي

حتى يكون كلام الحاضرين بها   عند الصباح وما بالعهد من قــدم

"يا ليلة السفح هلا عدت ثانـيـة   سقى زمانك هطال من الديــم"

وملخص معنى هذه الأبيات أنه دعاه صديق له لمجلس أنس فأخبر أنه يذهب اليه مسرعا ويرقص ويتحدث بمليح الكلام وبما يسر الجماعة كما هي عادته بحيث أنهم يقولون في غد تلك الليلة الساهرة: يا ليتها تكون متبوعة بأخرى مثلها، والبيت الرابع للشريف الرضي من كتاب القرن الرابع وشعرائه وهو الذي جمع خطب جده الامام علي بن أبي طالب في كتاب سماه نهج البلاغة – والأبيات من البسيط.

ونقرأ لابن قزمان في مقدمة ابن خلدون هذين البيتين في (فصل الموشحات والازجال) يصف شابا في زورق رمى بيديه الى ماء نهر اشبيلية:

ذا شمر أكماموا يرميـهـا   ترى النور يرشق لتلك الجيها

وليس مرادو أن يقع فيها   الا أن يقبـل بديـــــداتـو

قوله: اكماموا – مرادو – ديداتو – بزيادة الواو في الآخر وضم ما قبلها لتبيين النطق كما زاد الياء في الجيها لتبيين النطق أيضا، وديداتو بمعنى أيديه الصغيرة – فنرى أن تعبيره كما في لهجتنا الدارجة ومن الأبيات التي

نعرفها من ديوانه فان لغته تشبه الى حد بعيد لهجتها الجزائرية، وفي ازجاله ألفاظ وعبارات من اللغة الاسبانية التي كان النصارى يتكلمون بها وتسمى باللغة العجمية، والمسلمون كانوا يعاشرونهم ومنهم من كان يعرفها، يقول الكاتب أحمد أمين ان لهجة ابن قزمان تخالف بقية اللهجات وانها صعبة الفهم - ونقول أن لهجته الشعبية قريبة من لهجتنا الدارجة التي هي قريبة من الفصحى، وتسلط على غناء هذا البلد بأنواعه أناس رموه بالتأخر والانحطاط وأنه لا يتمشى مع العصر ولا يسايره، وبلا شك أن كل شيء نفيس ينبغي أن يرغب فيه ولكن بلا اهمال ما لدينا من ثمين فله الأولوية والأفضلية - وجميع البلدان تحتفل بتراثها الغنائي والفولكلوري القديم والحديث، وغناء الجزائر من أجمل الغناء العالمي - والعجيب من الأدباء والكتاب أنهم لم يعتنوا بالأدب الشعبي فلم يبالوا به منذ القرون البعيدة فبذلك اضاعوا لنا جانبا من معرفة الحالة الاجتماعية التي كان عليها الأسلاف في شتى المجالات، وقد اعتنى به هذا العبد الحقير بعض الاعتناء ونشر منذ سنوات مجموعا من رباعيات الشيخ عبد الرحمن المجذوب من ابناء القرن العاشر الهجري في الحكم والمواعظ والتجارب الدنياوية مع الشروح الضافية وفاتحة وخاتمة، وحاولنا أن نبين قيمتها الاخلاقية بالخصوص ونبهنا بأن هذه الرباعيات فيها روايات مختلفة بسبب انهما اشتهرت وانتشرت في اقطار افريقية الشمالية فأبدل الرواة كلمات بأخرى حسب لهجاتهم بما لايكاد يغير المعنى، وقائلها أفصح بها بلهجته المغربية.

وقد تنبه كاتب كابن خلدون في القرن الثامن في مقدمته وكأحمد المقري في القرن الحادي عشر الهجريفي ازهار الرياض لفائدة الموشحات،

والازجال لا للتسلية وترويح النفس فحسب بل لشيء آخر من وعظ ودعوة الى الاخلاق مع انها لا تخلو من البلاغة مما دل على إصابة نظرهما وسعة أفاقهما.

والحاصل ان اللغة الفصحى هي وحدها العمدة في الآداب والفنون والأدب الشعبي ولو ترقى فله ميدان خاص ومجال ضيق مع أن لنا مثلا في شعر المرحوم محمد بن قيطون البوزيدي الخالدي المتوفي سنة 1316 حسب ما اخبرنا ولده الشيخ أحمد ما يعجب وقصيدته حيزية مشهورة - وهذا أمر مفروغ منه ولا نزاع فيه، وأدبنا الشعبي يجب المحافظة عليه فهو ثروة نفيسة مأثورة بما فيه من قديم كالموسيقى الأندلسية البديعة وبما فيه من حديث بانواعه يعني غناء المدن والسهول والجبال والصحراء، ويضاف اليه الغناء العصري الذي تتوفر فيه شروط اللياقة وحسن السبك والتعبير، وكل ذلك من مميزات هذا الوطن ومن تسامح فيه فقد أضر بشخصيته وانتقصها شعر أو لم يشعر - والحاصل ان كل بلاد لها خصائصها تراعيها وليس في ذلك نكران لما هو جميل وله قيمة.

وبمناسبة ذكر أحمد المقري صاحب نفح الطيب وغيره من التصانيف فاننا نقول ما يلي:

أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد المقري أحد أبناء هذا الوطن العظام وفخر مدينة تلمسان نشأ بها وقرأ على عمه سعيد بن أحمد المقري وغيره من مشايخها، وقرأ بفاس على الامام القصار وغيره وتمهر في الفنون وارتحل الى الشرق وزار مدينة دمشق ووقع له فيها اقبال عظيم وجاور وأقرأ بالحرمين الشريفين، وكتب التراجم تجعل وفاته بالقاهرة

سنة1041هـ ولكن ذلك غلط اذ هو يقول في الختام منظومته في التوحيد وعنوانها: إضاءة الدجنة في اعتقاد اهل السنة – انه فرغ من نظمه – وهو موجز – عام اثنين وأربعين وألف 1042 هـ – ويؤخذ من قول الشيخ محمد عليش (بكسر العين واللام مع تشديد هذا الحرف الثاني) في شرحه على هذه الارجوزة أن وفاة الامام احمد المقري كانت بمكة المشرفة حوالي عام 1050 هـ ولعل هذا التاريخ هو الصحيح ولكن المحبي يقول في خلاصة الاثر انها وقعت سنة 1046 هـ – والله اعلم بالصواب، وقوله الدجنة بضم الدال المهملة والجيم وتشديد النون وهي ظلام الليل كالدجنة على وزن غرفة يعني بضم الدال وسكون الجيم، وهي أشهر في الاستعمال لخفتها على اللسان وانما اختار الأولى لأجل السجع: الدجنة والسنة ووزنهما واحد – وبقيت مسألة لها قيمتها وأهميتها: يقولون المقري هي نسبة الى مقرة (بفتح وسكون القاف) قرية في الطرف الشرقي من سهول الحضنة التي كانت تسمى في القرون الغابرة بالزاب فهي بلدة قديمة ورد ذكرها في كتب الجغرافية وينطقون بها في أيامنا مقرة بالقاف المعقودة، ولأهل تلك النواحي مثل: عش ياراسي حتى يجيك الزيت من مقرة، وهو مثل يضرب للأمر المستبعد، وهذه هي النسبة التي شاعت عند اغلب الكتاب، وقد قال بعضهم ان المقري نسبة الى مقرة وهي مدشر في دائرة واد أنبر (بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الباء) وتبعد بنحو 23 كيلو مترا عن بلدة سيدي بلعباس للذاهب الى نحو تلمسان ولكنهم يميلون في نسبة المقري الى البعيدة ويتركون القريبة أو يتغافلون عنها، فهل ذلك لشهرة البعيدة وخمول الثانية وضآلتها؟ ومعلوم ان قيمة الرجال مقياسها غير

هذه الاعتبارات، والمقريون جماعة من العلماء الأفاضل نبغوا بتلمسان وظهروا في سمائها كالشموس، وكما انه لا يعرف تاريخ وفاة الامام احمد المقري بالتحقيق لا يعرف ايضا تاريخ ولادته بالتحقيق غير انه من مواليد أواخر القرن العاشر الهجري - وفي كتاب البستان في تراجم علماء وصلحاء تلمسان لابن مريم ما يشفي الغليل للمقتصد، ونعيد القول بأنه نشره المرحوم الشيخ محمد بن شنب بالفهارس المتعددة فكان عملا صالحا يستوجب الثناء الجزيل والذكرى الطيبة التي هو بها جدير.

- ونضيف هنا زيادة لكتاب البستان لمجرد الاستئناس ان مقرة التي في أنحاء تلمسان لها كلمة توازنها وهي مكرة (بفتح الميم وتشديد الكاف مع فتحها) وهي اسم النهر الذي يمر بسيدي بلعباس زونتخيل انهم كانوا ينطقون في قديم الزمان بمقرة بتشديد القاف كما يقولون في الوقت الحاضر مكرة بتشديد الكاف لا بسكونها، ولا بأس أن نزيد آخرا اننا اطلنا في مسألة ثانوية ولكن رأينا أن كل ما يخص العلماء وعالما كأحمد المقري ينبغي الاحتفال به والاعتناء كما ان هذه الترجمة مع غاية اختصارها هي أيضا ذكرى لتلك المدينة الأثرية العزيزة في قلوبنا.

- وفي مجال الحديث عن لهجة الجزائر الدارجة فاننا نضيف المفردات الافرنجية التي دخلت اليها ونجد بعضها في نص غزوات عروج وخير الدين مثل كلمة ضبلون وهي اسبانية تدل على الدينار المصنوع من الذهب - وجلنار أي جينيرال - وسقالة وهي كلمة ايطالية أي الرصيف بمعنى الطريق المبلطة بالحجارة على ساحل البحر وأيضا السلم للصعود والهبوط من السفينة - وشنيور وهو السنيور بمعنى الشريف النسب والرئيس

وهذه الكلمة أصلها لاتيني - ولنبلادور كلمة اسبانية معناها القيصر - وقرقاطة بالقاف المعقودة وهي كلمة افرنجية وتدل على نوع من السفن الحربية والجمع فرقاطات وفراقط - وباسبورط كلمة افرنجية بمعنى الإذن للسفر - وهناك غيرها ولا نقصد هنا الاستقصاء.

وهذه المفردات وغيرها استعملها الجزائريون من جراء معاملاتهم التجارية مع أمم دول هذا البحر المتوسط، واللغة التركية خلفت بعدها عدة مئات من الكلمات وبعض التراكيب القليلة جدا مثل حاضر باش أي حينا وفي الحال - وخطايلة بفتح الخاء المعجمة والطاء بلا تشديد والياء ساكنة ومعنى هذا المركب مصادفة وبلا قصد.

- وكثير من الكلمات التركية الأصل نسيها الناس وتركوا استعمالها لسبب من الأسباب كاضمحلال الصنعة أو إبدال كلمة بكلمة أخرى عوضها مثل بوشاق عوضه بموس - ودونانما (بتسكين النون الثانية) عوضوها بسكادرة (بسكون السين والدال المهملة) وهذه كلمة افرنجية - وبقيت في اللهجة الدارجة كلمات عديدة وردت مع الأتراك تدل على أنواع من الأطعمة مثل بازينة وهي نوع من العصيدة المصنوعة بالسميد وعصير اللحم والملوخية (القناوية بالقاف المعقودة) - وباقلاوة نوع من الحلوى - وبرغل - وبوراك - ودولمة بضم الدال المهملة وسكون اللام - وصامصة - وبلاو بالباء بثلاث نقط وفي العربية يبدلونها بباء موحدة كما هي عادتهم - وبوزة نوع من المشروبات كالبيرة بكسر الباء وبتشديد الراء - ولنا مفردات تدل على أنواع من الأقمشة أو اللباس للرجال أو النساء ومنها آلاجة وهـي نوع من الحرير الملون - وباز وهو نوع من القماش في الغالب

رمادي اللون - وتاباني مما يجعل حول الرأ س - ودامي نوع من اللباس - وشال بتخفيف اللام - ومست (بفتح الميم وسكون السين) نوع من الخف ويسمى أيضا بالبست، وكانت أسماء كثيرة مستعملة للدلالة على أنواع من الصنائع أو على المحترفين بها منها آلاجي للذي يوقع على آلات الطرب - وبابوجي لصانع البابوجات جمع بابوج لما يجعل في الرجل وبقي لفظ بابوجي علما لرجل - وتارزي وهو الخياط وبقي الى اليوم التسمية بباش تارزي (بسكون الراء) - وبوشاقجي وهو صانع الأمواس (بوشاق بمعنى الموس) وهو مستعمل علما - شارباتجي (بسكون الراء والتاء) لصانع الشاربات أو بائعها وهو اسم مستعمل علما - وشاقماقجي لصانع "المكاحل" وهو مستعمل علما - وصابونجي لصانع الصابون أو بائعه وهو مستعمل علما - وصايجي لقابض الضريبة على الأغنام وبقي مستعملا بقلة علما لرجل - وطبجي أو طوبجي وهو من يرمي الكر (الكور) بالمدفع وبقي طبجي وباش طبجي علمين - وفنارجي أيضا علم - وقاوقجي لصانع القاوق نوع من الشاشية للنساء تصنع من المَلْف أوالقطيفة - وقطرانجي لصانع القطران أو بائعه ويستعمل علما - مسرضاش (بفتح الميم وتشديد السين مع فتحها وسكون الراء) لصانع السفن وكانت من الخشب الصلب وبقي مستعملا علما - دمارجي بفتح الدال وسكون الراء: هو الصراف أوالصيرف - أوالصيرفي- وبربر بمعنى مزين أي حفاف.

وما ذكرناه قليل من كثير وإنما حاولنا أن نلم بهذا الموضوع بعض الإلمام لزيادة الفائدة وربما كان التطويل فيه السآمة والملل.

- وهناك صنائع ذهبت بتمامها وانعدمت فقد كان بحومة باب الواد

مسجد الدياسين جمع دياس لمن يصنع بعض الأشياء بالديس وهو نبات معروف تصنع منه الأطباق وما يسمى بالدارجة بالكوفي يذخر فيه الحبوب وغيرها - ومسجد الكبابطية وهم من يبيعون الكبابط أو يصنعونها، ويكبابط جمع كبوط (بفتح الكاف وضم الباء مع تشديدها) وهو نوع من اللباس معروف، وكان يسمى هذا المسجد أولا بمسجد الحلفاوية أوالحلفاويين، وهدموه سنة 1839 وبنيت كنيسة البروطسطان عام 1845 في قسم من مساحته والباقي منها لجعل النهج وبناء الدار المقابلة للكنيسة.

لمحة في تاريخ الجزائر

إن هذه الحاضرة لعبت دورا عجيبا مدى العصور فبسعي ولاتها وسكانها طبعت هذا القطر بطابع خاص ممتاز، والتاريخ هو حياة الشعوب لا قصص الوقائع والأحداث بل هو أيضا الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية زوقد أتينا بجملة صالحة عن موقعها ومرافقها ووصف بعضهم لها – واعتمد أهلها على أنفسهم في شؤونهم من دون أن يشعروا بالنقص وبرعوا في ميادين الحياة المختلفة في الطبخ مثلا بحيث انه صار يضرب به المثل في اللذة والاتقان، وخصوصا بما أتى به الأتراك والأندلسيون وفي أنواع الصنائع والحرف، ولا ننسى الفن المعماري ولا الملاحة البحرية التي بلغت الى حد بعيد، وبمناسبة ذكر الملاحة فاننا نتساءل: هل تخوف أتراك الجزائر من تكوين جيش بري نظامي؟ فليس لدينا ما يحملنا على القطع والجزم مع إمكان خوفهم أو تحذرهم على الأقل من الجزائريين، ولعل ذلك اتقاء من المناوشات والمصادمات بين الفريقين أي الكشايرية والأهالي أو ليرى مواطنوهم أنهم في أمن منهم.

وبعسكرهم النظامي الذي كانت وحداته نحو خمسة عشر ألفا ويضاف اليهم من كان يستدعى من الأهالي عند الحاجة اليهم اكتفوا في الدفاع عن الوطن برا، واتخذ بعض الولاة الجزائر احيانا حراسة من الجزائريين عوضا عن المشارقة تفاديا من تهديدهم واضطراباتهم، ويظهر انهم لم يروا في اتخاذ جيش بري ضرورة ملحة، وذلك موضوع فيه بحث ويستلزم الاطلاع على وثائق للجزم في الجواب عن هذه المسائل الغامضة– وقد

تكلمنا عن الجيش النظامي بنوع من التفصيل فليرجع اليه من شاء من القراء الكرام - والملاحة البحرية الجزائرية أضر بها اغاثاتها المتكررة للدولة العثمانية عند الخطر فكان مآلها التلاشي والاضمحلال - وقد توجه نظر الأتراك في أول الأمر بعد نزولهم لمدينة الجزائر الى البحر لأن فريقهم برياسة عروج وخير الدين كان يعيش في البحر في كثير من الأوقات ويعيش من البحر، وتمادى من جاء بعدهم على هذه السيرة لما فيها من الأرباح، ولو قاست مدينة الجزائر ما قاست من الغارات من جراء ذلك.

ونبغ أهل الجزائر في الموسيقى بأنواعها من أندلسي وشعبي وصحراوي، وتفوقت الأغاني والمدائح والموشحات بفضل لهجات هذا الوطن فمن الميسور جدا أن تكون وسيلة للتعريب، فاذا تعلم التلميذ شيئا كافيا من اللغة الفصحى وأخذ قسطا لا بأس به من الأدب العربي فمن السهل عليه أن يدرس بعد مع مشايخه الكتب العلمية في مختلف الفنون، ولا بد من التطبيق والتمرين بعد تلقين القواعد كما أنه لا بد من التأني والمثابرة مع عدم الكلل والملل وطول الزمان شرط في النجاح وبلوغ الأمل - وبعد فهذه كلمة خاطفة عن التعريب ولسنا هنا بصدد الكلام على ما ينبغي أن يكون عليه المعلم من الصفات وماذا يشترط فيه وعلى كيفية التعليم وطرقه فنكتفي بما قلناه لعل بعض القراء يجدون فيه فائدة.

وقد أوردنا ما فيه كفاية لمن يريد أن تكون له لمحة فيما يتعلق بهذه العاصمة في غابر الأزمان، وكل ذلك بانصاف وتبصر في تأدية الأمانة التاريخية، وذكرنا بعض الوقائع بايجاز وهي وقائع اختلفت فيها الأراء حسب منظار المؤرخين فاجتهدنا في أن نقتصد في شأنها فالمسؤولية

التاريخية خطبها ليس بالسهل اليسير فان المرء يجد نفسه أمام بيئته وميوله الشخصية وأمام الحقيقة التاريخية التي يحاول أن يستخرجها جهد طاقته من بين الكتب المختلفة النزعات والنظريات فيختار ما يتخيله ويظنه أقرب للواقع والصواب ويتقبله العقل السليم الخالي من الاهواء والاغراض، فكيف يصنع ليرضي جميع الناس وهي غاية لا تدرك أو قلما تدرك: فمن قائل أنه حابى وبالغ ومن قائل أنه جار وانحرف عن سواء السبيل ولكن غير الحق بالمرصاد تطالبه بالاعتدال والانصاف، وعلى كل حال فاننا نلتمس العذر الذي يستحقه من هو خالص النية في الهفوات أو العثرات التي ربما فرطت منه بلا عمد ولا قصد.

والتاريخ ليس كعلم الرياضيات "الحساب وما اليه" ففيه الحدس والفرض والتقدير وبالخصوص اذا أعوزت أو قلت الكتب والتقاييد والوثائق المختلفة والآثار من بناءات ونقوش عليها والنقود وغيرها كأثاث البيوت واللباس والسلاح، وهذه كلها تسمى بالعلوم المساعدة للتاريخ.

ومما يزيد في الخطب صعوبة فإن الكاتب اذا لم يشاهد الأحوال فهــو يكتب عنها بعد زمان طويل أو قصير فيقصها حسب فهمه وتصوره للقضايا والمطالعة والتأمل، وهذه حالته أيضا إذا لم يجد ما يساعده كما سبق قريبا، والقارئ يطلب منه الصدق والأمانة وحسن البيان والوضوح.

وقد أطلعنا صديقنا السيد كاتب الحسين بن المرحوم السيد قدور الامام، كان بالجامع الأعظم على عدة رسوم قديمة بإمضاء قاضي الحنفية بمدينة الجزائر في ذلك الزمان كما أنه أطلعنا على ورقة مذكور فيها أسماء أعقاب (ذرية) الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، فالثناء الجزيل لهذا الصديق على تبرعه وكرمه.

وها هو المسطور على تلك الورقة:

خلف الشيخ الثعالبي محمدا، وخلف هذا بنتين: كلة وزينب، وخلفت زينب أبا محمد عبد الجليل، وهو خلف السيدة آمنة، وهي خلفت أبا عبد الله محمد الصغير، وهو خلف سلطانة، وهي خلفت يوسف وقمورة، ويوسف خلف شوشة، وهي خلفت السيد قدور ابن أحمد ابن كيوان به عرف، وشقيقه عبد الرحمن ومريم وعائشة والزهرة، وولد لعبد الرحمن هذا فاطمة والزهرة، وولد للزهرة بنت شوشة ومحمد بن مصطفى، ولمريم محمد بن خليل، ولعائشة محمد وحمدان اهـ، ما في الورقة بأجمعه وليس عليها اسم الكاتب ولا تاريخ وهي على كل حال قديمة.

ونلاحظ ما يأتي: كلة بفتح الكاف وتشديد اللام من الأسماء القديمة للنساء في هذا البلد – آمنة بكسر الميم، ويقولون أيضا يامينة بكسر الميم – سلطانة مؤنث سلطان، وهي من الأسماء القديمة مثل كنزة وبلارة بتشديد اللام – قمورة بفتح القاف وتشديد الميم مع ضمها، ويسمون أيضا بقمرة وقمير – شوشة من أسماء الاناث التي هجروها – الزهرة بضم الزاي وسكون الهاء وهو اسم كثير الاستعمال كفاطمة الزهراء – عائشة وينطقون بها عيشة منذ عصور بعيدة.

ولا زالت أسرة كيوان من سلالة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي من جهة البنات موجودة الى هذه الأيام بمدينة الجزائر – وسمعنا أن عائلات أخرى توجد بالجزائر ولكن لسنا نعرفها.

ونختم القول هنا بأن قيمة الانسان بما يحسنه من الصنائع والفنون وبأخلاقه المحمودة ونزاهته فلا بأس ومن المستحسن أن يكون منتميا

الـــى أصل مآثر شريفة فلعله يكون كأسلافه فيسير على خطتهم ويكون قدوة لغيره في الأعمال الصالحة النافعة للمجتمع، والاسلام يراعي ويعتبر قيمة المرء، وهذا موضوع سلف الحديث عنه فلا نعود اليه.

- ومن أسماء الاناث في العصر التركي بمدينة الجزائر: مدينة (بفتح الميم وكسر الدال) - فاطمة (بسكون الطاء) - فطيمة (بسكون الفاء وكسر الطاء) - فطومة (بفتح الفاء وتشديد الطاء مع ضمها) - خديجة (بسكون الخاء وكسر الدال المهملتين) - ويسمون ايضا بخديجة "بفتح الخاء وكسر الدال كما في الفصيح) - عيشة - عويشة (بسكون العين وكسر الواو) - عواوش (بسكون العين والواو الثانية) - زهيرة (بسكون الزاي وكسر الهاء) - خدوجة (بفتح الخاء وتشديد الدال مع تشديدها) - خداوج (بسكون الخاء وفتح الواو) - نفيسة - غانية (بكسر النون) - العالية (بسكون اللام) - الغالية - يامنة (بسكون الميم) - زينب - رقية - موني (بضم الميم) - عقيلة (بفتح العين وكسر القاف) - ربيعة (بفتح الراء وكسر الباء) - صفية (بفتح الصاد وكسر الفاء وتشديد الياء مع فتحها) - تماني (بفتح التاء والميم وكسر النون) - قوسم (بقاف معقودة ومضمومة وفتح السين) - سونة (بضم السين) - عيشونة - كلثوم حسيبة - روزة (بضم الراء) - باية - ظريفة - صبيحة (بفتح الصاد وكسر الباء) زليخا - حنيفة - هاجرة - آسية - سليمة - صالحة - سعادة - شريفة - طومة - تومة - مبرورة.

فهذه طائفة من الأسماء للاناث ومن البديهي أنه يوجد غيرها ولا يمكن إحصاؤها،

- وأطلعنا أيضا على رسم تزويج وها هو أهم ما فيه: تزوج على بركة الله

السيد مصطفى الانجشاري بن السيد محمد خوجة كاتب مخزن الزرع كان في التاريخ بمخطوبته الولية آمنة بنت السيد باكير الأنجشاري القنداقجي بن السيد محمود بن الكاتب به عرف على صاق قدره ستمائة دينار كلها جزائرية خمسينية العدد من سكة التاريخ وقفطان واحد كمخة وثلاثة قناطر صوف وثلاثة أفراد وأمة واحدة من رقيق الودان الصالحة للخدمة لا غير، نقدها من ذلك قبل البناء شطر الدنانير المذكورة مـع الاسباب المسطورة وباسم الكالي وحكمه الباقي من الدنانير المرقومة مـع الأمة المسطورة يحل لها عليه لمضي ستة أعوام آتية من تاريخه لابراءة لـه من ذلك الا بالواجب شرعا، وسوده بتاريخ أوائل شعبان عام 1229.

شرح وجيز: الأنجشاري هو الانكشاري أو الكشايري أ ي الجندي النظامي في الدولة التركية بالجزائر،وكان الأتراك الوافدون من بلدهم كثيرا ما ينخرطونفي الجندية ثم بعد انتهاء مدتها يصيرون مدنيين ويحترفون ما يعرفون من الصنائع أوما يتعلمونه - وكان كل واحد منهم يتقاضى مقدارا من الدراهم كل شهرين يقبضها بدار الامارة - القنداقجي هو صانع السلاح وبالخصوص صانع سرير "المكاحل" أي لوحها الدنانير الخمسينية: هذا الوصف لتعيين نوع الدنانير إذ كانت العملة في ذلك الزمان كثيرة الأنواع والقيمة وتختلف من وقت الى آخر وحسب الأقطار - من سكة التاريخ أي تاريخ الرسم وربما أذا كانت قديمة نوعا ما نقصت قيمتها لسبب من الأسباب كالانحكاك من كثرة مرورها بالأيدي فينقصوزنها وثمنها أو يتغير مقدار الذهب الذي جعلت منه العملة - ثلاثة أفراد يعني ست مسايس - شطر الدنانير هو نصفها والباقي منها هو الكالي أي المؤخر

من الصداق يدفع في وقت معين محدود، والكالي أصله مهموز الآخر أي الكالئي اسم فاعل من كلأ الدين يكلأ كلأ إذا تأخر دفعه فهو فعل لازم مـن باب فتح يفتح فتحا - سوده بتشديد الواو أو بيضه بمعنى كتبه - وكانوا يجعلون في أعلى الرسوم "نوارة "مستطيلة لونها وردي.

- وها هو رسم تزويج آخر وفيما يأتي أهم ما فيه باختصار: تزوج على بركة الله السيد أبو الحسن علي بن الحاج محمد بن سيدي علي بن مبارك بمخطوبته السيدة فاطمة بنت الفقيه أبي عبد الله الحاج محمد الشريف الزهار على صداق قدره الف دينار وأحد جزائرية خمسينية العدد وثلاثة قفاطين مذهب وموبر وكمخة وثلاثة افراد وثلاثة قناطير صوف مع أمتين ثنتين وإذا توفيت إحداهما أخلفها لها بأخرى وثلاثة أواقي جوهر انقدها من ذلك قبل البناء شطر الدنانير الموصوفة مع جميع الأفراد والصوف، وشطر الجوهر مع الأمة والقفطان المذهب نوالحال عليه القفطان الموبر والكمخة مع شطر الجوهر الباقي وأمة واحدة، والشطر الباقي عليه بعد مضي ستة أعوام آتية من تاريخه (أي تاريخ هذا العقد) وزوجها أبوها لأنها في حجره،وقبل الزوج لنفسه والتزم بكل ما ذكر وأنه لا يتزوج عليها الابرضاها ولا يخرجها من بلد الجزائر فإن أكرهها جعل أمرها بيدها - بتاريخ أواخر ذي الحجة عام 1139.

- قوله الحال بتشديد اللام أي الحاضر وضده الكالي أي المتأخر دفعه الى أجل مذكور في الرسم - الموبر بصيغة اسم المفعول أي بضم الميم وفتح الواو وفتح الباء مع تشديدها وهو المصنوع من القطيفة ذات الخمل.

والحاصل أن هذين الرسمين يدلان على جانب من الحياة الاجتماعية

وعلى رفاهية أهل مدينة الجزائر فاذا لم تكن كل الطبقات متساوية في الثروة والغنى فان الفقر المدقع كاد لا يوجد بها فكانت هذه المدينة علـى سعة وبسطة من العيش وأهلها لم يستشعروا بالاستعمار التركي ولـم يخطر لهم بالبال، ولا غرابة في ذلك فان الرابطة الدينية بالخلافة الاسلامية العثمانية كانت في الحقيقة مجرد علاقة في المصالح المتبادلة والمعاونة، ولم يكن للاهالي نصيب في الادارة فكان اعتناؤهم بشؤونهم، وكان للأتراك وأبنائهم بعض الامتيازات والفعل "استعمر ومشتقاته كانت مـن الألفاظ التي لا يعرف أحد معانيها المستحدثة ولا يسمع بها في ذلك الأوان ولكن الزمان سيال فأتى فيما بعد بما لم يكن في الحسبان.

وفيما يلي رسم عتق: أشهد المكرمان السيد مصطفى التاجر وشقيقه السيد أحمد ولدا المرحوم السيد محمد (بفتح الميم الأولى) خوجة كاتب مخزن الزرع كان مصطفى شهيديه على أنفسهما أنهما أعتقا جميع الامة مريامة ونعتها بذكرهما زنجية اللون مربوعة القامة وبها تشريط السودان جنوية اللسان رقيقة الأطراف عتقا جائزا ناجزا اطلاقها من حبل العبودة والرق وألحقاها بحرائر المسلمات فيما لهن وعليهن تذهب في بلاد الله حيث شاءت لا سبيل لأحد من خلق الله عليها سوى سبيل الولاء لمن حكمت به الشريعة المحمدية - بتاريخ جمادى الأولى عام اثنين وثلاثين ومائتين وألف 1232 - وأخيرا امضاء قاضي الحنفية بالجزائر.

شرح ألفاظ وعبارات: الأمة هي المرأة المملوكة - مريامة اسم هذه المرأة، ويسمون أيضا بمريم ومريومة - زنجية اللون أي سوداء، وزنجية أو سمراء نعتان فيهما لطافة وتأدب- مربوعة القامة أي متوسطة القد لا طويلة ولا قصيرة

وهي صفة مستحسنة، وفي اللغة الفصحى ربعة بفتح الراء والباء ويجوز سكون الباء - ناجزا أي نافذا في الحال بلا تأخير - جنويـة اللسـان أي تتكلم بلغتها السودانية و يعبرون عنها بالجزائر بالقناوية (بالقاف المعقودة) وهي نسبة الى غينيا أو غانا وهما دولتان بافريقية الغربية أو نسبة الى جنة بلدة بالسودان - العبودة هي العبودية أي صفة وحال المملوك وقد سبق ان حالة الرقيق بالجزائر كانت بصفة مرضية ومن المعلوم أن كتب الفقه أطالت الكلام في هذا الموضوع وبينت ما يجب في حقه - والرق بكسر الراء وتشديد القاف يستعمل بمعنى الرقيق وبمعنى العبودية - حرائر جمع حرة وهي غير المملوكة - الولاء بفتح الواو،هو لحمة كلحمة النسب أي قرابة كقرابة النسب واللحمة بضم اللام وسكون الحاء يعني أن من أعتق شخصا يمكن أن يرثه.

واطلعنا أيضا على رسم بيع جنة (حديقة أو بستان) بفحص بيرطريلية اشترتها الولية عايشة بنت سعد الأندلسي بثمن قدره الف وخمسمائة دينار من البائعين عثمان أودباشي بن عبد الله، والمعلم بلقاسم الحوكي - بتاريخ أواسط شوال عام ثمانية وخمسين والف 1058 هـ -

ننبه أنه ورد في هذا الرسم الاسم الأصلي لبير الطريرية (تصغير طرية مؤنث طري) فهو في الحقيقة بير طريلية ولعله اسم موضع بالاندلس او اسم امرأة فتغير عن أصله واستعملوا عوضه اسما يقرب منه في الصوت بل قال لنا صديق ان طريلية هي قرية صغيرة بتركيا والله اعلم - وقد اعتدنا مـن الاندلسيين انهم كانوا مصرين على خصائصهم ومميزاتهم والحنين الـى وطنهم وذلك من شيم ذوي الهمة والمروءة والاعتزاز بالنفس خصال شريفة

لم ينسهم فيها احد، وقد جاوروا في بلدهم الاسبان واقتبسوا منهم ومـن غيرهم كالمشارقة ما يلائمهم ويصلح بهم فاستساغوه واحسنوا الاختيار وهـذا من لطافتهم وحذقهم وجودة فهمهم.

قال المقري: خرج الأندلسيون عام سبعة عشر والف(1017هـ) ألوف بفاس وألوف بتلسمان ووهران وخرج جمهورهم بتونس وخرج طوائف بتطاوين ولا والجزائر وعمروا القرى واغتبط بهم الناس وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم ووصل جماعة منهم الى القسطنطينية وبلدان أخرى مـن الشرق العربي اهـ، وقال ابن أبي دينار في كتابه المؤنس: ان المهاجرين (من النازحين الأندلسيين)الى تونس سنة 1017 وسنة 1018هـ كانوا خلقا كثيرا فأوسع لهم عثمان داي في البلاد وأذن لهم أن يعمروا حيث شاؤوا فاشتروا الهناشير وبنوا فيها واتسعوا في البلاد فعمرت بهم واستوطنوا فـي عدة أماكن وبنوا أكثر من عشرين بلدا وغرسوا الاشجار ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين وصاروا يعدون من أهل البلاد اهـ باختصار.

وابن أبي دينار ألف كتابه المذكور آنفا سنة1097 هـ وهو في تاريخ افريقية وتونس – قوله الكراريط جمع كريطة بفتح الكاف وكسر الراء مـع تشديدها وهي كلمة اسبانية بمعنى "كروسة" في لغتنا الدارجة – وعن الاستاذ حسن عبد الوهاب انه في مدة قرنين ونصف دخل الى تونس لا اقل مـن مائة ألف أندلسي وأن الطبقة الراقية المثقفة تقلدوا وظائف القضاء والادارة والتعليم لأنهم كانوا من أفاضل الناس واخيارهم معارف واخلاقا فكانوا ممن تجمل القدوة بهم ولذا لقوا الحفاوة من ملوك بني حفص

والشعب التونسي اهـ بتصرف وزيادة.

وهجر في سنة 1609 وسنة 1610م - 1018و1019هـ على أقل تقدير من خمسمائة الى ستمائة ألف من أحسن العاملين في الزراعة والصنائع فعجلت اسبانيا في ذلك العصر بسبب هذا الجلاء خراب اقتصادها، ويقول المؤرخون أنه هاجر نحو مليون ونصف نسمة من البلاد التي لمعت فيها حضارة مزدهرة في جميع مجالات الحياة من أدب وفنون وصناعات وزراعة، وفنهم المعماري يشهد له ما بقي من المباني والآثار وحتى تلك الموسيقى الرائعة فبلغت الى هذه الايام بالتواتر والسماع فهي موسيقى أصلية وليست بموسيقى أجنبية في نغماتها وتلحينها وألفاظها عربية.

ويقول أحمد المقري في كتابه نفح الطيب أثناء ترجمته لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز أنه الذي لحن الأغاني الافريقية، قال ابن سعيد واليه تنسب الى الآن اهـ - (وهو القرن السابع الهجري) .

- أبو الحسين بن سعيد مولده بغرناطة سنة 610هـ- تجول في الأقطار وأخذ أولا من أعلام اشبيلية كأبي علي الشلوبين وابن عصفور، وارتحل الى الشرق ودخل القاهرة وحلب ودمشق والموصل وبغداد والبصرة وأرجان (بفتح الهمزة وفتح الراء مع تشديدها بلدة بايران) وحج وعاد الـى المغرب ونزل بساحل مدينة اقليبية بافريقيا (الايالة التونسية) سنة 656 واتصل بخدمة الأمير أبي عبد الله المستنصر الحفصي فنال عنده حظوة وتوفي تحت برٍ ورعاية بتونس في حدود خمسة وثمانين وستمائة (685 هـ)، وله تآليف كثيرة منها المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلى المشرق، (المغرب بضم الميم وكسر الراء، والمغرب بفتح الميم - المشرق بضم الميم

وكسر الراء ثم المشرق بفتح الميم وكسر الراء) - وهذان التأليفان في التاريخ والتراجم والنوادر.

- وأبو الصلت أمية بن عبد العزيز من اشبيلية على قول المقري، ومن دانية على قول ابن أبي أصيبعة، وهي مرسى على البحر المتوسط من عمالة القنت (بفتح القاف وسكون النون)، ونتذكر أننا سمعنا من الأستاذ جاية منذ سنوات عديدة أنه رأى بمستشفى مصطفى بالجزائر عجوز اسبانية الأصل فسألها من أي بلد هي فأجابت أنها من دانية فقال لها: تلك بلدة أنبتت علماء أجلاء في عصرها الاسلامي فتغرغرت عيناها بالدموع وبكت، يقول الكاتب الكبير المؤرخ المرحوم شكيب أرسلان ان الاسبان ينطقون بدانية بامالة الألف يعني أنهم يقولون دينية (دينيا) بكسر الدال المهملة وسكون النون - وعن كتاب هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين لاسماعيل باشا البغدادي 2ج استانبول1951 - 1955 باختصار أن أبا الصلت أمية بن عبد العزيز الاشبيلي الداني الأديب المالكي ولد سنة 460 وتوفي سنة529 هـ، اهـ - وقد عاش هذا العالم عشرين سنة بوطنه ثم ارتحل الى مصر وعاش عشرين سنة بها وخرج منها وانتقل الى افريقية وعاش عند ملوكها الصنهاجيين عشرين سنة فيكون قد عمر ستين سنة، وكل هذه التواريخ على سبيل التقريب،وكانت وفاته بالمهدية، وتآليفه تشهد بفضله ومعرفته في الفلسفة والهندسة والموسيقى وكان يحسن التوقيع على العود، ومن جملة تصانيفه الأدوية المفردة على ترتيب الأعضاء والاختصار في الهندسة وتقويم الذهن في المنطق وحديقة الأدب في شعراء العرب من الأندلس وديوان (أي مجموع) الرسائل وديوان شعره والرسالة

المصرية وهي طريفة جدا وطبعت بالقاهرة طبعا جيدا والديباجة في مفاخر صنهاجة والملح العصرية من شعراء الأندلس والطارئين اليها والوجيز في الهندسة ورسالة الموسيقى ونحيل الى طبعة الفصل الثالث عشر (حكماء افريقية والأندلس) المقتبس من كتاب عيون الأنباء في طبقات الاطباء بالمشاركة مع الأستاذ جاية "منشورات كلية الطب والصيدلة بالجزائر1377هـ - 1958م ففيه ترجمة لهذا العالم جديرة بالمطالعة - وتوفي ابن أبي أصيبعة بدمشق سنة 668هـ.

ويوجد مأخذ آخر مفيد وكاد لا يعرف وهو كتاب غزوات عروج وخير الدين فانه تعرض لهجرة الأندلسيين الى الوطن الجزائري بعشرات وعشرات الألوف ويخبرنا بأن خير الدين جهز اليهم ستة وثلاثين جفنا، فنزل أهل الأجفان بالساحل وحملوهم مع نسائهم وأبنائهم وما قدروا أن يأتوا به من أموالهم وأثاثهم ورجعوا بهم الى الجزائر، والذين بقوا هناك خلفوا لهم من يحرسهم من العسكر ثم عادت المراكب الى ساحل شرق الأندلس لحمل بقية الأندلسيين فتكرر ذلك سبع مرات فكان جملة ما حملوه من أهل الأندلس على ما قيل سبعين ألفا، وبقيت عادة اجفان الجزائر أنهم في كل سفرة يسافرونها برسم الغنيمة يأتون الى سواحل الأندلس برسم نقل جماعة المسلمين منها اهـ بتلخيص، ففضل خير الدين لا ينكر وكان من أمهر رجال الادارة والسياسة والتبصر بالملاحة البحرية في تلك العصور.

كان دخول الاسبان غرناطة في الثاني من ربيع الأول سنة 897هـ والثاني يناير سنة 1492م، والظاهر أن طائفة كبيرة من أهل غرناطة نزلت بمدينة الجزائر وأتت بغنائها ولعل هذا هو السبب في تخليد الغناء

الغرناطي بهذه المدينة ولم يطرأ عليه كبير تغيير لأن لهجة الجزائر تقرب جدا من لهجة هؤلاء اللاجئين، وجاء في تاريخ الجزائر العام ج2 ص178 أن ابتداء هجرة الأندلسيين كان بالجزائر سنة 856هـ 1452م بدون ذكر المأخذ، كما أنه ورد في نفس هذا الجزء ص 306 ذكر الستة والثلاثين مركبا التي أرسلها خير الدين الى سواحل دانية سنة 935 هـ1529م وتتابعت الغارات البحرية على شرق الأندلس حتى جلبوا نحو سبعين ألف نسمة الى الجزائر، وأحال المؤلف الى " نهاية الأندلس" للمحامي عبد الله عنان، ونزيد هنا أن أقدم مصدر أو من أدم المصادر هو كتاب الغزاوت "ص 82" الذي طالما اقتبسنا منه وهو قريب عهد من تلك الوقائع والأستاذ عبد الله عنان كاتب معروف ولكن صاحب الغزوات تقدم عليه بقرون فله الأسبقية في الذكر.

واستمرت هجرتهم الى سنة 1610و1019هـ في أيام ملك اسبانيا فيليب الثالث الذي حكم من سنة 1598 الى سنة 1621م – وقد جاء الحديث عن مأساة الأندلسيين المسلمين منهم وغير المسلمين في التاريخ العام للافيس ورامبوا – طبع باريز – وهو لا يختلف في الحملة على ما ذكره مؤرخو العرب.

– وقد كان من العادة المستمرة لولاة الجزائر أن يرسلوا الى الدولة العثمانية كل ما يقع بهذا القطر مكتوبا باللغة التركية فلا غرابة ان بقيت العرض حالات وقصة الغارات والغزوات بتركيا كما سلف القول عن غزوات عروج وخير الدين انها كتبت أولا بالتركية وترجمت بعد الى العربية.

ونقول على سبيل الاستطراد انه يوجد فرق بين الغزوات والمغازي فهذه هي خاصة غزوات الرسول عليه الصلاة والسلام ثم توسعوا في دلالتها

فاستعملوها بمعنى السيرة أي تاريخ حياته في جميع مناحيها.

وربما استعملوا المغازي بمعنى الغارات والفتوحات فمن تصانيف أحمد بن الجزار مغازي افريقية.

مرت الأعوام وانقضت القرون وانصهر الأندلسيون في قطر الجزائر ولكن اسمهم لم تنسه الدهور، وها نحن مدينون لهم دينا عظيما بما قدموه لهذا البلد فجانب كبير من ثروتنا الأدبية والصناعية والزراعية والفنية من عندهم، فهلا يجب على أخلافهم الاعتراف بفضلهم، وبلدنا نفسه كانت فحوصه آهلة بهم وها هي أسماء بقيت من عصرهم نذكر بعضها: الثغريين (سكان الثغور - الطاقران بالقاف المعقودة) والسحانين وبيرطريلية (وهي في الحقيقة عين ماء عذب ينصب في حوض يغرف الناس منه) وعيون السخاخنة يعنى العين السخونة وليس هناك عين ماء حار بل معدني فقط، وقال لنا صديق يوثق به: الصواب في التسمية السحاحنة وهو جمع سحنون اسم رجل أندلسي لعله كانت له شهرة في زمانه لسبب من الاسباب فأقاموا بهذه المواضع وبنوا الأبراج وعمروها بالبساتين والحدائق والأزهار، فهل في ذكراهم وذكرى غنائهم نكران للصداقة ونسيان للجميل؟، ومن الواجب على أبناء الجزائر الفنانين أن يبعثوا من جديد غناء أسلافهم وهو ذلك الغناء الرائع ولا يهملوه ويلحنوا ما أنتجه وطنهم من غناء المدن والجبال والصحراء القديم منه والحديث مما لم يلحن الى الآن فهو من صميم شعبهم وحياته الروحية فضياعه ضياع لجانب من تراث بلادهم.

- وفي شأن الآلة الجزائرية فقد عاش في النصف الثاني من القرن

الثالث عشر الهجري والربع الأول من القرن الرابع عشر فنان خلف ذكرى حسنة وهو المرحوم سفينجة محمد بن براهم، وقال لنا صديقنا جمال سفينجة -وهو من أسرته- ان جدهم أتى من الشرق وبلدته أضالية أو أدالية أوأنطالية وهي ميناء في تركيا على ساحل البحر المتوسط وانخرط في جند الجزائر ويقول ان "كنيتهم" سفاينجتي أي معلم السفاين وهو صانعها، ووقع فيها التصحيف وكان الحاج اسماعيل بن سفينجة قاضي الحنفية بالجزائر في سنوات 1226 هـ - 1811م فالظاهر أنه من هذه الأسرة - وكان المرحوم سفينجة حسن الصوت ينتقل بسهولة من الرقيق الرخيم الى العالي الرفيع ومن نغمة الى أخرى،ولا توجد أسطوانات من زمان شبيبته،وتوفي سنة 1908 وفي عمره نحو ست وخمسين سنة،وسمعنا أنه تعلم على عدة مشايخ منهم المرحوم المنمش (بفتح الميم الثانية مع تشديدها) وكانت له شهرة في فنه ولا نعرف عنه شيئا آخر غير أنه من تلمسان، وقد مر القول بأن هذه العاصمة كان أهلها يحسنون التوقيع على العود - وكانوا يستعملونه بالخصوص - للتسلي وترويح النفس.

- واتقن بعض الفنانين الجزائريين الأغاني الكبيرة التي هي باللهجة المحلية فأعطوها تلحين الغناء الكلاسيكي وبنوا عليه ونسجوا على منواله في أصواته ونغماته ونجحوا في صنعهم تمام النجاح فإذا سمعت هذه الأغاني فكأنك تسمع - في الجملة - الغناء الأندلسي الا أن الكلمات غير عربية ولكنها من لهجة شعبية جزائرية الأمر الذي هو من الوضعيات الواقعية لهذا البلد ولا نزاع في ذلك.

وكان من عادة الأندلسيين زمانا مديدا قبل جلائهم الأخير الذي سلف ذكره ينزلون بالسواحل الجزائرية للمعاملات التجارية أو لالتجاء بمراسها أو للاقامة والسكنى، ولما بدأت أحوال بلادهم تختل لتنافس دويلات الطوائف ولضغط الاسبان عليهم لاسترجاع وطنهم تكاثر انسلالهم من بلدانهم - وأهل العلم كانوا يقصدون بالخصوص مدنا مثل بجاية لأنها كانت مركزا علميا شهيرا والجزائر كانت حينذاك بلدة أقل أهمية من حاضرة بجاية، ونحيل في شأنها لكاتب جزائري القاضي أحمد الغبريني صاحب عنوان الدراية "المطبعة الثعالبية بالجزائر" فأورد في كتابه أسماء عدد من العلماء الذين الذين نزلوا ببجاية وأقاموا بها الى وفاتهم، ومنهم من أقرأوا بها ثم بارحوها نذكر منهم عالمين مشهورين وهما ابن الأبار (بفتح الهمزة وتشديد الباء) وهو أبو عبد الله محمد القضاعي (بضم القاف) الفقيه المحدث اللغوي الأديب التاريخي من أهل بلنسية وأصله من تورية (بضم التاء وكسر الراء كما قال الناشر الفاضل رحمه الله) وهي وما ولاها دار القضاعيين بالأندلس، وقد كان من عادتهم ان الجماعات التي نزحت من الشرق يسكنون في ناحية يتوافرون فيها، وتخير سكنى بجاية ثم استدعاه السلطان الحفصي المستنصر الى حضرته، وتواليفه كثيرة، ولد سنة 575 وتوفي بتونس سنة 658هـ (183 وما بعدها من عنوان الدراية) - وأبو الحسن علي ابن عصفور النحوي اللغوي من أهل اشبيلية، استوطن بجاية وأقرأ بها وارتحل الى حاضرة افريقية (أي تونس) وحظي عند سلطانها المستنصر بالله، وتواليفه في العربية من أحسن التصانيف، توفي بتونس في عشر السبعين وستمائة، (عنوان الدراية ص188 وما بعدها) - ويقول القاضي

أحمد الغبريني في ترجمة أبي بكر محمد بن أحمد المعروف بابن محرز انه كان رأس الجماعة الأندلسية ببجاية كل كان يأتي الى منزله وعنده مجتمعهم - كان هـو شيخ الجماعة وكبيرهم اهـ، وكان من أهل بلنسية، قرأ ببلده وبسبتة ومراكش واستوطن بجاية بعد الأربعين وستمائة وكان معظما عند أهلها وعند الملك مكرما، توفي ببجاية سنة 655 ومولده سنة 569 (عنوان الدراية ص170 وما بعدها) .

- أطلنا الحديث عن الأندلسيين والحق أنهم أسدوا لهذا البلد ولغيره الخدمات الجليلة في شتى الميادين ومنها الزراعة التي برعوا فيها وكتبهم فيها كثيرة غزيرة الفائدة ولعل أفضلها وأهمها كتاب الفلاحة لابن العوام (بتشديد الواو) من أهل اشبيلية الذي عاش في النصف الأول من القرن السادس الهجري واعتمد فيه على التصانيف القديمة اليونانية وغيرها واضاف الى ما وجده فيها جديا لا خرافيا دراساته وتجاربه الشخصية فكتابه كما قال عنه أهل الخبرة في هذا الفن له قيمة علمية حقيقية وكان مـن أسماء الاندلسيين في مدينة الجزائر اسماء تنبئ عنهم مثل البيلو (بكسر الباء وضم اللام) وكرومبا "بضم الراء وسكون الميم "ونيقرو" بكسر النون وسكون القاف المعقودة وضم الراء" وهي أسماء عجمية وهي تدل علـى كل حال قليلة ن ومنها مثل بلنسي وقرطبي وطاني وقرموني ونيبيسة يبيسة واشبيلي وهي أسماء معربة، وكل ما ذكرناه على سبيل التمثيل لا غير.

وآخر القول فحب بلاد الأندلس لا زال في قلوب العرب والمسلمين حبا خالصا وحنينا صادقا حتى اليوم وبعد اليوم، وهم خير سلف لخلف

يسعد بالاقتداء بهم في نشاطهم ومثابرتهم في أعمالهم بالصدق، والنصيحة وحسن النية.

- وختاما فقد ألف بعض الكتاب الافرنج عن الأندلسيين وهم يدعونهم "المور" يعني المغاربة "أهالي المغرب العربي" وأثنوا عليهم فكانوا - كما قيل عنهم - أصحاب حكمة فسعوا في ترقية الجسم والعقل والاخلاق على حد سواء، وان أولعوا بالموسيقى ودرسوها فان ولعهم بالعلوم والآداب كان لايقل عنها ولا ينقص بل شغفهم بالموسيقى كان مزدوجا مع شوق أعظم الى استقراء العلوم العقليةالى أبعد حد، ومما يدل على رجحان عقولهم أنهم اعتنوا بتصانيف أرسطو أكثر من تصانيف أفلاطون فهذا رجل كان مغرما بالفصاحة الخلابة وذاك عالم واقعي وليس بخيالي فان الأندلسيين قوم أعطوا للحياة الروحية حقها وللحياة الواقعية حقها، فماذا نقول عنهم وقد كادوا يدركون المثل الأعلى للجنس البشري: الملاطفة الصادقة مع جميع المعاشرين بالفعل لا بالأقوال وحدها والنشاط والسعي في العمل الصلح المثمر في جميع المناحي والمجالات، فلماذا لا نكون مثلهم ونحن من أعقابهم؟.

ترجمة الشيخ سيدي أحمد الكبير

من جملة ما ورد من الأندلسيين النازحين الى الجزائر وأقاموا بالبليدة الشيخ أحمد الكبير، فنزل بواد الرمان الذي سماه الناس فيما بعد بواد سيدي الكبير وبالاختصار واد الكبير وهو ينصب بواد شفة "بفتح الشين وتشديد الفاء" وكانت تلك الناحية آهلة بأولاد سلطان وهم فرقة من بـني خليل الذين لا زالت منهم بقية الى هذه الايام بسهول متيجة، واما أولاد سلطان فانهم اندمجوا في السكان الآخرين ولم تزل حارة من البليدة تسمى بهذا الاسم: حومة أولاد سلطان وتسمى أيضا بالدويرات "جمع دويرة سيدي أحمد الكبير بامرأة من أولاد سلطان يقال ان اسمها حنة (بفتح الحاء وتشديد النون) فاعتنى بالزراعة وغرس البساتين وسقي الاراضي وأجرى المياه في القنوات، فكثرت منازل السكنى حوله فكان ذلك سببا في تأسيس البليدة، وكان ورود الشيخ مصادفا لاستقرار الأتراك بمدينة الجزائر فلأخلاقه الطيبة وحسن معاملته واكرام ضيوفه والترحيب بهم ذاع صيته وقصده الناس واستأذنوه في مجاورتهم له وبالخصوص الأندلسيون فكانوا النواة الأولى لانشاء البليدة في الناحية العليا، ولما استدعى السلطان العثماني خير الذين لمنصب قبودان باشا يعني أميرا عاما على أسطوله فانه زار الشيخ أحمد الكبير في موكب حافل فطلب منه أن يعين مجاوريه فأجابه بالقبول وبنى له مسجدا وهو المسمى جامع الترك وحمام وهو المسمى حمام سيدي الكبير وفرنا لم يبق منه أثر، عاش الشيخ أحمد الكبير بزاويته بسفح جبل بني صالح (الأطلس البليدي) موقرا

محترما الى أن توفي سنة 947 هـ - 1540م وفي عمره نحو ست وستين عاما وخلف ثلاثة ذكور وهم عبد العزيز وبلعباس ومبارك. ولا زالت بقية من سلالة الشيخ الى اليوم، وبعد فهذه كلمة عن الشيخ سيدي احمد الكبير فهو ذلك الرجل الصالح النزيه النصوح الساعي لخير الاشخاص والمجتمع - قولا وعملا - بلا توان ولا كسل فهو الجدير بالقول السائر: خادم القوم سيدهم، ولا شك أن بامثاله تسعد العباد والبلاد.

- واستفدنا من الاخبار المأثورة التي سمعناها من بعض الاصدقاء ولكن ليس كل مسموع بمقبول بل ينبغي التمييز والتمحيص مع صدق القائل ولم يخطر ببالنا غير ذلك، فمن ذلك أنه حكى لنا المرحوم سي علي زيزي - وكان رجلا ثقة نبيها - راويا عن أبيه الذي عاش مدة في العهد التركي أنهم كانوا يرسلون الى الآستانة وازمير في بعض الاحيان مركبا ليجلبوا من هناك من يرغب في الانخراط في الجند النظامي الجزائري وقد سبق أن قلنا ان من ينزلون من السفينة ليطوفوا بالبلد يعدون بألفظ معسولة من يرضى بالذهاب معهم بمستقبل زاهر، فكان ذات مرة بحري جزائري اسمه "حرقوص" يجول مع رفاقه في الشوارع ومجامع الناس فكان من جملة ما قال: اذهبوا معنا لتعيشوا هناك مع اخوانك في أطيب عيش، فأجابه أحد المستمعين: أولئك اخوانكم أنت اهـ، ولعله يشير الى أن يولضاش الجزائر ليسوا ممن ينبغي أن يعاشروا لسمعتهم غير الحسنة - وقد أنكر المؤرخون على الانكشارية سيرتهم أشد الإنكار، والحق أنهم يلامون عليها ولكن كان من بينهم منهم على مستوى رفيع من الأخلاق فاذا كان يأتي من الدولة العثمانية الجفاة الاجلاف فإنه كان يرد الى الجزائر أهل العلم

والصنائع، وأقل ما يدل على ذلك أسماء الأطعمة واللباس والأثاث وآلات الحرف وأصحابها، والحاصل أن الوافدين لم يكونوا على حد سواء، والألقاب مثل كاتب وخوجة تؤيد ما نقول اذ معناهما واحد ويطلقان على من يحسن جيدا القراءة والكتابة وبعبارة أخرى على من كانت له ثقافة.

- واخبرنا أيضا أن في زمان موسم زيادة زاوية الشيخ محمد بن عبد الرحمن بناحية ذراع الميزان كان الاعلان بالجزائر أن الركب سيسافر من هذه المدينة في اليوم الفلاني والساعة الفلانية والاجتماع للرحيل يكون في المكان الفلاني ليستعد ويتهيأ من يريد الذهاب برفقة الجماعة المسافرة على البغال والخيول بزادهم وسلاحهم لصد من يقصدهم بشر وقلما يقع ذلك، والركب كان يسير تحت نظر شيخ الركب أي رئيسه وهو المشرف على تنظيمه وحراسته، والاعلان كان بواسطة مناد (براح) يجول بأزقة المدينة.

فهذه صورة صغيرة عن حياة ذلك العصر ليس فيها أدنى غرابة ولكنها تدل على حسن التعايش بين أفراد الناس والجماعات.

النـقـود الجزائريـة

كان بمدينة الجزائر دار السكة لضرب (أي صنع النقود)، وكانت من الذهب والفضة والنحاس، وكان لها ناظر يسمى أمين السكة، وكان من ينقش الكتابة وغيرها على العملة يسمى صاحب الطابع وراقم الطابع، وكان العمال يصهرون أي يذيبون المعادن ويخلطونها بمقدار معين من طرف حكومة الجزائر، وكانت العملة باسمها، وتختلف حسب الأزمنة في الوزن وكمية الذهب أوالفضة التي كانوا يصنعون منها النقود، وتحديد قيمتها يصعب علينا اليوم لأن الأسعار ارتفعت بكثير، والقيمة التي يذكرها المؤلفون ما هي الا على سبيل التقريب - وكا بعض الملوك يغيرون أثمان العملة من حين الى آخر ولذا نرى المؤرخين يحكمون عليهم بالنسبة الـى حالة خزينتهم فأفضلهم من كان يقتصد ولايسرف، والتغيير في العملة كان لـه تأثير محسوس في مستوى حياة الشعوب مع أنه يزيل الاطمئنان وراحة البال وينقص من الثقة في الرؤساء والحكام.

أسماء العملة عديدة: من الذهب: الدينار - السلطاني - نصف السلطاني - ربع السلطاني، والمحبوب من الفضة: الدورو - الريال - نصف الريال - ريال درهم - بوجو أو بوجه (بضم الباء والجيم فيهما والكلمتان من التركية) - الموزونـة، ومن النحاس: الصايمة أو السايمة (كلمة تركية) .

والسكة تطلق أيضا على الحديدة المنقوشة التي تضرب عليها الدراهم أي العملة ونسميها في لهجتنا بالصرف.

تحديد البلاد يعني قطر الجزائر:

الناحية الغربية كلها بيد باي وهران (بفتح الواو) أي تحت حكمه وتصرفه، وله خليفة (أي نائب ومساعد) وقياد وأغوات، وحكمه ينتهي الى بوحلوان والى عمالة تيطري، وباي تيطري تحده متيجة (شمالا بفتح الشين أي جهة البحر) ومن الجهة الشرقية يحده وطن بني سليمان وبني جعد وعريب، وقايد سباو عمالته زواوة، وسباو يحده وطن يسر، ومن الناحية الرشقية وطن حمزة (البويرة) وهو من عمالة قسنطينة، وباي قسنطينة تحده الأيالة التونسية والحد بينهما يقال له سراط، (من مذكرات المرحوم الحاج أحمد الشريف الزهار، نشر الأستاذ أحمد توفيق المدني).

كل بايلك كان ينقسم الى أقسام كثيرة يسمى كل واحد منها بالوطن وهو يشتمل على عدة أعراش والعرش له قايد، والقايد له تحت نظره الشيوخ وهؤلاء لهم شيوخ المداشر جمع مدشر وهو الدشرة - والوطن جمعه أوطان.

بوحلوان (بضم الباء وبفتح الحاء وسكون اللام) عرش يبعد بخمسة عشر كيلو ميترا شرقي بلدة مليانة وتجتازه السكة الحديدة من الجزائر الى وهران - بني سليمان في دائرة تابلاط، وبني جعد في دائرة سور الغزلان، وعريب بناحية عين بسام (بتشديد السين) - سراط هو واد السيرات بالجنوب التونسي.

نظــرة في اقتصــاد الجزائـر

من العسير جدا تقدير عدد سكان قطر الجزائر في العهد التركي ولكن المؤرخين يقولون أن عددهم كان نحو الثلاثة ملايين نسمة، وأما أهل الجنوب فعددهم مجهول في الجملة فلا يمكن حصرهم - ومدينة الجزائر كانت آهلة اذ ذاك بنحو ثلاثين ألفا ويقولون انها بلغت أضعاف ذلك في بعض أوقاتها ما عدا ضواحيها وفحوصها القريبة منها وكانت في معظمها بايدي الأندلسيين وأما الأتراك وأبناؤهم فكانوا بأقلية فكانت لهم أشغال أخرى - ومن المعلوم أن اقتصاد البلاد كان مرتكزا على الزراعة والعناية بالبساتين والأشجار وتربية المواشي، وسكان الأرياف والجبال يقدرون بما يزيد على التسعين في المائة والباقي يعني أقل من العشر هم سكان المدن والقرى، والبلدان الآهلة اليوم هي نفس التي كانت في الزمان السالف على وجه التقريب وإنما الفرق بينها في ازدياد السكان وتكاثرهم.

وأهم موارد البلاد كانت مما ينتجونه من حقولهم ومزارعهم، والقمح الصلب الجزائري كان مطلوبا في الخارج بحيث أن الحكومة كانت لا تسمح بخروجه إلا برخصة، وكانت لهم المطامير الكثيرة في أماكن مختارة يذخر فيها لوقت الحاجة اليه- وكان سكان الجبال يتعاطون لغرس الأشجار كالتين والزيتون وتربية الأغنام والبقر في أنحاء البلاد، والإبل عند أهل البوادي الرحل بالخصوص، ومن فضل دولة الجزائر ومزاياها أنها لم تفتك أملاك الأهالي كالأرض العروشية وأغلبها متسع فأبقتهم على الحالة التي كانوا عليها منذ زمان بعيد متبعين فيها عوائهم وتقاليدهم ولم تجعل فيما

بينهم أجانب عنهم ينازعونهم ويضيقون عليهم فتركتهم وشأنهم يعتمدون على أنفسهم ويعيشونكما يحبون ويتعاونون كما يشاؤون، ومما يعاب على هذه الدولة أنها لم تساعدهم بالاعانات والاصلاحات في أوطانهم وإنما دراهم الجبايات كانت تصرف في شؤون الحكومة المركزية بالعاصمة وتجربتهم باسكان العبيد بشاملال بجرجرة في أواسط القرن السابع عشر الميلادي لم تنجح فيما أرادوا كما كانوا يظنون فانعظوا بها ولم يعودوا الى مثل ذلك.

وسماد الأرض كان من سرجين (غبار) الحيوانات ومن رماد الأشواك وغيرها التي تحرق بعد الحصاد والدراس ورفع الحبوب، ويتركون المزارع والحقول تستريح سنة أو سنتين للتقوي، وترعى فيها الحيوانات وهذا أيضا سماد لها - وكان محصول النتاج الزراعي نحو خمسة وعشرين مليون قنطار من الحبوب ولكن من جهة أخرى مساحة الكروم (الدالية) وبساتين البرتقال وغيره كانت أقل، وعند رؤوس الأغنام نحو ثمانية ملايين والبقر نحو مليون، وفي الجملة فقد كان المحصول حسنا مقنعا.

وكانت تقام في أنحاء القطر أسواق أسبوعية في أيام معينة في المداشر والقرى والمدن بحيث أنها لا زالت قرى ومدن تسمى باسم يوم سوقها مثل خميس مليانة وثنية الأحد (بتشديد الدال) وثنية بني عيشة والأربعاء وأربعاء بني براتن وغيرها كثير، وتعرض فيها المنتوجات المختلفة من فواكه وخضر وحبوب وحيوان وأصواف وجلود وعسل وزيت وزيتون و غير ذلك على حسب الفصول وكانت بعض الأسواق تباع فيها بالخصوص المواشي، وحيوانات الحمل كالبغال والحمير نذكر منها سوق بوفاريك

بمتيجة كان معروفا ومقصودا قبل الاحتلال في يوم الاثنين كما هو الآن، وأنشئت هناك قربة سنة 1836 وهي اليوم مدينة لها أهمية، المصنوعات من أدوات الفلاحة وأواني الفخار وغير ذلك كان البيع والشراء فيها بالعملة والتبادل، ومن البديهي أنها كانت بمدينة الجزائر غالبا بالعملة.

وحياة المرأة بمدينة الجزائر كانت في بيتها تقوم بشؤون أسرتها وتربية أولادها ولكنها لا تخرج الى الشارع ولا تشارك الرجال في الحياة العامة فكان لها مجال خاص بها، وأغلب النساء كانت لهن بدورهن أعمال يدوية من خياطة وطرز، واما النسيج فكان لنساء الأرياف والجبال.

وقد لاحظ بعض الكتاب الفرنسيين في أوائل الاحتلال عناية الأهالي بالتشجير وحفر الحياض حول الجذوع واجراء المياه اليها، وسلف القول عن عناية الأندلسيين ببساتين ضواحي الجزائر وصيانة ما فيها من الأشجار والنباتات.

رجـــوع الـى تقـايـيـد ابـن الـمفـتـــي

سلفت ترجمة ابن المفتي حسين بن رجب في الصفحات الأولى من هذا المجموع وقلنا أنه تعرض لذكر المفاتي للمذهبين الحنفي والمالكي وأوردنا ما تيسر وأمكن ايراده عن علماء مدينة الجزائر من المفاتي وغيرهم من أهل التدريس والوظائف الدينية، ولما كان في هذه التقاييد الفوائد الجملة فإننا نأتي بأهم ما فيها ببعض الحذف والاختصار لأن النسخة المنقول عنها سقيمة كثيرة الأغلاط مع بعض البياض - أخبر الكاتب المذكور أن علماء الجزائر كانوا مالكية - ولما ورد الأتراك وظهر المذهب الحنفي معهم وقدم المثقفون وأهل الصنائع من الدولة العثمانية فمن هؤلاء وأولادهم من أمهات جزائريات توصل بعضهم الى وظائف الامامة والخطابة والفتوى. قال ومن الذين ادركنا خبرهم ورأينا خطوطهم من القلغاز: أولا العالم سيدي محمد بن قرمان المتوفي سنة 1036 وقد عاصر في خطة الفتوى ابن عمار بن داوود سنة 1017، وتولى بعده أخوه محمود بن حسين قرمان خطة الفتوى مرارا وكان يتداولها مع سيدي محمد بن رمضان بن يوسف العلج تارة هذا وتارة هذا، توفي ابن قرمان الاخير "يعني الثاني" سنة 1066 وعاش بعده سيدي محمد بن رمضان منفصلا عن الفتوى بأعوام لأنه تعرض له أبوه وهجره لأجل الولاية فبر بوالده وخلع نفسه وسلمها لابن قرمان قبل موته، ثم تولى بعد ابن قرمان الأخير حسين أفندي وكان خطيبا بجامع السيدة، وتولى بعده مسلم أفندي بن علي قدم الى الجزائر قاضي الطريق ورافقه ابنه محمد، (في المدة

الأولى من الحكم التركي كان قاضي الحنفية يرسلونه من استانبول ويتقلد خطة القضاء سنتين ثم يخلفه آخر يأتي من عاصمتهم كانوا يفعلون ذلك - على ما قيل لنا - تيقظا وتحذرا من تولية من لايعرفونه جيدا حتى نشأ بالجزائر من أولاد الأتراك من تعلم وتأدب وظهرت كفاءته)، ولما تم منصبه استوطن بالجزائر وتزوج ودخل في طريقه الخوجلار سنجاق طار هو وابنه فالأب خدم القمرق (الديوان بلهجتنا) والابن خدم سبيل الخيرات وتولى خطيبا بجامع سفير سند الجبل، وأول من خطب بالجامع الجديد بباب البحر بعد تمام بنائه قرباش (بفتح القاف والراء) أفندي "كلمة تركية معناها السيد" وكان هذا قرباش أفندي عالما جاء من بر الترك يجمع عليه الجموع وهو أمر يكرهه الولاة فنفوه "أرجعوه الى بلده"، ونزل الى الجامع الجديد مسلم أفندي من جامع سفير، فلما توفي حسين أفندي وتولى مسلم مكانه في الفتوى بقي خطيبا به "أي بالجامع الجديد"، ومن ثم بقيت هذه "العادة" كل من تولى خطة الفتوى يكون هناك خطيبا، وجامع السيدة تولى فيه حسين البابوجي كان خليفة قرباش بالجامع الجديد، وأيام مرض حسين أفندي ينوب عنه حسين البابوجي في الخطبة، فسمعه الدولاتلي بابا حسن فاستحسنه وكان رحمه الله فيه ما يسمع، هذا هو السبب في ارتقائه من الخلافة الى الخطابة، ومدة حسين أفندي في خطة الفتوى نحو أربعة وعشرين سنة، ثم بعد وفاة مسلم أفندي تولى ابنه محمد خوجة مفتيا وخطيبا، وكان ظريفا أديبا صان الخطبة وبدأ في تفخيمها بمكتبه في داره لا مثل أبيه كان محله القهوة الى تولية الحاج شعبان خوجة الدولاتلي عزله، وكانت بين مدته ومدة أبيه

مسلم لم تجمع ثماني سنين، وتولى والدي حسين بن رجب شاوش مفتيا وهو في سن الثلاثين ومكث اثنتي عشر سنة وعزله أهشي مصطفى، وولي مكانه الحاج محمد النيار فإنه أهان العلم وأهله عند ملاقاة الأمير وكان من قبل يقف الأمراء للعلماء والفقهاء عند الورود عليهم ويودعونهم عند انصرافهم، قال وشاهدت قارابغلي حسن شاوش الدولاتلي حضرت يوما لفرجة الديوان لما قدم قبجي باشي "وهو رسول السلطان العثماني يبعثه للقيام بمأمورية" فقيل الأمير يد والدي ويد السيد أحمد بن سيدي سعيد مفتي المالكية ويد ابن الحنفي القاضي ويد قاضي المالكية سيدي محمد بن القوجيلي، وقليل الدين النيار ينحني على يد أهشي ويقبلها مرارا فتبعه الرفقاء وبقيت عادة وترك "بالبناء للمجهول" القيام الا لمفتي الحنفية يقف ويمد له يده وان كان جالسا ولحق مفتي المالكية أو القاضيان لا وقفة ولا تزحزح، وبقي النيار خمس سنين وخمسة أشهر عزله حسين خوجة شريف الدولاتلي، وولى مكانه تلميذ الوالد سيدي محمد بن الماستجي صغير السن لم يدرك الثلاثين ومكث مفتيا سنة واربعة أشهر غير أيام وعزله حسين خوجة، وتولى مكانه سيدي حسين بن محمد العنابي وعزله بكتاش خوجة بعد أن مكث مفتيا ثلاث سنين غير أيام، وتولى الحاج محمد النيار ثانيا ولاه دالي ابراهيم الدولاتلي ثم بعد أربعة أشهر وعشرين يوما عزله وولى مكانه حسين خوجة الطوبال تمم سبعة أيام مع دالي ابراهيم وأخذ ثمانية أيام من أيام دولة أزن "بضم الهمزة والزاي" علي شاوش باشا، وبعد عزله تولى سيدي حسين العنابي ثانيا وبعد شهرين عزل، وتولى سيدي محمد بن الماستجي ثانيا وبعد سنتين عزل، وثلث "أي تولى للمرة

الثالثة"سيدي حسين العنابي وبعد عشرين شهرا عزل، وتولى سيدي محمد بن الماستجي ثالثا وطال عشر سنين وعزله محمد باشا أربعة أيام باقية من صفر سنة 1150 – وتولى مكانه الحاج علي تركمان مفتيا الى أيام دولة ابراهيم باشا فعزله بعد مدة اثنتي عشر سنة غير ثلاثة أشهر في الخامس من ذي القعدة سنة 1147، وتولى سيدي حسين العنابي للمرة الرابعة ومات في21 من جمادى الثانية سنة 1150 وكانت مدته في الفتوى في هذه المرة الأخيرة ثلاث سنين وثلاثة أشهر، وتولى سيدي محمد بن علي بن سيدي المهدي بن سيدي رمضان بن يوسف العلج وله نظم يروق على الأسماع ويعقد على فضله الاجماع مكان المرحوم في وظائفه مفتيا وخطيبا ومدرسا بالجامع الجديد أطال الله بقاءه ونفع به المسلمين، وهذه مدة ست سنين ونيف.

هذا ما كان من مفاتي الحنفية الذين تولوا بمدينة الجزائر أهو المفهوم من كلامه أنه وقف في كتابته حوالي سنة 1157هـ – 1745م، وآخر مفاتي الحنفية في العهد التركي هو الحاج أحمد بن الحاج عمر بن مصطفى الذي كان مفتيا عندما وقع الاحتلال الفرنسي،

– قال ابن المفتي وأما من السادات المالكية فان خطة الفتوى بالجزائر فقديمة لأن هذه المدينة دار علم وصلاح – وكان العلماء الذين يوثق بهم يستفتون فيجيبون من غير تخصيص أحد في الفتوى ثم بعد ذلك اقتصروا في الفتوى على اثنين، فمن ذلك ما رأينا وشاهدنا خطين لمفتيين في سؤال واحد ولكن أحد الخطين جواب والآخر موافقة له، فعلم من ذلك لابد كان واحد صاحب خطة (يعني بعبارة أخرى هو المفتي

الرسمي) والآخر زيادة رفعة وتصحيح.

ومن ذلك خط سيدي أحمد بن محمد بن أحمد بن منصور الذي قبره مشهور بزاوية أيوب عن يمين الداخل الى صحن هذه الزاوية ونقول أن زاوية أيوب وكان يطلق عليها اسم زاوية يوب (بضم الياء ونقول أن زاوية أيوب وكان يطلق عليها اسم زاوية يوب (بضم الياء وهو مختصر من أيوب للتخفيف وكانت تسمى أيضا زاوية سيدي علي بن منصور في حومة باب الدزيرة، وكانت بأيدي أعقاب الشيخ أحمد يوب وباعوها فيما بعد وكانت لها أرض فيها بعض السعة كانوا يدفنون فيها، وأيضا خط سيدي سعيد البكوش فالأول مفت وهذا موقوف فيه والأول دار علم سلفا عن خلف أحمد ومحمد وأحمد وأما منصور لا علم لي بحقيقته وكذلك سعيد البكوش مجهول عندنا أيضا وابنه أحمد كان اماما بمسجد كتشاوة المقابل لعين تنبع بالماء هناك.

وشاهدنا خط سيدي محمد بن بلقاسم بن اسماعيل المطماطي كان مفتيا قبل سيدي سعيد بن ابراهيم قدورة.

وها هو ما سمعته من شيخنا سيدي محمد بن ابراهيم بن أحمد بن موسى النيقرو - هكذا عرف - الأندلسي الأصل الجزائري المنشأ والولادة والقبر عن مسموعاته من أبيه ومشايخه أن أبا البركات الباروني كان اماما بمسجد ستنا مريم قرب باب الواد المشهور الآن بمسجد ابن نيقرو - (ونقول أن مسجد ستنأ مريم تسميته الصحيحة هي مسجد ستي مريم وهي امرأة محسنة أعادت بناءه لقدمه من مالها الخاص في أواخر القرن الحادي عشر من الهجرة من تقاييد ابن المفتي مع

زيادة)، وأبو البركات الباروني تولى الافتاء المالكي حوالي سنة 766 حسبما أخبر به الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي في كتابه جامع الهمم في أخبار الأمم تأليف ضخم في سفرين، وتوفي أبو البركات بالجزائر وقبره خارج باب الواد عند باب البيت الذي ينزل له بثلاث درج وفيه قبر سيدي محمد التلمساني في المدارج، فخطة الفتوى قديمة في مدينة الجزائر، وهذا ما بلغني من خبر مفاتي المالكية الأولين.

- وكان الشيخ أحمد زروق بن عمار ممن كان أهل الديوان والبلدية يقصدون توليته لأجل اصلاح ما يهن من الجامع الأعظم كالسور الذي على البحر في ناحية البلاط الضيق سقط (والمراد بالبلدية سكان البلد من نسميهم البلدية بفتح الباء وسكون اللام هذا هو المعنى الذي يظهر وأما البلدية بفتح الباء واللام بمعنى المشيخة فهو معنى مستحدث ليس بقديم.

ولعل معنى البلاط الضيق هو السجين الضيق، وجدد أحمد زروق بن عمار ما انهدم من ماله وكان صاحب ثروة ورفعة وحين يتم البناء يعزلونه ويولون الشيخ سعيد بن ابراهيم بن عبد الرحمن التونسي النجار أي الأصل الجزائري الدار كذا بخط والدي وما سمعته من شيخي سيدي مصطفى العنابي ،والشيخ سعيد قدورة الجزائري الولادة والدار ممن اتفق أهل البلد على حبه وتولى الفتوى بعد رجوعه من فاس بعد قراءته هناك وأخذ امامة مسجد البلاط ثم خطابة جامع سيدي رمضان وتولى الافتاء بعد عزل الشيخ أحمد زروق بن عمار سنة 1028- وعاصر ابن قرمان مفتي الحنفية، وطال في فتوى المالكية أعواما وحاسبوه في أول يوم من

استيلائه على أوقاف الجامع الأعظم كما هي عادة كل من يتولى الافتاء فوجدوا محفوظا من القديم أيام الذين قبله من المال الفاضل عن مصاريف الجامع اثني عشر ألف ريال بوجه، ثم بعد ثمانية أعوام طلبه للمحاسبة أرباب الدولة وأهل البلد والكل منهم (يريد أن ذلك وقع منهم) فامتنع برفق أولا ثم أنه سألهم هل لا بد من المحاسبة؟ فأجابوه بنعم، فأطلعهم على الحساب وعلى ما اشترى من الكتب للجامع منها شرح العيني على صحيح البخاري وعرفهم باصلاحات وبناء أماكن بليت وتلاشت والكل عنده عليه وثائق بخط العدول الثقات فخاب سعيهم وظنونهم الفاسدة، وكان له خلفوات (أي خلفاء أو خلائف جمع خليفة) ينوبون عنه بالتداول ان تأخر عن الخطبة أوصلاة الظهر والعصر فمنهم الفقيه ابن رأس العين تلميذ سيدي علي الأنصاري، وسيدي مزيان وسيدي محمد بن قرواش (بالقاف المعقودة) وآخر لم يبق اسمه في حافظتي، وأرزاقهم من عنده لا من الأوقاف، وكانت له أرض حراثة ولا ينفق على نفسه من دخل أوقاف الجامع الأعظم، وكانت جماعات من أهل البلد يشاركونه في معاملاتهم التجارية وكانت في ذلك الزمان البضائع رائجة والدراهم كثيرة والغنائم البحرية تباع في البادستان، فهذا هو العصر الذهبي للقرصنة الذي أسلفنا الحديث عنه - وله شرح على السلم في المنطق وحاشية على شرح صغرى محمد السنوسي وحاشية على شرح المرادي على ألفية ابن مالك (وتوفي المرادي بضم الميم سنة 749هـ) ولم تكمل تلك الحاشية - ولما تعاظمت حرمة سيدي سعيد وكثرت أشغاله قدم ابنه محمدا الفقيه المحدث المفسر شاهدت شهرته أيام صباي وكلفه أبوه مع صغر سنه للفتوى والخطابة

والتدريس لفضله ونباهته زوكان قبل ذلك كلف محمد بن قرواش ليقوم مقامه، وبعد أربعة أشهر لامه أهل البلد على ذلك وجزعوا من صنعه ثـم حصل الاتفاق بينه وبينهم على تقديم ابنه محمد، وعاش سيدي سعيد مدة بعد ذلك وتوفي سنة 1066هـ ودفن بزاوية سيدي أحمد بن عبد الله عند قـدم شيخــه محمـد بن بلقـاسـم بن اسماعيل المطماطي، وتولى بعده ابنه محمد سيدي سعيد - وفي أيام البونبة رفعوا كتب الجامع الكبير الــى برج مولاي حسن خارج باب الجديد أعلى المدينة نقلوها على الابل ثلاثة أيام وأما عدد الابل لا أدري كان اثنين أو أكثر،كذا اخبرني شيخنا سيدي مصطفى العنابي.

وقد عاصر والدي حسين بن رجب في الفتوى محمد بن سيدي سعيد الذي تولى نحو الأربعين سنة من عام1107هـ، وجاء بعده أخوه أحمـد بن سيدي سعيد بن الحاج ابراهيم من عام1107 الى عام1118، ووقع عـزل الشيخ محمـد بـن سيدي سعيد حوالي عام1090 بضعة أيام فقط والسبب في هذا العزل هـو رسالة من حساده للأمير ولكنه تنبه للنميمة فأعاده للفتـوى وبعد عزل أحمـد بـن سيدي سعيد في أيام دولة أهشي مصطفى طلبوا منه الكتب التي كانت بالجامع الكبير فأحضرها أمام شهود فكانت إذ ذاك اثنتا عشر غرارة مملوءة بها - قال و أنا الفقير شاهدتها بعد ذلك مرارا أيام سيدي عمار وكانت ما يزيد على مائة سفر، ثم توزعت بعد ذلك وردوا بعضها (وهنا في النسخة خلل كبير في التعبير ولكننا نلخــص مــا يمكن تلخيصه لكي لا تفوت الفائدة) - قال ولم يبق منها اليوم الا نحو ثلاثمائة سفر.

وفي شأن الرسالة المشار اليها آنفا قال ابن المفتي انه لم يشع أمرها ولـم يسمع بها الا بعض أصدقاء المفتي المذكور، ولم يخبره عنها لا أبـوه ولا شيخه مصطفى العنابي ولا محمد بن نيقرو وقال وكذلك اخواننا الأصدقاء الذين لهم خبرة بأحوال المتقدمين وكثيرا ما تحاورنا معهم فـي هذا المعنى وغيره مثل محمد بن محمد الثغريري (لعله الثغري) كان عالـما ابن عالم ومحمد بن عمر القاضي ابن المنقلاتي ومحمد بن علي بـن سيدي المهدي بن رمضان بن يوسف العلج والحاج أحمد بن اليتيم ومصطفى بن الطالب الأندلسي من أكابر البليدة وأعقلهم وأتقنهم أمرا ومحمد بن قانيط الجزيري المنشأ الأندلسي الأصل وعمنا علي بن المهدي والحاج حمودة وأحمد بن المسيسني قاضي بيت المال كان - (وننبه أن ابن المفتي كان يستعمل في كل مرة لقب التشريف أي كلمة سيـدي مـع أسماء الذين يذكرهم وهكـذا كانت عادتهم فحذفـناه لأجل الاختصـار لا غير - وسبب عزل أحمد بن سيدي سعيد مفتي المالكية هو الخلاف الذي نشأ بينه وبين النيار مفتي الحنفية في مسألة الزوجة إن أساء اليها الزوج فحكم النيار بالسكنى بين قوم صالحين وآخرين، ألا ترى لو كان سكناهما بين قوم صالحين أيستقران في السكنى هناك أو يؤمران بالانتقال الى قوم آخرين فاختلفنا في الاستقرار والانتقال وآل الأمر الى النزاع الفاضح فترافعا الى الأمير وحضر معهما علماء البلد فانقسم هؤلاء الـى فريقين أحدهما مع مفتي المالكية والآخر مع مفتي الحنفية، وبعد المحاورة تغلب فريق النيار فعزل الامير أحمـد بن سيدي سعيد ولكنه رده الى منصبه بعد أيام قليلـة وكانت وفاتـه مغـتـالا في شهر ذي الحجة

سنــة 1118هـ، وكان أديبا نجيبا وخطيبا فصيحا، وتولى بعده ابن أخته عبد الرحمن بن أحمد المرتضي وذلك في أيام الدولاتلي بكتاش خوجة، وتولى الحاج المهدي بن الحاج صالح وكان قد شغل منصب القضاء قبل ذلك وبقي خمسة اشهر بعد تعمير الجامع الكبير بالتدريسللحديث وكان لــه فيه باع، وتولى بعده عبد الرحمن بن أحمد المرتضى خطة الفتوى للمرة الثالثة وكان حسن الخط وهو لا مدخل له في هذه المنقبة الجليلة والخطة الرفيعة، وبقي خمس سنين ونيفا وبعد وفاته سنة 1128 تولى شيخنا سيدي عمار بن عبد الرحمن المستغانمي الاصل والولادة الجزائري المنشا والدار فقيه بياني نحوي اصولي متكلم منطقي فرائضي صالح جاهل بأحوال الدنيا بعيد عن أمورها، وكان محمد باشا وعبدي باشا يعظمانه وكان عاجزا عـن الخطبـة لا صوت له عندها ويكسيه (أي يعتريه) الخجل الى أن يعرق عرقا مع أنه في تقديره للعلم جهير بالكلام معبر ذو همة ونفس عالية، وعاش في أيام فتواه مشوش البال مكدر الحال من زوجته تختلس الدراهم من جيبه فكان دائما مدينا، ولقيته يوما فشكاني منها ومن أخيها محمد بن سيدي سعيد هدى كان خليفته فـي الجامع وقدمه للخطبة نائبا عنه وكان له وظائف بيده كثيرة كالكتابة لاوقاف الجامع ويقبض علــى الجميع ما يقرب من الخمسين ريالا دراهم شهرية ولم تكفه لسعة نفقته علــى ضيوفه فكان ينفق في بعض الليالي عليهم الثلاثين والاربعين ريالا.

وشاهدنا ما كان ينوع من الطعام النفيس مع تكليف نفسه فوق طاقته الى ان بلغت عليه اربعة آلاف ريال دراهم دينا وجلها بقيت بذمته يوم وفاته، فكان مع كل ما يقبض من الوظائف وما يقرض يحوم على مدخول

المفتي، وقال لي هذا الآخر ليس لي الا هذه القمجة التي علي وأولادي عراة حفاة نريد تطهيرهم وليس لي قدرة على اشتراء ثياب لهم يوم الختان، ومرض بالجنب وتوفي رحمه الله في 15 من صفر 1144 ودفن حذا صهره أبي زوجته سيدي هدى على أعلى جبل بوقندورة فوق ضريح سيدي محمد السعدي الزواوي، وتولى بعده بثلاثة أيام محمد بن أحمد بن سيدي مبارك فقيه نحوي متكلم معبر وجيه أصلح الخطبة لوفور ذكاء عقله وكسا الجامع وبنى وأصلح الخلل بشطارته (أي بمهارته) وحسن سيرته، ومن العجائب أنه سقط حائط الجامع الكبير الذي من ناحية طريق الوارين الى المرسى (نهج باب الدزيرة) وبناه في أيام قلائل باعانة أهل المدينة اياه الرؤساء الأكابر بالدراهم وأهل الصنائع والحرف بأنفسهم وفي كل يوم جماعة صنعة كبيرهم وصغيرهم حبا منهم في الخير، بدأت جماعة الدباغة من أولاد العرب في داخل المدينة ثم جماعة من صنعة أخرى فاجتهدوا في العمل والشيخ كان واقفا عندهم ينشطون ويلاطفهم في القول فجلب الخلق لفعل البر والمعروف (ثم اخبر انه كان صعب المراس جزوعا سريع الغضب)، اعتراه الاستسقاء ودفن بعد وفاته في 25 ذي القعدة سنة 1150 في تربة أبيه بباب عزون بقرب المضاربية فوق صناعة الدباغة لأولاد العجم (أي الأتراك) ولعله يريد بالمضاربية الموضع الذي كانوا يلعبون فيه ما نسميه القراش بالقاف المعقودة ،وتولى بعده شيخه وشيخنا العالم الفقيه النحوي الأصولي البياني المنطقي المتكلمي الحيسوبي الفرائض المحدث سيدي محمد بن ابراهيم بن أحمد بن موسى النيقرو الأندلسي الأصل الجزائري الولادة والمنشأ

والقبر لثلاثة أيام بعد وفاة المفتي في 27 ذي القعدة 1150 - وتنغص عيشه في أيام فتواه من ابنه الأكبر وكان يعوله مع زوجته وهي غير أم أولاده الموجودين ذاك الوقت، وكثر نزاعه مع خليفته في الجامع ولد محمد بـن هدى الذي كان متشهي الخطبة بالاستئناس (الاعتياد)في المدة الماضية أيام صهره زوج أخته عمار بن عبد الرحمن لعجزه وكبر سنه كما قدمنا من ذلك وكذا في أيام الشيخ محمد بن مبارك لأنه كان يحبه ويراعيه فترك له الخطبة ليجد الراحة، فظن محمد بن هدى أن الأمر يكون كذلك في مدة الشيخ محمد بن نيقرو الذي كان قبل ولايته للافتاء ينوب في الخطبة امام جامع القشاش وهو عبد الرحمن بن سيدي المهدي بن محمد ان تأخر لعذر، وفي شأن جامع القشاش بتشديد الشين نقول ما يلي: هو مسجد قديم لا يعرف تاريخ بنائه وكان يسمى الجامع القديم وصار يدعى فيما بعد جامع القشاش في أواسط القرن الحادي عشر الهجري، وهذه التسمية جاءته من الذي رممه ووسعه سنة1579 وكان رجلا غنيا محسنا، وكان قريبا من الجامع الأعظم في الناحية الغربية منه في النهج الذي كان يدعى نهج القناصل اشارة الى قناصل الدول الغربية الذين كانوا يسكنون به ولم يبق الآن من حي باب الدزيرة إلا ما قل من المباني فكلها هدمت ولا زالت ماثلة الا الدار الحمراء وهي من الفن المعماري الجزائري الجميل الذي ينبغي المحافظة عليه.

وكان ينوب أيضا المرتضى بالجامع الأعظم مرارا عديدة ،ولما اتصل بالافتاء ترك كل نيابة وقدم ولديه للخطبة ليراهما ويسر بهما فجزع محمد بن سيدي هدى وتألم مع أنه بقي يتقاضى صلته، فرفع الخبر الى ابراهيم

خوجة الخزناجي وهو حفيد الباشا وتعصب عليه السوقية (أي التجار علــى ما يظهر أو الأوباش معنيان مذكوران في المعاجم) وتجاسروا عليه وخاطبوه طالبين منه سماع الخطبة من نائبه زاعمين أنه هو الخطيب (أي الخطيب الكفء) وأرسل اليه الخزناجي توسلا فتركه ما ينيف على الشهر ثم قدم ابنه الصغير فانتصر النائب بمفتي الحنفية وبقاضي بيــت المال محمــد بن ميمون وكانت بينه وبين وبين مفتي المالكية ضغطة عداوة لأن هذا القاضي كانت له صلة من الجامع الكبير على حضور العلم ولكنه كـــان لا يحضر لدرسه ومع ذلك يأخذ الصلة (المنحة) فلما تولى شيخنا أمره بالحضور وخيره فأبى وطلب الرزق فمنعه من قبضه فحقد عليه فاجتمعوا عند مفتي الحنفية الشيخ محمد بن علي واستدعوا شيخنا وكلفوا عليه أن يترك الخطبة لمحمد بن هدى وحده يكون نائبا فلم يقبل واستغاظ من الحاحهم عليه وخرج مغضبا عليهم ونزعه من الخلافة وغيرها ولكن المفتي الحنفي كان يقدح فيه من غير قدرة عليه سوى الأذى باللسان وصار خدام الجامع يهينونه لأن النائب كان يضيفهم ويتودد اليهم فلزم المفتي الفراش أياما قلائل بالجنب وتوفي رحمه الله في16 ذي الحجة سنة 1152- وخلف أولادا ذكورا واناثا ومن الذكور الأكبر سي (كذا) أحمد الذي هــو الآن بمسجد ستنا مريم ويسرد الحديث بزاوية الأندلس، وولده الثاني محمد فقيه نجيب تولى مكان أبيه بالتدريس بجامع ميزومورطو بباب عزون وكان أبوه يجمع بين الفتوى والخطابة والتدريس بالجامع الأعظم، ورواية الحديث بزاوية الأندلس كانت وقت الزوال في ثلاثة أشهر رجب وشعبان ورمضان، وتولى بعده الحاج زروق بن محيي الدين بن عبد اللطيف وهــو

ابن أخت العالم المهدي بن الحاج صالح المتقدم ذكره في عد المفاتي المالكية، وكان الحاج زروق شريكي في مجلس سيدي مصطفى العنابي ومجلس سيدي عمار ومجلس سيدي محمد بن نيقرو، وهو المتولي اليوم اهـ، المنقول.

وتولى بعد الحاج أحمد الزروق بن محيي الدين بن عبد اللطيف في منصب الافتاء المالكي الشيخ عبد القادر بن محمد البراملي في شهر صفر 1169هـ - 1755م - ولم تطل مدته اذ تولى بعده الشيخ مصطفى بن أحمد المسيسني في صفر من سنة1170هـ - 1756م، ويمكن القول بأن وفاة ابن المفتي حسين بن رجب كانت في أيام الشيخ الحاج أحمد الزروق المذكور قريبا لأن التقييدات انتهت مع ذكره وشيء من الكلام عليه، والله أعلم.

وقد استفدنا فيما يتعلق بالعلماء والمعاهد الدينية بما كتبه المؤرخ الاسباني هاييدو وبالخصوص بما كتبه ألباردي فو الذي اطلع على عدد عظيم من الوثائق بالعربية وكان يعرفها معرفة كافية واستعان بمن يترجم له في الكتابات بالتركية مع الزيادة بما عثرنا عليه في غيرهما وما سمعناه من الثقات الأخيار منذ زمان مديد والاستقراء والتتبع والمقابلة بين الأخبار والتأمل والتعرف بالأماكن ونحن من مواليد مدينة الجزائر بحي الجبل، وها نحن نرغب من القراء الكرام أن يعتقدوا فينا خيرا فلم نسطر شيئا الا بعد التروي والتأني والتمهل والاستنتاج جهد طاقتنا بكل تحذر وانصاف لتأدية الأمانة التاريخية.

سلف القول على علماء مدينة الجزائر وعلى اعتنائهم بعلوم الدين والشريعة مع الحظ الوافر من اللغة والادب ونضيف هنا أن رواية صحيح البخاري التي تتلى بها وتقرأ هي رواية أبي عمران موسى بن سعادة من أهل مرسية بشرق الأندلس أولع بالحديث وانتسخ البخاري ومسلم فقالوا أنهما أصلان لا يكاد يوجد في الصحة مثلهما وهي الرواية المتداولة بالمغرب العربي، وهو من أبناء القرن السادس، وصحيح البخاري المطبوع بالأقطار الشرقية هو على رواية أبي ذر عبد الرحمن بن أحمد الهروي.

خـــاتمـــــة

هنا تنتهي هذه الصفحات في تاريخ مدينة الجزائر، وقد حاولنا أن يطلع قراؤنا الكرام على فترات تاريخها ورقيها من مستودع تجاري فينيقي أو قرطاجني الى قرية ثم بلدة صغيرة ثم عاصمة، وذكرنا آنفا الأسباب الـتي ساعدتها لتكون قاعدة البلادء الجزائرية.

ومما يستوقف النظر أنها لم تخل من الأهمية في غالب الاعصار فكان يوجد بها ويقصدها أهل العلم فمنهم من نشأوا بها ومنهم من أقاموا فيها للتعليم والتدريس فكانت بلدة طيبة من قديم الزمان في نفترق الطرق وملتقاها وثغرا بحريا في وسط البلاد وملجأ وميناء للسفن والركبان يجدون فيه ما يحتاجون اليه من الماء العذب والزاد، وهكذا نعثر في كتب التراجم من حين الى آخر على أسماء لعلماء منسوبين اليها، وهذا ما قبل القرن الثامن الهجري وأما بعده فان صعودها في مختلف المجالات لم يزل فــي الازدياد، ولا نعيد ما قلناه من قبل في هذا الشأن تفاديا من التكرار حيث أننا أفردنا لرجال العلم قسطا وافرا من هذه الأوراق.

وقد أبدينا رأينا في الحكم التركي وبسطنا جهد طاقتنا دواعي ضعفه، والحق أنه كان حكما إقطاعيا مستبدا بحيث أن أولاد الأتراك من أمهات جزائريات لم يكن لهم نصيب فيه بل أبعدوهم عن الادارة تحذرا منهم وخوفا من المزاحمة فكان اهتمام هذا الحكم بالخصوص هو جباية المغارم واكتساب الغنائم البحرية فكانت هذه من جملة الموارد التي يعتمد عليها، ولما قل دخل الغنائم في أواخر أيامه تضعضع الاقتصاد

ونقصت الثروة من أيدي الأهالي واختلت الأحوال فبذلك وبأسباب أخرى كان المآل والانهيار، ولا ننسى أن الحكام الذين كان لهم الدراية والتبصر في سياسة الدولة لم يكن من خلفهم بعد طول الزمان مثلهم بل تغير الوضع وتضاءلت الكفاءة ولكن البيئة وحضارتها لم تصابا بأضرار تؤثر فيها كبير تأثير فكان الوسط الجزائري في الجملة على مستوى رفيع لانـه كان على أساس متين من الاخلاق والتهذيب وأهله كان لهم خبرة ومعرفة بالمهن والحرف والصناع ماهرون متقنون لعملهم مع النصيحة والأمانة بــلا غبن للزبون فما لحق الوجاق من الانحلال والوهن لم يلحق الأهالي إذ كانوا بمعزل عن الادارة معتنين بالصناعة على أنواعها وبانتاج بساتينهم المحيطة بالمدينة وبالتجارة والدراسة والعلم، فاذا كنا ذكرنا معايب العهد التركي ونقائصه وهو أهم غابر عصور مدينة الجزائر في تاريخها فكان مــن الانصاف أن يكون الذكر لمحاسنه.

وننبه أن هذا المجموع من الأخبار والمعلومات لم يكن الترتيب فيه الا كما اتفق لنا الحال لأنه تقاييد في تاريخ عاصمة الجزائر وما اليه مــن شؤونها المختلفة، وقد حشرنا فيه المسائل حشرا، وخلاصة القول ومجمله أن هذه الاوراق تأليف يستفيد منه – ان شاءالله – كثير من القراء ونعيد القول بأن أهل العلم والخبرة في وسعهم أن يطالعوا الكتب المطولة لعلهم يجدون فيها مرغوبهم.

وقد راجعنا عدة مؤلفين تكفلوا بتاريخ قطر الجزائر أو بعاصمته نخص بالذكر المشايخ الآتية أسماؤهم:

عثمان الكعاك وأبو القاسم الحفناوي ومبارك الميلي ومحمد بن شنب وأحمد توفيق المدني وعبد الرحمن الجيلالي وعبد الله شريط ومحمد الميلي، وكلهم أجادوا وكل واحد منهم له وجهة هو موليها وله آراء ونظريات، وهذا ما يسر ويفيد – فمن الواجب علينا شكر مساعيهم، والثناء عليهم نراه ضربة لازب.

وها نحن أنجزنا ما وعدنا به في المقدمة بأبسط التعبير وأسهله وأقربه للإفهام ولله الحمد والسلام.

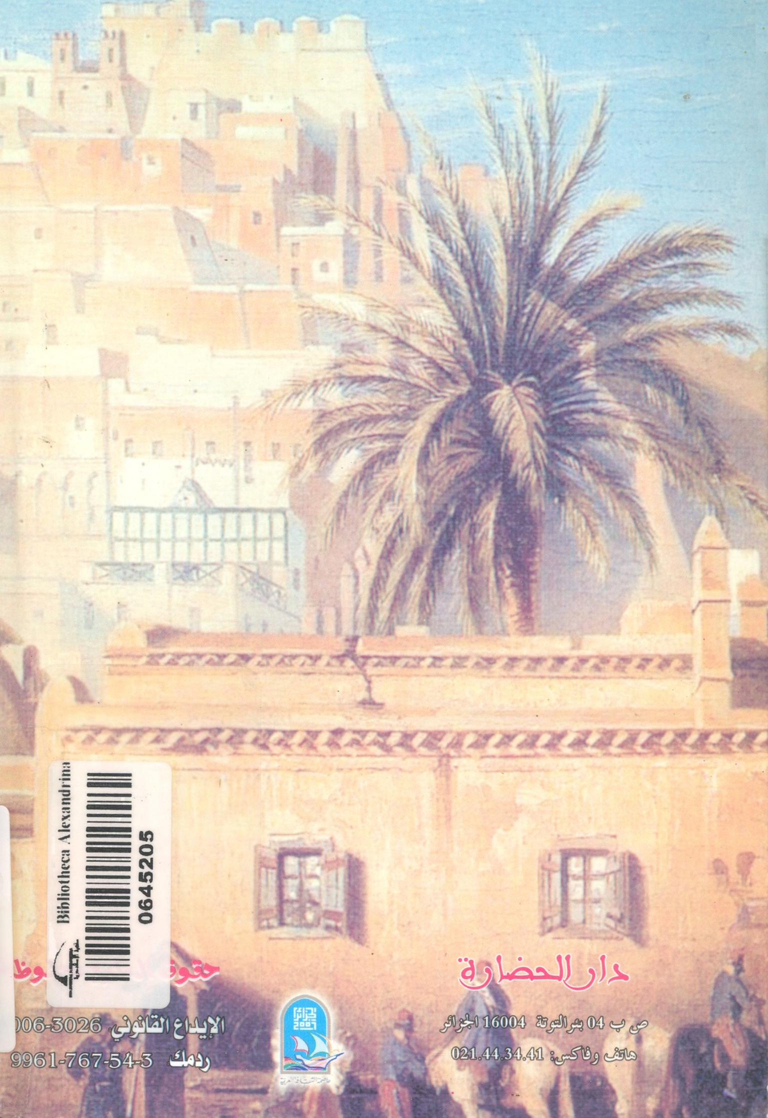
فهرس الكتاب

الصفحة الموضــوع



Achevé d'imprimer sur les presses
de l'imprimerie HASNAOUI M.




حقوق ... محفوظ
الإيداع القانوني 006-3026
ردمك 3-54-767-9961
دار الحضارة
ص ب 04 بئر التوتة 16004 الجزائر
هاتف وفاكس: 021.44.34.41